

في المعركة



جذور المعركة

سعد التاعه

وزارة الثقافة
دار الكاتب العرب للطباعة والنشر

في المعركة

جذور المعركة

بقلم
سعد التائه

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكائنات العرب للطباعة والنشر

الإهداء

.. الى الشعب العظيم

.. الى الشعب الذى انساب كقطرات الماء
من كل مكان .. فاذا به موجة .. ثم قطرات ..
وقطرات .. وأمواج .. وأمواج .. وتدفق
هادرا .. ، فى القاهرة والجزائر ودمشق وبغداد
وبيروت وعمان والخرطوم .. هاتفا « ناصر ..
ناصر »

.. الى كل طفل انسكبت دموعه .. الى
كل امرأة بكّت .. الى كل شيخ وشاب ترقّرت
عيناه .. هاتفين « ناصر .. ناصر »
.. الى الشعب العظيم

.. الى أبطاله .. الى شهدائه .. الى
الفدائيين ..

الى كل من يبذل قطرة دم ، من أجل الفد
.. من أجل مستقبل أطفالنا ..

القاهرة ١٥ يوليو ١٩٦٧

سعد التامر

الفصل الأول

« الحرية تتطلب أكثر من الموت ..
تتطلب أن يهبها الإنسان كل لحظاته،
كل قواه .. »

جودج امانو

الفرد والتاريخ

مؤامرة العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ ، في تحقيق أهدافها .. ولم يسقط الحكم الوطني ، ولم يذهب عبد الناصر .. بل خرجت مصر وعبد الناصر أقوى وأعنف في قدرتهما ..

فندلت

وفي عام ١٩٦٧ ، فشل العدوان الأمريكي الانجليزي الصهيوني في تحقيق أهدافه .. ولم يسقط عبد الناصر .. ولم ينته الحكم الوطني .. وتواجه أمريكا عداء كل العرب ، وتعاني أوروبا أعنف أزماتها الاقتصادية ، وتلقى إسرائيل غضب وسخط العالم . وبقي عبد الناصر شامخا يرفعه شعبه الى أسنى صور الانسان ، تحوطه الجماهير ، وتحميه قوى الشعب ، ويلتف حوله العرب وتؤيده قوى السلام في العالم .

لماذا عبد الناصر ؟

لماذا هتفت الجماهير من الخليج الى المحيط .. « ناصر ..

ناصر .. »

ولماذا أيدت شعوب السلام في العالم « ناصر » .

ولماذا .. هذه الأمواج الهادرة باسم « ناصر » .

ولماذا ؟

لماذا هلل الاستعمار الأمريكي والانجليزي عندما سمعوا أن

« ناصر » تنحى ..

لماذا يقول بن جوريون ، « أن لا سلام فى الشرق العربى
طالما بقى عبد الناصر .. »

لماذا قالت الصحف الانجليزية ؟ ولماذا تطالب أبواق الدعاية
الاستعمارية بزوال « ناصر » وانتهاء « الناصرية » ؟

هل يحمل الفرد كل هذه الثورة ؟ هل يمكن أن يكون
« الفرد » معركة توجه لها الأساطيل والبوارج والطائرات ، وكل
ما خلقه العقل الشرير من أدوات الخراب والتدمير ؟

نعم ، قد يكون « الفرد » معركة .. لأنه يقوم بدور يهز
التاريخ .. ويدفع التطور .. ويرفع ارادة الانسان لتغيير مصيره
ضد قوى العدوان .



ان ثورة ١٩٥٢ امتداد لثورة عرابى عام ١٨٨٢ ..
وعبد الناصر امتداد للنائر الفلاح أحمد عرابى .. ونفس الأسلوب
والمؤامرات والحقارات التى واجهها عرابى من الاستعمار القديم ،
يواجهها عبد الناصر من الاستعمار الجديد وعملائه وأعدائه .

ولكن التاريخ لا يعيد نفسه ، بل ينطلق الى الأمام ، مع ركب
الحضارة وتطور الانسان .

ودروس الماضى هى أسلحة الحاضر .. وعبرة الثورات
تشعل النيران ضد أعداء الانسان .

ان ما تواجهه ثورتنا اليوم ، واجهته الثورة العرابية منذ
قيامها ، وتواجهه كل الثورات الوطنية حتى يومنا .

واجهت الثورة العرابية منذ قيامها ، محاولات لاغتيال زعماء
الثورة .. ومناورات من الاستعمار التركى ومؤامرات من
الاستعمار الانجليزى .. وخيانة من الاقطاع والرجعية فى الداخل

.. وطعنا في قدرة القوى الوطنية ، على ممارسة الحكم وتولى مسئولياتها .. ونشروا الاشاعات الكاذبة ضد أحمد عرابي ورفاقه .. واستغل الاستعمار ايمان الشعب المصري بدينه ، وروجوا الأكاذيب عن خروج عرابي عن الدين .

بدأت الثورة المضادة ضد عرابي ورفاقه بالقبض عليهم ، وسجنهم في قسلاطات قصر النيل .. وفشلت المؤامرة بهجوم قوات الجيش على وزارة الحربية والافراج عن القادة .

وأوعز قنصل بريطانيا الى الخديو توفيق بقتل عرابي في ميدان عابدين يوم ٩ من سبتمبر .. ولكن الخديو أصيب بالذعر والجبن ولم يقدر على تنفيذ مؤامرة قتل عرابي وهو وسط ضباطه وجنده ..

ودبرت مؤامرة لقتل عبد العال حلمي ، ودسوا له السم في اللبن ، وترددت اشاعة عن اصدار فتوى تبيح دم عرابي ورفاقه . وحاول الخديو توفيق استمالة الضباط والجنود الى جانبه وأغراهم بالأموال والمناصب .. واعترف جندي تركي وأميرالاي تركي بأنهما يقومان بتحريض واثارة جنود الجيش المصري ضد عرابي وزعماء الثورة ..

وقبل العدوان الانجليزى على مصر بشهرين ، حاول الضباط الأتراك في الجيش القيام بانقلاب عسكري وقتل عرابي وكبار العسكريين الوطنيين والوزراء .. وانكشفت المؤامرة ، وألقى القبض على أربعين ضابطا ..

وقابل عرابي ورفاقه ، كل هذه المؤامرات ومحاولات الاغتيال بشجاعة وصبر ، فلم يحاولوا الرد على محاولات اغتيالهم بالارهاب أو القتل الجماعى كما يحدث عادة في الثورات ..

وحاولت قوى الاستعمار التخلص من عرابي برشوته .. وعرض آل روتشيلد عليه مرتبا سنويا قدره أربعة آلاف جنيه ، كما عرضت عليه الحكومة الفرنسية مرتبا سنويا آخر قدره ستة آلاف جنيه فى مقابل أن يترك مصر .

وعندما وصلت وحدات الأسطول الفرنسى والانجليزى الى الاسكندرية عرض قنصل بريطانيا على محمود سامى وعرابي وثلاثة قواد آخرين أن يوافقوا من تلقاء أنفسهم على ترك مصر نظير معاش سنوى واحتفاظهم بألقابهم .

.. كل هذه المحاولات كشفت مدى الزعامة الحقيقية التى كان يتمتع بها أحمد عرابي ورفاقه ، كما كشفت ادراك قوى الاستعمار والرجعية لنورة عرابي فى قيادة الحركة الوطنية .

وخلال العدوان أصدر سلطان تركيا بعد الاتفاق مع الانجليز فتوى « عصيان عرابي » ، والعصيان على السلطان فى ذلك الوقت وهو خليفة المسلمين - معناه أن « عرابي » خارج عن الدين ، ووجه الانجليز والحديو تهمة الكفر والالحاد الى كل جندي لا يترك صفوف عرابي .

وواجهت الثورة العرابية هجوما لا يقل عن الهجوم الذى واجهته قيادتها ، فكان القنصل البريطانى يبعث بتقارير الى الخارج يصف فيها حالة مصر ، ويدعى أن الفوضى تسودها منذ تولت الحكومة الوطنية الحكم .

كما أخذ أعضاء الرقابة وصندوق الدين والموظفون الانجليز يرددون مع أنصار الخديو الطعن فى الحكم الوطنى ويتباكون على الحرية ، وكتب مسنر كوكسن عن الثورة العرابية قائلا « ان مايتظاهرون به من طموح الى العدل والحرية قد انتهى بأن حلت سلطة الجيش الغاشمة محل كل سلطة مشروعة » .. وكتب عن

« الاضطراب والفوضى السائدين فى الأقاليم » ووصف السير
أوكلند كلفن نظام الحكم الذى أقامته الثورة بأنه « هو بأسره تحت
سيطرة جيش متمرد ظافر » .

.. وترددت الاشاعات وأبواق الخيانة والدعاية ، تحدثت
عن المحسوبية والرشوة والتبذير .. والحكم المطلق ، والفساد ..
وذرفت قوى الرجعية والاستعمار دموع التماسيح على حال مصر .

**وساهمت الصحافة الرجعية فى الداخل بدورها فى الثورة
المضادة ، وأطلقت جريدة « الأهرام » على عرابى لقب « العاصى » ،
ورد عليهم عبد الله النديم ، فأخرج ملحقا خاصا من جريدته جعل
عنوانه « سليم وبشارة تقلا وتوفيق باشا » ، وهجا فيه الصحافة
الماجورة المتقلبة بأسلوب مقدع صارخ ..**

كانت خطة الاشاعات والمفتريات تهدف الى اثاره الراى العام
على الوزارة الوطنية ، واعداده لقبول التدخل الأجنبى ، والرضا
بالاحتلال الانجليزى .

وقام أصحاب البنوك ورجال المال فى أوروبا يطالبون حكوماتهم
بالتدخل ، ورد أحمد عرابى على تهديداتهم بقوله :

« أما عما يتهددنا به كبار أصحاب المصارف ورجال المال فى
أوروبا ، فانا سنحمل ذلك فى ثبات وحكمة ، ففى رأينا أن ذلك
الوعيد لن يضر الا أنفسهم - وانه ليؤذى تلك الدول التى يضلونها »
.. ولكن المسألة لم تكن أصحاب المصارف فان رجال الدولة
والحكومات الاستعمارية هم أنفسهم رجال المال .. وصرح غمبتا
رئيس وزراء فرنسا بأنه « يعارض أشد المعارضة ، فى أى تدخل
من المجلس النيابى فى أمر الميزانية » .

وهكذا كشف « غمبتا » أن بكاءهم على مصر لم يكن هدفه

الا استمرار استغلالهم واستنزافهم لأموال الفلاحين والوطنيين
ونهب ميزانية الشعب المصرى .

وهنا نسأل ..

لماذا كان هدف الاستعمار عام ١٨٨٢ هو القضاء على أحمد
عرابى نفسه ، وإثارة الاشاعات حوله ، والهجوم عليه شخصيا ،
والطعن فى نزاهته ، والتشكيك فى دينه ؟ وهل معنى ذلك أن
القضاء على أحمد عرابى ، كان معناه وقف سير التاريخ وحتمية
الصراع ؟

ما من قوة تستطيع أن تغير القوانين الموضوعية ، فالصراع
الذى قام فى عام ١٨٨٢ بين قوى الشعب الوطنية وقوى الرجعية
والاستعمار كان صراعا حتميا ، وضرورة أملت ظروف العالم فى
ذلك الوقت ، كما أملت حاجات الشعب المصرى ومطالبه .. هذه
هى قوانين التطور .

وإذا انسجم الناس مع قوانين التطور بعد أن يعوها تحققت
حريتهم كاملة . اذ تغلبت الحرية ضرورة واعية ، ومن ثم يغدو
التاريخ سيره الصحيح ، ويمكن أن يصل التطور الى أهدافه بأسرع
مايمكن ، وبأقل مايمكن من التضحيات والمآسى والفواجع ، وعندما
يقف بعض الناس فى وجه هذه القوانين وعندما يتعذر الى حين
الثور على من يستجيب لمتطلبات العصر ، فلا شئ يغير من خط
التطور ، ولكنه قد يتأخر من الوجهة الزمنية ، ولكن ما من قوة
تستطيع أن تغير القوانين الموضوعية ، فهى حتمية لازمة تملئها
ضرورة لا يمكن مقاومتها ، ولكن هذه الضرورة لا تعنى أبدا أن
التطور يتم من تلقاء نفسه ، فإن ارادة الانسان والجمهير تؤدى
دورها فى تغذية سير التاريخ .

والرجل العظيم هو الذى يستجيب لمتطلبات العصر ويؤدى مايجب عليه نحو التطور .

وهكذا كان « أحمد عرابى » .

وحاول الاستعمار بمؤامراته واشاعته وتجميع قوى الرجعية والحيانة أن يتخلص من أحمد عرابى ليؤخر ويعطل التطور وسير التاريخ للشعب المصرى .

ووصل الاستعمار الى أهدافه عام ١٨٨٢ بالعدوان البريطانى وخيانة الرجعية والاقطاع ، ونفى عرابى .

ولكن ثورة ١٩٥٢ ليست فى بساطة وسهولة غيرها من الثورات ، انها الثورة التى أحدثت منعطفا فى سير التاريخ ، وهى اليوم تقفز بالتاريخ عشرات السنين الى الأمام .

وعبد الناصر ، ليس أحمد عرابى ، وليس « مصدق أو لومومبا أو نكروما » .. انه نهرو وأنديرا وكاسترو وسيكوتورى ونيريرى وبومدين وعارف والأناسى والسلال وأيوب خان وهوشى منه .

ان عبد الناصر ، وان كان امتدادا لأحمد عرابى ، الا أنه عملاق الثورة الوطنية فى طريقها الى الاشتراكية .

كنا أيام عرابى ، فى ظرف تاريخى مختلف .. كان الاستعمار فى عنفوان قواه وفى خط صعوده .

واليوم يدخل الاستعمار مرحلة انهياره .. فاذا كانت ١٥ دولة قد انتزعت استقلالها فى السنوات العشر الأولى بعد الحرب العالمية الثانية ، فان ٣٥ دولة قد انتزعت فى الفترة من عام ١٩٥٦ - ١٩٦٣ .. واذا كان عدد سكان المستعمرات ثلثى سكان

الكرة الأرضية في عام ١٩٤٥ فإنه حتى نهاية عام ١٩٦٣ بقي في
سلاسل العبودية الاستعمارية مايزيد بقليل عن ٤٠ مليون شخص ،
أى أكثر بقليل من ١٪ من سكان الأرض .

• وكنا أيام عرابي وحدنا وسط قوى الطغيان الفاشم .

أما اليوم ، فان أصلب شعوب العالم معنا . . بتأييدها
السياسى . . وقواها الاقتصادية . . وتفوقها العسكرى .

ان الشعوب الاشتراكية ، وشعوب العالم الثالث والشعب
العربى كله ، بكل الأسلحة النووية وأسلحة البترول والتضامن
العالمى . . كل هذا معنا . .

والشعب العربى فى مصر . . وفى العالم العربى كله وقف
حائلا بين قوى الطغيان وبين الرجل العظيم .

• ان الشعب يحمى قائده . . ولن يعود الى الوراء .

الفصل الثاني

« ولدى الصغير يسألني ، هل
تعلم التاريخ ؟ »

وتحدثني نفسي ان اقول ، وما
الداعي ؟

تعلم كيف تغطي رأسك في التراب
فربما بقيت حيا

غير اني اعود فاقول له :

نعم يا ولدى

تعلم التاريخ . .

برتولت برخت

بين استعمارين

وقعت أحداث الثورة العربية في عام ١٨٨٢ .. بعد ثلاث
ازمات للنظام الرأسمالي في أوروبا ، فقامت الثورة
العربية لمواجهة الاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية ،
وكانت هذه المرحلة من حياة الاستعمار تقوم أساسا
على تصدير رعوس الأموال الى الخارج لابتزاز الأرباح من عرق وجهد
الشعوب ، حتى يمكن للنظام الرأسمالي مواجهة الأزمات التي تخنقه
في الداخل ..

كانت هذه الفترة هي مرحلة النمو الاستعماري ..

غزت فرنسا شمالى افريقيا ، واحتلت تونس عام ١٨٨١
ثم مراكش عام ١٩١١ .. واحتلت السودان الفرنسى عام
١٨٨٧ ..

وقامت انجلترا بإنشاء مستعمراتها الافريقية خلال نفس
الفترة .. فاحتلت نيجيريا عام ١٨٥١ .. وبدأت عملياتها الحربية
في جنوبى أفريقيا عام ١٨٩٤ ..

وكانت الدول الرأسمالية الاستعمارية تتربع وفاة « الرجل
المريض » ، كما كانوا يطلقون على تركيا ، ليرثوا التركة فى سوريا
والعراق ولبنان .. وتم لهم ذلك فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ..

انها فترة زمنية رهيبية .. بدأت منذ أراد محمد على أن يقيم
صناعة فى مصر ، ويدخل بالشعب المصرى مرحلة البناء الرأسمالى،

ووجدت الرأسمالية الغربية فى هذا المنافس خطرا ٠٠ انه يستطيع بموقعه الجغرافى أن يسد عليهم الطريق الى مستعمراتهم فى آسيا ، ويستطيع أن ينافسهم ببضائعه وصناعاته فى أسواقهم ٠٠

وكانت خطوتهم الاولى هى التخلص من هذا المنافس الجديد ، وضرب الدولة الصناعية الناشئة ٠ وتم التحالف بين دول أوروبا الرأسمالية للوقوف فى وجه محمد على ٠٠ وكانت معركة « نفايرين » البحرية ، واستسلم محمد على ، وقضى على آمال الشعب فى أن يدخل مرحلة التطور الصناعى الذى سبقته إليها أوروبا ، وعادت مصر الى الوراء درجات من التخلف بعد أن أغلق محمد على المصانع وشرت العمال وأوقف البعثات الى الخارج وخفض عدد قوات الجيش ، وعادت مصر الى حياتها الزراعية ، حياة التخلف ، وانطفأ نور الأمل الى المستقبل ٠٠

وكان من آثار هذه الخطوة التى تراجعت إليها مصر ، أنها جعلت الهوية سحيقة بين تقدم أوروبا الصناعى وتخلف مصر الزراعى ، ولم يبق أمام الدول الاستعمارية الا ترقب الظروف لاحتلال مصر ٠٠

أمس ٠٠ واليوم ٠٠

٠٠ لم يكن ما حدث فى مصر أثناء الثورة العربية الا صورة لما تكرر فى المستعمرات ٠٠ ولهذا لا بد من القاء نظرة جديدة على تطورات هذه الثورة ، وأحداثها ٠٠

ورثت الثورة العربية تركة ثقيلة ، « صراع بين فرنسا وإنجلترا على احتلال مصر ٠ تماما » ، كما حدث عام ١٩٥٢ ، عندما كان الصراع على أشده بين إنجلترا وأمريكا للسيطرة على منطقة الشرق الأوسط ٠٠

وارتفعت أصوات في مصر تنادى بالارتقاء في أحضان
انجلترا لصد تغلغل فرنسا ورغبتها في السيطرة ، وكان الحثيوي
اسماعيل في هذا الجانب .

وارتفعت أصوات تنادى بأن فرنسا هي القوة التي يمكن
الاعتماد عليها للوقوف ضد جشع انجلترا ورغبتها في احتلال
مصر . .

وغفل أصحاب الاتجاهين ، أن فرنسا وانجلترا في ذلك
الوقت كانتا تمثلان سياسة رجال الأعمال والرأسماليين ، وأن
الهدف من مناوراتهما هو استعمار مصر واستغلال شعبها وسرقة
ثروته لنقلها الى جيوب الرأسماليين في بلديهما . .

انها نفس القصة التي تتكرر اليوم . . فانجلترا وأمريكا عام
١٩٥٦ ، لم يختلفا على ذبح الفريسة ، ولكنهما اختلفا على طريقة
الذبح ، لينفرد كل منهما بالتهام الوليمة وحده .
وكان الموقف أيام الثورة النعراوية يخلف تماما عن الموقف
اليوم . .

ففي عام ١٨٨٢ . لم تكن هناك دول اشتراكية أو دول العالم
الثالث ، ولذلك انفرد الاستعمار بالعمل والسيطرة ، واستغل
قوته لتنفيذ أهدافه وأغراضه . .

أما اليوم ، عام ١٩٦٧ ، فالعالم قد تغير ، والاستعمار في
مرحلة انهياره ، والرأسمالية تتلقى الضربات القاتلة في كل مكان
من العالم . .

ولم يحدث في تاريخ الاستعمار ، أن كشف عن نفسه ، وأعلن
أنه قادم لاستنزاف ثروة شعب من الشعوب . . تسرب الى الهند في
شكل تجارة ، ثم بقي هناك باسم مسئولية ادخال الحضارة . .

ودخل تونس بعد أن ادعى أن الباي ضرب السفير الفرنسي بالمروحة
٠٠ وأحال فيتنام الجنوبية الى مجزرة باسم حمايتها من العدوان
الشمالي أو الشيوعية ٠٠

ان الاستعمار الجديد ، يلجأ الى نفس الاسلوب ، ويضيف اليه
مبتكرات جديدة من عالمه الجديد ، عالم أضطهاد الزوج ، عالم
جيمس بوند ، عالم الخنافس ، عالم قنابل النابالم ، عالم القتل
الجماعي للنساء والأطفال في فيتنام ٠٠

ان أمريكا ، تتقدم بمشروعات ترومان ومشروعات ايزنهاور
والنقطة الرابعة والقروض المشروطة ، ثم تأتي المفاجأة بأن ما استنزفه
الرأسماليون والاحتكاريون الامريكيون من الدول النامية ، أضعاف
أضعاف ما قدمته أمريكا من مساعدات ٠٠ ولم نسمع أن أمريكا
أقامت مصنعا واحدا للإنتاج ، أو تطوير الصناعة في البلاد النامية،
ولكنها تقدم الكوكاكولا وأفلام رعاية البقر ٠٠

الصوص الراسماليون ٠٠

ان مدخل الاستعمار الجديد يشبه الى حد كبير مدخل الاستعمار
القديم ٠٠ فالهدف واحد ٠٠

ففي عام ١٨٨٢ ، عندما اندلعت الثورة العراقية ، كانت مصر
تواجه تمعرات داخلية وأزمات خارجية بدأت مع مطلع القرن التاسع
عشر ٠٠

ففي عام ١٨٢١ لم يكن في مصر ، سوى بيت انجليزى واحد
لتجارة القطن في الاسكندرية ، وفي عام ١٨٢٧ كانت هناك ٩ بيوت
انجليزية تتاجر في القطن المصرى ٠٠

وفي فترة أزمة أوروبا ، دخل مصر ٣٠٠٠٠٠٠ جنيهى .

« كما يقول مؤلف كتاب « بنوك وباشوات »

« بمجرد موت عباس ، جاء من كل بقاع أوروبا المحتالون والباحثون عن الذهب ، وتدفعوا بأعداد هائلة ، كما لو كانت مصر كاليفورنيا جديدة »

ويقول :

« ومع ذلك فقد كان انشاء قناة السويس ورواج القطن هما العاملان اللذان ترابطا فجعلتا من هذا التيار اعصارا .. ففي عام ١٨٦٢ ، دخل مصر ٣٢ ألف أجنبي ، استمر في الزيادة السنوية حتى بلغ ٨٠ ألفا عام ١٨٦٥ ، واستمر ذلك حتى انهارت أسعار القطن عام ١٨٦٦ ، فتوقف هذا الاتجاه وهبط الداخلون الى ٥٠ ألف أجنبي » .

وكما يصفهم « دافيد لاندز » مؤلف الكتاب :

« كان القادمون مجموعة انتهازية شديدة المراس خرجت لتبحث عن الثروة بصرف النظر عن كيفية جمعها .. »

ان صور الحطف والسلب والنهب والابتزاز التي مارسها الأوروبيون في مصر خلال أيام سعيد واسماعيل ، كانت مأساة .. أما الشركات ، فأمرها رهيب .. يقول جنكس في كتابه « ارتحال رأس المال البريطاني » .

« الآن امتلأت البلاد بالمهندسين البريطانيين . يقومون بالمشروعات وفي الاسكندرية كانت إحدى شركات المقاولين الإنجليز تقوم بأعمال البناء في الميناء لقاء مبلغ ٢٥ مليون جنيه ، في حين أن هذه الأعمال تكلفت حوالي ١٥ مليون جنيه » .

ومعنى ذلك أن شركة واحدة فى صفقة واحدة انتزعت مليون جنيه من الضرائب التى يدفعها المصريون ٠٠

والقصة أطول وأعمق ، فهى ليست مسألة أفراد أو شركات بل هى « رأسمال » يتحرك ٠ وكلما ضاقت السبل فى وجهه داخل بلاده ، خرج يبحث عن المزيد من الربح فى بلاد بعيدة لامتناس دماء وحياة شعوب أخرى ٠٠

ووجد أصحاب رؤوس الأموال فى فرنسا وانجلترا أن مصر بقرة حلب لا يحلمون بمثلها ٠ فقدمت الشركات والبنوك الانجليزية والفرنسية القروض للخدو أسماعيل وبلغ مجموعها ٥٢ مليون جنيه ، لم يقبض منها الا ٣٥ مليوناً ، أما الفرق وهو حوالى ١٧ مليوناً من الجنيهات فلم يكن الا أول قطف الثمار ٠ وانتقل أول أرباح القروض الى الدول الاستعمارية لدفع شبح المجاعة والأزمات الرأسمالية ٠٠

وفى مصر ، فكما قال مؤلف « مصر كما هى » الذى نشر عام

: ١٨٧٧

« كان من المحتم أن يؤخذ سنوياً حوالى ٦ ملايين جنيه من دخل الدولة الذى لم يكن قد بلغ ١٠ ملايين جنيه فى العام » وذلك لسد أرباح القروض ٠

وبديهى أن يكون الجوع والفقر والبطالة فى كل مكان ٠٠ فنشرت جريدة التايمز الانجليزية عام ١٨٧٩ تعلق على الحالة فى مصر ، قائلة :

« ان الضرائب تجمع فى وقت يموت فيه الناس على قارعة الطريق ، ومساحات من الريف لا تزرع ٠٠ والفلاحون قد باعوا ماشيتهم ، والنساء حليهن والمرابون يملئون مكاتب الرهون ٠٠ والمحاكم تصدر أحكام المصادرة » ٠

أليس هذا هو حال الشعوب فى أمريكا اللاتينية اليوم تحت سيطرة أمريكا وسطوة المالىين والاحتكاريين والعسكريين الأمريكيين؟!!

كانت القروض تنهال على الخديو من الاتحاد المالى الانجليزى الألمانى والبنك الانجليزى المصرى ، ومجموعة مالية يمثلها قنصل فرنسا فى الاسكندرية ، وممثل بنك روزتشايلد ، وديرفيو الذى كان يزمع انشاء بنك للائتمان فى مصر ..

كل هؤلاء كانوا يحيطون بالخديو اسماعيل يتنافسون على تقديم القروض ، وبديهي أن كل هذه البنوك لم يكن لديها المال الذى تقدمه ، بل كانت مهمتها فى الحقيقة هى تقديم الخديو الى الرأسماليين، ورجال البنوك فى لندن وباريس ..

وخلال ذلك تشاهد الصراع بين شركات بناء السفن الانجليزية والفرنسية ، فعندما منح الخديو اسماعيل عقود بناء السفن للشركات البريطانية ، أرسل ممثل الشركات الفرنسية الى وزير الزراعة والتجارة والأشغال العامة الفرنسى ، وهو فى نفس الوقت رئيس مجلس ادارة مسيجرى امبريال وعضو فى مجلس ادارة شركة فورج وشانیه للبحر الأبيض ، يطلب منه الاحتجاج لدى الخديو لمحاباته الشركات الانجليزية .

.. الشركات الانجليزية والشركات الفرنسية ، والبنوك ، أصحاب رهوس الأموال ، كلهم يبحثون على الربح فى مصر ، وخزانة مصر مفتوحة لهم يغرفون منها بكل الوسائل الاحتياطية .

.. والمشروعات التى تقام ، ليس فيها مشروع واحد صناعى .. اما مد خطوط للسكك الحديدية .. أو تعبيد للطرق .. أو اقامة منشآت وقصور للخديو .. كل ما وراء هذه المشروعات هو توريد سلع أوروبا الى مصر وتحويل الأرباح الى بلادهم ..

كانت فائدة القروض الرسمية تتردد بين ٧٪ و ١٢٪ أما فائدتها الحقيقية فتتردد بين ١٢٪ و ٢٦٪ .

ان تدفق الفائض من المصنوعات يلزمه تدفق الفائض من المال الأجنبي .

وتتحول الديون ، من ديون شخصية على اسماعيل الى ديون على مصر، يدفع ارباحها الفلاح من عرقه وارضه والعامل من قوت أطفاله والشعب من دمه ..

وكان وزير المالية المصرى يتحايل بشتى الوسائل والطرق في جمع الضرائب، وارهاق التجار والفلاحين والحصول على أقصى ما يستطيع من مال ، ثم تحول هذه الأموال الى خزائن أوروبا ..

ان هذه القروض ، كانت بشروط ، بعضها كان مضمونا بايرادات الجمارك وبعضها بايرادات السكك الحديدية ، فأخذت تتداخل خيوطها لتحبك شبكة تحيط برقبة مصر ..

وأوفدت بريطانيا بعثة من رجال المال لمعاونة وزير المالية المصرى فى تنظيم مالية مصر ..

.. أى أن نفس اللصوص الذين نهبوا الخزانة المصرية هم أنفسهم الذين سيجيئون لتنظيمها ..

ولم تتوقف عمليات استنزاف الأموال المصرية ، حتى جاء عام ١٨٧٦ ، وأعلنت الحكومة المصرية توقفها عن دفع أقساط الفوائد والديون ..

وتدخلت الحكومتان الفرنسية والانجليزية لحماية أموال المغامرين واللصوص . وقررت انجلترا ارسال مستر جوشن وهو أحد وزراء المالية السابقين وابن أحد أصحاب بنك فرهانج وجوشن بانجلترا ، وهو البنك الذى أقرض مصر قروضها الأولى .

ان العصابات المالية من الرأسماليين تعمل فى تناسق .

ففى مصر ماليون أجنبى يمهّدون الطريق لعقد القروض من البنوك الأوروبية . وفى أوروبا بنوك أصحابها أعضاء فى الحكومات .

•• وجاء جوشن من إنجلترا وجوير من فرنسا وفرضا على الحديو تحت التهديد انشاء رقابة على مالية مصر ••

انها نفس الرقابة التى طلبها البنك الدولى لتقديم قرض السد العالى عام ١٩٥٦ •• ولكن عام ١٩٥٦ يختلف عن عام ١٨٧٨ ••

وفى أغسطس عام ١٨٧٨ تشكلت وزارة مصرية بين اعضائها وزير انجليزى وآخر فرنسى •• وفرضت الرقابة على المالية المصرية ، لمصلحة أصحاب الديون •• واستطاعت المراقبة الاجنبية أن تجمع ٦ ملايين جنيه لتدفعها لأصحاب القروض •• وكتب قنصل بريطانيا الى حكومته يقول :

« •• أخشى أن تكون هذه النتائج لم تتم الا بما فيه هلاك الفلاحين من حملهم على بيع محصولاتهم قبل حصادها ، وجباية الضرائب قبل مواعيدها •• »

وقال :

« •• لقد أفقرت خزانة الحكومة ، وأصبح للجنود والموظفين مرتبات شهور عدة ، وأصبح الموظفون فى أنكد عيش وأتعس حال ، ولقد وقف دولاب الحكومة وقوفا تاما •• »

وكان هذا بديها ، فان ما أخذه الدائنون من ايراد الحكومة البالغ ٩٥ مليون جنيه ، كان لا يقل عن ٧٥ مليون جنيه ••• وحدثت المجاعة •• وهذا وصفها :

« •• فكان من وراء ذلك كله ، ان انتابت أهل الصعيد قاطبة

سنة شديدة ، لم يسمع بمثلها منذ أجيال مضت . فكنت ترى
الاطفال والنساء هائمين على وجوههم متنقلين من قرية الى قرية
يستجدون الاكف ليدرءوا غائلة الجوع ، وكثيرا ما حملتهم شدة
المسغبة على أن يقتاتوا بفضلات الطرق وقمامة الشوارع ، وقد
أحصى من أكلهم القحط فى العام المذكور ، فلم يقلوا عن عشرة آلاف
نسمة .. »

« ان وجود جيش جرار من موظفى الحكومة مشرف على الموت
جوعا لفضيحة أحق بالاعتبار من نفس تأجيل الدين العمومى تأجيلا
مؤقتا » .

ولكن الذين يبحثون عن المال ، لا يعرفون الرحمة .. ان
مشاعرهم هى المال .. ومنطقهم هو الربح .. وهدفهم هو الثراء ،
ولو سرقوا آفان الموتى !

ودفعت مصر فوائد القروض وأقساط الديون كاملة !

ولم يكن هذا كله كافيا .. بل كان لابد من مزيد .. وتقدمت
لجنة الرقابة المالية تطلب تعيين لجنة لادارة السكك الحديدية وميناء
الاسكندرية .. وتم لهم ما أرادوا .

وخطوة خطوة تفقد مصر استقلالها .. فتألفت لجنة أوروبية
تحت ضغط الحكومات الأوروبية سميت « لجنة التحقيق العليا
لبحث حالة الحكومة المصرية من النواحي المالية » .

.. وأصبحت مصر تحت الوصاية !

وتشكلت وزارة جديدة ، دخلها وزيران أوروبيان، أحدهما
انجليزى لوزارة المالية ، والثانى فرنسى لوزارة الاشغال ..
وخفض عدد الجيش ، وأنقص عدد موظفى الحكومة .. وتأخر

صرف المرتبات ٠٠ وبدأ التذمر يأخذ صورا من العنف بين الضباط والموظفين والفلاحين ٠٠ وحتى بين ملاك الاراضى ٠!

وفى نفس الوقت بلغت مرتبات الموظفين الاجانب الذين جاءوا لاصلاح حال مالية مصر أكثر من ٦٠ ألف جنيه !

وأرسل قنصل السويد فى القاهرة الى حكومته تقريرا عن الحالة قال فيها :

« ان الطريقة التى اتبعت حتى الآن فى حل المشكلة المالية تكاد تشبه الطريقة التى يتبعها الانسان مع دائن خاص ٠٠ لسنا نبحث فى : هل انتفعت مصر بما استدانته من الاموال أو لم تنتفع؟ وهل يستحق العطف أولئك الدائنون الذين أقروضوا أموالهم بربا فاحش ، ونالوا من الأرباح الطائلة ما عاد عليها بالضرر ، أو لا يستحقون ؟ ٠ فان واجب مصر أن تفى بعهودها ، ولكن ليس معنى ذلك أن يقضى على أهل مصر ارضاء للدائنين ٠٠ ليس من السهل أن نعد الاهالى والحكومة شيئا واحدا ، فيثقل كاهل الفلاحين بالضرائب الفادحة ويجاز للدائنين أن يتصرفوا فى الفلاح وأرضه للحصول على ما يرضيهم ، ان مصر الآن أشبه بضیعة كبيرة يديرها الدائنون ، ولكن مع هذا الفارق الكبير وهو أن الدائنين عادة يفهمون أنه لا بد من انماء موارد الضیعة حتى يحصلوا على أموالهم ٠٠ أما فى هذا البلد فلا يفكر الانسان الا فى تسلم الاموال ناسيا انه على مر الايام يستحيل عليه أن يحصل حيث لم يزرع ٠٠ ان الاحكام الصادرة على الحكومة باقية لم تنفذ والموظفون يقاسون آلام البؤس والشقاء ، لان مرتباتهم لم تدفع اليهم منذ شهور عدة ، وكل عمل منتج نافع معطل ودولاب الادارة واقف ، كل هذا بحجة أن الدين يجب أن يدفع قبل كل شىء وأن يكون له المقام الاول ٠ »

٠٠ كانت هذه هى بداية تسرب الاستعمار القديم الى مصر ،

التي انتهت بالاحتلال البريطاني ، حتى تحمي القوى المسلحة والمدافع والرصاص ، أرباح أصحاب رؤوس الاموال من الانجليز والفرنسيين والنهابين ولصوص أوروبا ..

الاستعمار الامريكى

واليوم .. يظهر استعمار جديد ..

والاستعمار الجديد لم ينشأ فجأة ، ولكنه جاء نتيجة تطور الاحداث فى امريكا نفسها وفى العالم ..

على اثر حرب الاستقلال الامريكية ، أخذ أصحاب رؤوس الاموال الامريكيين فى التوسع الاقليمى على حساب الهنود الحمر والمكسيكيين ومختلف الدول الاوروبية الاستعمارية، وهكذا أصبحت الولايات المتحدة دولة ضخمة قارية الاتساع ، بعد أن كانت من قبل رقعة من الارض صغيرة تمتد على الساحل الشرقى ..

وافتححت الحرب الاهلية عهدا جديدا .. ففي خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر نمت الصناعة فى الولايات المتحدة بأسرع مما نمت فى أى بلد آخر وشيد الرأسماليون الامريكيون الأوائل ثرواتهم على آلام الملايين من الزوج الذين اختطفوا من ارجاء افريقيا وآلام أبنائهم وبناتهم بعد ذلك .

وبعد ذلك بدأ أصحاب رؤوس الاموال الامريكيين فى البحث عن مصادر للربح خارج حدود الولايات المتحدة وأخذت أمريكا تصدر رأس المال الى الخارج بعد أن كانت من قبل تستورد رؤوس الاموال من الخارج ..

وخرجت الشركات الامريكية تغزو البلاد الاجنبية وعملت على اقتسام الممتلكات والاسواق فيما بينها وبين زميلاتها الدول الاستعمارية الاوروبية .

وحتى عام ١٨٩٨ لم تكن أمريكا تسيطر خارج حدودها الا على آلاسكا وهاواى وجزء من جزر ساموا .

ان منطقى الاستعمار هو أن تتبع السيطرة الاقتصادية سيطرة سياسية وعسكرية .

وفي عام ١٨٩٨ شنت الولايات المتحدة حربا استعمارية لاعادة تقسيم العالم ، وكانت هذه الحرب ثانوية خاضتها ضد عدو مستضعف هو اسبانيا .

ومع ذلك فقد كانت غنيمتها ضخمة هائلة .. استولت على الفيليبين وبورتوريكو وسيطرت بصورة غير رسمية على كوبا ، وكسبت مناطق نفوذ واسعة تشمل القسم الشمالى من أمريكا الجنوبية ، وأمريكا الوسطى كلها ، وبسطة سلطانها العسكرى على بحر الكاريبى وعلى كثير من القواعد المهمة فى المحيط الهادى . بل أكثر من ذلك ، امتد نفوذ أمريكا المتعظم فى ذلك الوقت الى بلدان أمريكا اللاتينية حيث كان رأس المال الانجليزى والفرنسى هو المسيطر .

ولم تكن الحرب ضد اسبانيا غير بداية متواضعة ، فان شعوب البلاد التى فرضت أمريكا سلطانها عليها لم تكن راغبة فى أن تستبدل الاستعمار الانجليزى والاسبانى القديم بمراء الاستعمار الأمريكى الجديد ، فما كان من الاستعماريين الأمريكين ، الا أن خاضوا حروبا عدوانية ، وتدخلوا بالقوة المسلحة لقمع شعوب الفيليبين والمكسيك وكوبا ونيكاراجوا وباناما وهايتى وكولومبيا والدومينكان وكوستاريكا وهوندوراس والصين .

ويتجلى الدور الذى لعبته القوة العسكرية فى تدعيم سيطرة أصحاب رؤوس الاموال الأمريكية فى كلمات الميجور جنرال سمدلى بتلر :

« لقد قضيت ثلاثة وثلاثين عاما في خدمة جيشنا الامريكى ،
كنت فى معظمها أشبه بقاطع طريق يعمل لمصلحة وول ستريت
والشركات والبنوك الكبرى »

وإذا كانت الامبراطورية الامريكية قد استهلكت حياتها بالحرب
والعدوان ، فقد حققت نموها الأعظم بالطريقة الدامية نفسها . ان
جميع ما كسبه الاسنعمار الامريكى بعد ذلك ، كان نتيجة الدور
الذى قامت به فى الحربين العالميتين الاولى والثانية ، ومن أعمالها
وتهديداتها العسكرية فى السنوات التى أعقبت الحرب العالمية
الثانية .

ولكن التوسع الامريكى لم يحقق انتصاراته كلها بالطرق
العسكرية ، فقد ادى الضغط الاقتصادى دوره المهم فى ذلك . .
وهذا الضغط يشمل :

✱ تقديم القروض الى البلدان المستضعفة والتى خربتها
الحرب ، بشروط مناسبة للشركات الامريكية .

✱ عقد الاتفاقات التجارية التى تحظر حماية الصناعات فى
الدول النامية من خطر الاحتكارات الامريكية الضخمة .

✱ منع السفن من السفر الى البلدان وشن الحرب على العملة
الرسمية فى تلك البلاد .

✱ تقوية العناصر الرجعية فى البلدان الاخرى لكى تستطيع
خدمة مصالح الاحتكارية الامريكية .

✱ عقد المعاهدات التى تمكن الشركات الامريكية من الاستيلاء
على موارد الشعوب الأخرى ، استيلاء غير محدود .

✱ التدخل الدبلوماسى لانتزاع الامتيازات لمصلحة الشركات
الامريكية .

✽ تعيين المستشارين والخبراء الماليين الأمريكيين للسيطرة على ميزانية وموارد البلدان النامية .

وطبعى ان تسير الاساليب العسكرية واساليب الضغط الاقتصادى جنباً الى جنب ، فان قوة الاستعمار الأمريكى الاقتصادية هى التى تدعم قوته العسكرية كما ان الضغط الاقتصادى والسياسى لا يجدى الا اذا دعمه تدخل عسكرى او التجأ الى مثل هذا التدخل ، وهكذا تلتقى كل الوسائل والأساليب والمؤامرات فى خطة توسعية عامة تكون « سلمية فى بعض الاحيان ، وشبه حربية فى احيان أخرى ، ولكنها موجهة دائماً ضد شعوب البلدان التى توجه اليها أمريكا ضربتها .

ويقول فيكتور ييرلو ، استاذ الاقتصاد الأمريكى :

« ان الاستعمار الأمريكى يحاول أن يخلق أشكالاً جديدة من الحكم الاستعمارى وعمد رجاله الى تضليل الراى العام ، فقالوا ان هذه البلاد ، الولايات المتحدة ، لا تطمع فى مغانم اقليمية ، ولكنها حريصة على رفاهية الشعوب الخاضعة لسلطانها ، ليس غير .. »

ومنذ الحرب العالمية الثانية ورجال الاحتكارات الأمريكية يحاولون تضليل شعوب العالم بهذه النغمة ، ويحاولون التوسع تحت هذا القناع فى كل مكان . وتحاول واشنطن ان تستغل حركة التحرر فى دول العالم الثالث لتحل محل فرنسا وانجلترا ، كما استغلت قبل خمسين سنة نزعات التحرر فى المستعمرات الإسبانية .

ومن عام ١٩٤٥ الى اليوم والخطة الأمريكية الرئيسية تقوم على مد المستعمرين الهولنديين والفرنسيين والبريطانيين بالاموال

والسلاح للقضاء على حركات التحرر الوطنى فى المستعمرات والدول المتحررة حديثا .

فقد انتهت الحرب العالمية الثانية بانهيار المانيا النازية وحليفاتها ايطاليا واليابان ، وخرجت امبراطوريات الاستعمار القديم الثلاث بريطانيا وفرنسا وهولندا فى حالة ضعف شديد تؤذن بسيرها نحو التصفية ، بل ان الاستعمار الفرنسى والاستعمار الهولندى قد صفيا تماما خلال الحرب. ثم اعيد نفوذهما بمساعدة الاستعمار الانجلو - امريكى فى اندونيسيا وفيتنام وشمال افريقيا ..

وفى الوقت ذاته خرجت امريكا اقوى حلفائها بعد ان ضاعفت صناعاتها فى اثناء الحرب لبعدها عن تخريبات الحرب ، واستيلائها على معظم اسواق منافسيها ، فضلا عن فرض سيطرتها على مناطق جديدة .

ولكن الحرب العالمية الثانية ، من ناحية اخرى كشفت عن تعاظم وظهور قوى الاتحاد السوفييتى والصين الشعبية ودول أوروبا الشرقية ، وحركات التحرر الوطنى .

أزمات أمريكا

ان الحرب العالمية الثانية خلقت موقفا دقيقا ، فالاستعمار فقد مناطق واسعة كانت تمدّه بالموارد والقوى البشرية التى كان يستمد منها قدرته على مواجهة أزمات النظام الرأسمالى ، ويستمد منها وقود الحرب ، وفى كل مكان تشتد مقاومة الاستعمار وتزلزل الأرض تحت أقدامه ..

وأصبح الاستعمار الأمريكى فى حالة جنون ، انه لم ينس الأزمات الاقتصادية الخائقة التى مرت به ، واذا أخذنا أزمة

١٩٢٩ وما حدث فيها كنموذج لهذه الأزمات أصابنا الجزع من هول ما حدث فيها ..

فى كلمات يصف الكاتب الفرنسى اندريه موروا مأساة أمريكا فى هذه الأزمة قائلا :

« . أربعة عشر مليون انسان بلا عمل ، والعدد يزداد يوما بعد يوم ، مستأجرو الاراضى ينقصون ، المصارف مفلقة ، وجميع اسيلاد ودعائم البنيان الاجتماعى يتهارون واحدا اثر واحد بسرعة رهبة .. ان أوروبا لم تتصور فى أى وقت كان شدة ضائقة الولايات المتحدة المؤلة فخلال أسابيع اعتقدت امريكا ان نهاية النظام والمدنية أصبحت قاب قوسين أو أدنى .. »

وخلال هذه الأزمة التى امتدت من عام ١٩٢٩ حتى عام ١٩٣٣ . كان القمح والذرة يستخدمان وقودا بدلا من الفحم . وابتدت ملايين من كتل اللحم وأغرقت ملايين الأكياس من البن على شواطئ البرازيل ..

ان هذه الأزمة هى احدى الازمات التى لازمت الرأسمالية كنتيجة حتمية لفوضى الانتاج وعدم وضع خطة تلبي حاجات الجماهير ، فان كل رأسمالى أو احتكارى لا ينشد سوى تحقيق أقصى الأرباح لشركاته ، وزيادة ثروته الى ملايين الدولارات - فالرأسماليون يحاولون ابتزاز أكبر قدر من الأموال ويندفعون وراء الصناعات التى تعطيهم مزيدا من الأرباح دون النظر الى حاجات الناس ومطالبهم الرئيسية .

وامام هذه الأزمات ، وتحرك قوى الجائعين ، يبحث الرأسماليون عن مخرج ، وكان المخرج للاستعمار القديم ، بعد أزمة ١٨٤٧ وما لاحقها من أزمات هو التوسع الاستعماري وشن الحروب ضد الصين ومصر وتونس ومراكش ودول افريقيا ..

وكان المخرج من أزمة ١٩٠٧ هو اعلان الحرب العالمية الأولى
التي راح ضحيتها ١٠ ملايين نسمة ..

وقامت الحرب العالمية الثانية بعد أزمة ١٩٢٨ التي امتدت اربع
سنوات وهزت أمريكا لأول مرة هزة عنيفة ، ثم بدت بوادر الأزمة
الثانية عام ١٩٣٨ ، فأعلنت أقسى حرب عرفتها البشرية ، وراح
ضحيتها أكثر من ٣٠ مليون نسمة .

وبعد الحرب العالمية الثانية واجهت أمريكا أزمة اقتصادية
جديدة عام ١٩٤٩ ، وكان المخرج لها من هذه الضائقة هو اعلان
الحرب الكورية .

ومنذ ذلك التاريخ والازمة في أمريكا تأخذ بخناقها ..
ومقارنة سريعة بين عدد العاطلين في أمريكا خلال السنوات العشر
الماضية ، تعطي صورة أخرى لتطور هذه المشكلة .

في عام ١٩٤٨ كان عدد العاطلين ٢٢٠٥٠٠٠

في عام ١٩٥٦ كان عدد العاطلين ٢٨٢٢٠٠٠

في عام ١٩٥٨ كان عدد العاطلين ٥١٧٣٠٠٠

والزيادة مستمرة .. والأرقام هي الأرقام الرسمية .. فما
هو المخرج ؟ .

لقد بين السناتور كيفوفر عن مناقشة مبدأ ايزنهاور في
الكونجرس الأمريكي أن تكاليف استخراج برميل واحد من بترول
الشرق الاوسط - عدا الربع الذي يدفع للحكومات المحلية
- تبلغ ١/٥ خمس الدولار ، بينما تبلغ أسعاره العالمية ٣ دولارات
أي ١٥ ضعفا . واستشهد بأرباح الاحتكارات الأمريكية منذ السنة
الثالثة لاستيلائهم على نفط ايران ، حيث تبين أن السهم الواحد

الذى تبلغ قيمة رأس ماله المدفوع ١٥٠ مليون دولار ، يربح فى كل عام ما بين ٩٠ الى ١٧٥ مليون دولار وربحت احتكارات البترول عام ١٩٥٥ من عملياتها فى الشرق الاوسط ٥٠٠ مليون دولار ، وعندما أعلن ايزنهاور تطبيق « مبدئه » فى الشرق الاوسط ، خصص لهذه المنطقة مساعدة قدرها ٢٠٠ مليون دولار أى أقل من ٤٪ من أرباح احتكارات البترول الاستعمارية لعام واحد ، ومع ذلك فقد استأثرت اسرائيل وحدها بمعظم هذا المبلغ .

ان هذا كله يكشف حقيقة أكذوبة المساعدات الاقتصادية التى يقدمها ما يسمى « بالعالم الحر ! » للدول المتحررة حديثا .

لقد حاصر الاستعمار الانجلو - أمريكى ايران ، حاصرها اقتصاديا وحرمها بيع بترولها حتى بنصف الأسعار العالمية ودفعها الى هاوية الافلاس ، وكان ذلك ضمن خطة رسمت للاستيلاء على البترول ، حتى اذا تمكن المستعمرون من نسف الحكم الوطنى بانقلاب عميلهم الجنرال زاهدى واستولوا على البترول الايرانى ، أعلنوا استعدادهم لمساعدة ايران اقتصاديا ، وما كان ذلك سوى مساعدات رمزية لم تكن الا جزءا ضئيلا من محصول البترول الايرانى لعام واحد .

وهكذا تحاول أمريكا الخروج من أزمات نظامها الرأسمالى الاحتكارى بالسيطرة على الشعوب ونهب ثرواتها ، تماما كما فعل الاستعمار القديم .

أمريكا .. والعالم العربى :

على أثر فشل العدوان الثلاثى على مصر ، تبينت الحقائق التالية ..

أولا : ضعف الاستعمار الأوربي القديم ودنو نهايته في الشرق الأوسط .

ثانيا : ازدياد ضعف جبهة الاستعمار العالمي .

ثالثا : تعاظم حركة التحرر العربية ، وظهور قوة تضامنها مع الشعوب العالمية والقوى الديمقراطية والاشتراكية المعادية للاستعمار . .

ووجد الاستعمار الأمريكي أنه أمام ضرورة تفرض عليه العمل لانقاذ ما يمكن انقاذه من التركة الاستعمارية بضرب حركة التحرر العربية ، كما وجدها فرصة ليستولى على حصة الأسد من المصالح الاستعمارية وانتزاع القيادة من يد الاستعمار البريطاني ، والسير بالعالم الى حافة الحرب والقضاء على سياسة الحياد الايجابي والتعايش السلمي .

ومنذ قيام ثورة ١٩٥٢ ، وأمريكا تحاول السيطرة على مصر . . ثم قامت الثورة بتأميم القناة . . وأثارت هذه الضربة العنيفة الموجهة الى الاستعمار ، كل قوى الامبريالية العالمية . . وأدركت أمريكا منذ ذلك الوقت أن لا أمل لها في السيطرة أو ضم مصر تحت نفوذها طالما بقي عبد الناصر في الحكم .

أطاحت ضربة تأميم القناة بصواب الامبريالية العالمية . . انها سابقة خطيرة تشجع البلاد العربية النائرة على انتهاج نفس السياسة لتحرير ثرواتها القومية ، كما أن قيمة القناة من الناحية الاقتصادية هزت أركان العالم الاستعماري ، فقد كانت الشركات الاجنبية تجني أرباحا هائلة ، اذ بلغ مجموع أرباحها ٣٤٥٣٩ مليون فرنك عام ١٩٥٥ حصلت مصر منها على ١٠٩٢ مليون فرنك فقط ، أى بنسبة ٣٪ من صافي الربح .

.. كما أن قناة السويس مركز استراتيجي هام وحيوي
لخطط التوسع الأمريكي ، والدوان على الحركات الوطنية والاعداد
للحرب العالمية الثالثة ..

وكانت الاحتكارات الامريكية قد أدركت أهمية قناة السويس
وازداد اهتمامها بالسيطرة عليها مع زيادة توسعهم في الشرق
العربي ، ولذلك عملت على الحصول على أكبر قدر من الأسهم ،
فانتقلت أسهم البابا من الفاتيكان الى الولايات المتحدة عام ١٩٤٨ .

وكانت الحكومة الامريكية هي المحرك الحقيقي للضغط الذي
أظهرته القوى الاستعمارية عندما أمت مصر قناة السويس واقترح
دالاس « اتخاذ تدابير اقتصادية جماعية » ، فجمدت أمريكا وبريطانيا
الاموال المصرية في بلديهما . ورفضت أمريكا أن تبيعنا في تلك
الفترة ما نحتاجه من قمح وأدوية .

ومن الناحية السياسية تقدم وزير خارجية أمريكا « بمشروع
دالاس » وهو يقضى بالألا تترك القناة في أيدي مصر ، بل تتولاها
هيئة دولية ، ونص على عقوبات لتأمين هذا الوضع .

ورفضت مصر هذا المشروع الذي وصفه الرئيس جمال
عبد الناصر بأنه « استعمار مشترك » ..

وهكذا كانت خطة الولايات المتحدة تتلخص في اخراج انجلترا
من منطقة القناة ، ولكنها كانت تسرع بتأييد بريطانيا كلما ظهر
خطر عودة قناة السويس الى أيدي مالكيها الحقيقي .

وعلى اثر فشل العدوان الثلاثي الأول طلب ايزنهاور من
الكونجرس الأمريكي أن يخوله السلطة لاستعمال القوات المسلحة
متى أراد ، وقال دالاس كما قال ايزنهاور ان هناك خطرا عاجلا
يهدد سلامة واستقلال بلاد الشرق الاوسط وسلامة وأمن الولايات

المتحدة نفسها بل والسلام العالمى ، وطلب من الكونجرس أن ينظر
الطلب ويناقشه على وجه الاستعجال ، وقال دالاس ان هذا ضرورى
لكى يزول القلق السائد فى البلاد العربية ، وبلاد الشرق الاوسط
ولا يقع العدوان ! ..

انها نفس سياسة الاستعمار القديم ، يلجأ اليها الاستعمار
الامريكى الجديد .. يحاول أن يفرض القروض واستغلال الشعوب
والتسرب بـرؤس الاموال ، ثم يرفع عصا العدوان مهددا بأنه قادم
للمحافظة على مصالحه .

لقد كان الهدف من مشروع ايزنهاور ، هو ربط الشعوب
العربية بمجلة السياسة الأمريكية ، حتى تتحول فى النهاية الى
منطقة نفوذ خاضعة لها ..

ورفضت الشعوب العربية مشروع ايزنهاور ، كما رفضت
من قبل مشروع الدفاع المشترك والنقطة الرابعة ، وهى مشروعات
هدفها الجوهرى فرض سيطرة رؤس الاموال الامريكية والاحتكارات
الامبريالية وسلب ونهب قوت الشعب المصرى ، مثل ما حدث فى
أثناء نمو فترة العدوان الاستعماري القديم ..

وأعلنت الحكومات الوطنية فى الشرق العربى ، كما عبرت
الجماهير العربية عن رفضها للمشروعات الأمريكية ..

وتعرضت الحكومة الوطنية فى مصر .. كما تعرض عبد الناصر
لأقصى هجوم من دول الاستعمار ، كما أخذت القوى الامبريالية
تسلح اسرائيل وتمدها بالمتطوعين لتجعل منها ترسانة عسكرية
للامبريالية العالمية ضد الحكومات الوطنية فى العالم العربى .

وقام عبد الناصر بأعنف هجوم على السياسة الأمريكية ،
وكشفها وفضحها .. وفى خطاب بـورسعيد عام ١٩٦٤ أعلن

عبد الناصر عن سلوك السفير الأمريكي الشائن في مقابلته لنائب رئيس الوزراء للتموين ، عندما رفض السفير التحدث في مسائل التموين وقال انه « لا يستطيع الكلام لأن سلوكنا لا يعجبه » .. وأعلن عبد الناصر « أن حريتنا .. أن استقلالنا وكرامتنا في المقام الأول قبل كل شيء آخر » .

وأدركت أمريكا أنها أمام زعيم وطني عنيد ومتمرس فأعلنت الحرب على الجمهورية العربية في كل الجبهات وكل الوسائل .

أطلقت أمريكا الشائعات ، وحركت القوى الرجعية ، وبنت سموم الافتراء وانطلقت المخابرات الأمريكية تعمل بكل الوسائل ، الاغراء المالى وشراء العملاء ، بث الدعاية من الاذاعات الرجعية ، وأذاعة اسرائيل وصوت أمريكا، الضغط الاقتصادى والتوقف عن بيع القمح لنا .

وفى نفس الوقت ، كانت أمريكا تدبر العدوان الثلاثى الثانى .. ودفعت ألمانيا الغربية الى بيع الأسلحة الى اسرائيل ، ثم أسفرت عن وجهها وأعلنت عن تزويدها اسرائيل بالسلاح والمال ..

.. وهكذا ارتبطت القوى الصهيونية والاحتكارات المالية بالرجعية والعملاء والمأجورين ، وارتبطت أسلحة الدمار بأسلحة الدعاية والاشاعات المسمومة فى هدف واحد لاسقاط الحكم الوطنى والاطاحة بعبد الناصر ..

ان أهداف العدوان الاسرائيلى الأمريكى بدأت بالرغبة فى السيطرة المالية على مصر . تماما كما تحدث قبل العدوان البريطانى على مصر أيام ثورة عرابى .. واستعانى بالرجعية والعملاء لتحقيق أهدافها ، وهو نفس الاسلوب الذى استعمل ضد عرابى .. واخيرا، العدوان ..

ولكن أمريكا نسيت أن عام ١٩٦٧ يختلف عن عام ١٨٨٢ •

وفي عام ١٨٨٢ كان الاستعمار في نموه •

وفي عام ١٩٦٧ نرى الاستعمار في مرحلة انهياره •

وفي عام ١٨٨٢ كان عرابي والشعب المصري يقفان أمام قوى
تفوقهما عددا وقوة •

وفي عام ١٩٦٧ يقف عبد الناصر والشعب المصري وبجانبيهم
قوى الشعوب العالمية ، تملك أقوى الأسلحة ••

ان الاستعمار الامريكى الذى بدأ متاخرا عن الاستعمار
القديم ، مرتبط بمرحلة انهيار الرأسمالية ، ولا يستطيع الفكك
من المصير المحتوم •

ان الامبراطورية الامريكية تواجه اليوم ثورات في جنوب
شرق آسيا وفي أمريكا اللاتينية وفي افريقيا واليوم تواجه ثورة
الشعوب العربية ••

وفي نفس الوقت تقف الدول والشعوب الاشتراكية بتفوقها
العسكرى أمام أية محاولة للعدوان الاستعمارى على شعوب العالم •

وفي هذه اللحظات تفجر الصين الشعبية قنبلتها الهيدروجينية
لتواجه أمريكا قوى الاتحاد السوفيتى من الأمام وقوى الصين
من الخلف ••

ان الامبراطورية الامريكية فى زوال •• تقرب عنها الشمس
كما غربت من قبل على الامبراطورية الفرنسية ، والانجليزية ،
والألمانية ••

الفصل الثالث

« عندما يتكلم المال .. تسكت
الحقيقة .. »

منل روسي

قبل الثورة

الثورة العرابية هي في تطورها نموذج للثورات التحريرية التي واجهت الزحف الاستعماري خلال فترة العصر الذهبي للاستعمار .. والتي امتدت طوال القرن التاسع عشر ..

ففي هذه الفترة ، احتلت فرنسا الجزائر ، وتونس ، ومراكش .. واحتلت إنجلترا مصر والسودان وغانا وجنوب أفريقيا .. وامتد نفوذ أمريكا الى دول أمريكا اللاتينية .. وحاولت فرنسا وإنجلترا وألمانيا اقتسام الصين ..

مقدمات ..

كان احتلال بريطانيا لمصر جزءا من صراع عالمي يسود كل مكان ..

كان العالم يتغير في سرعة ، والنظام الاقطاعي الذي ساد أوروبا قرونا طويلة ينهار .. ودخلت أوروبا مرحلة الثورة الصناعية ، وقامت ثورات الرأسمالية ضد النظم الاقطاعية .. وكانت الثورة الفرنسية نقطة تحول خطيرة في تلك المرحلة ..

قامت الثورة الفرنسية تعبيراً عن الفكر الانساني الجديد .. وتأكيداً للتطور الاقتصادي الذي حدث في أوروبا ..

وجاءت حملة نابليون على مصر تكشف الجانب المظلم للثورات الرأسمالية .. ففي رسالة من نابليون الى حكومة فرنسا ، يقول :

• • • ان فرنسا تجنى مزايا كبيرة من توطيد أقدامها في مصر ،
لأنها بطبيعة موقعها الجغرافى ، مركز الاتصال بين الشرق والغرب ،
ولم تبق التجارة التى تتبادلها القارات الثلاثة أوروبا وآسيا
وأفريقيا • • وانه بإنشاء قناة تصل مياه البحر الأحمر بالبحر
الابيض يمكن السفن الفرنسية أن تصل الى البحر الأحمر وتهاجم
أملاك الانجليز في الهند ، وعلى كل حال تستطيع فرنسا أن تنشئ
في مصر مستعمرة ترسل اليها متاجرها ومصنوعاتها • •

كانت الحملة الفرنسية صراعا بين فرنسا وانجلترا • • او
صراعا بين الرأسماليين في فرنسا وانجلترا للبحث عن الاسواق
لتصريف بضائعهم ، والسيطرة على الشعوب المتخلفة • •

وفشلت الحملة الفرنسية على مصر • • ولكنها تركت آثارها
وراءها • • عرفت مصر الصناعة الحديثة عندما اضطر نابليون الى
انشاء المصانع الحربية بعد غرق أسطوله في أبى قير • • وأقيمت
مصانع الجوخ ، ودبغ الجلود • •

وكانت هذه أول بادرة ، أكدت قدرة مصر على التصنيع
ومسايرة التطور الاقتصادى الحديث • • صحيح ان هذه المصانع
أغلقت بعد انسحاب الفرنسيين من مصر ، ولكن هذه التجربة
تركت وعيا جديدا للشعب ، بعد أن كانت حياته مقصورة على
الزراعة والتجارة • •

وعرفت مصر خلال هذه الفترة تطور العلم الحديث من خلال
العلماء الذين صحبوا الحملة الفرنسية • • عرفت علوم الكيمياء
والطبيعة والجيولوجيا والهندسة والرى • •

وكان من البديهي أن يكون من بين جنود وضباط الحملة
عناصر تمسكت بروح الثورة الفرنسية ، وتشبعت بمبادئ الحرية

والاخوان والمساواة التى نادى بها الثورة .. وكان لهؤلاء اثرهم بين المثقفين المصريين ..

وحاول احد ضباط الحملة أن يحمل نابليون على توزيع الارض بين الفلاحين المصريين كما حدث فى فرنسا ، فلقى القبض عليه ونفى الى واحة سيوه ..

انعكست آثار الثورة الفرنسية على مصر ولكن فى حدود ضيقة .. فلم تكن الاذهان أو الظروف مهيأة لكل ما حملته الثورة الفرنسية من فكر وتطور وانطلاق ..

ولكن التطورات التى حدثت فى مصر خلال هذه الفترة ، كانت قد أصبحت جزءا من حياة الشعب المصرى .. وظلت أفكار الثورة الفرنسية تراود الكثيرين من أبناء الشعب .

وجاء محمد على الذى لم يدرك من ثورة العصر ، سوى جوانبها التقليدية التى تثبت حكمه وتحمى عرشه .. استعان بالعلم الحديث والصناعات لىخلق قوة عسكرية تحمى سلطانه فى مصر ..

فتسل محمد على فى فهم طبيعة الثورة التى سادت العالم فى تلك المرحلة فهى ثورة الرأسمالية ضد الاقطاع .. وهى ثورة ديمقراطية .. وهى ثورة تحررية .

فلم يقم بتوزيع الأرض على الفلاحين .. واحتكر الزراعة .. واحتكر الصناعة .. واحتكر التجارة ، فكان التطور الذى قام به قائما على أسس خاطئة تتعارض مع طبيعة سير الاقتصاد العالمى الذى كان أساسه حرية التبادل والمنافسة ..

انتقلت ملكية الاراضى الزراعية الى محمد على .. ووزع مساحات كبيرة من الاراضى البور على الأعيان وكبار الموظفين ..

ومنح أفراد أسرته أراضي واسعة .. فحاول أن يخلق طبقة من
الاقطاعيين ، فى اللحظة التى كان الاقطاع فيها ينهار فى أوروبا .

أما الصناعة ، فقد أنشأ ٢٩ مصنعا للغزل وثلاثة مصانع
للسكر ، ومصانع الأسلحة والذخائر ، وترسانة صناعة السفن ..
وتيقن للمرة الثانية قدرة مصر على مسايرة التطور الصناعى
الحديث .

ولكن فى اللحظة التى كانت الطبقة الرأسمالية فى أوروبا تنمو
وتتقود التطور فى بلادها ، عمد محمد على الى ضرب الرأسماليين
المصريين الذين كانوا يتمثلون فى أصحاب الصناعات الصغيرة ،
والتجار .. فاحتكر الصناعة والتجارة ، فلم تشهد مصر فى هذه
الظروف الطبقة الرأسمالية التى حملت عبء الثورة والتطور فى
أوروبا .. وظلت افكار الثورة الفرنسية آراء يتبادلها المثقفون
الذين عادوا من البعثات ، ولم تجد هذه المبادئ أو الأفكار الطبقة
التي تعمل على تحقيقها ..

أما الطبقة العاملة ، فلم تكن قد تبلورت ، أو ظهر الفكر
الاشتراكى الذى يهيئ لها النضال السياسى .

أما فئة العلماء والمتساخ - وهى التى قادت المد الثورى أيام
المماليك ، فقد فقدت القيادة بعد أن انتقل مركز الثقافة من الأزهر
الى المدارس والمعاهد والبعثات .

وكان بديهيًا فى مثل هذه الظروف أن ينفرد محمد على
بالحكم .. وأن يمضى فى سياسة الاكتفاء الاقتصادى التى أدت به الى
الرغبة فى التوسع ليحصل على المواد الخام لصناعاته ، والبحث
عن أسواق لسد نفقاته .. وأدركت الدول الاستعمارية خطورة
توسع محمد على ، فتكاثفت انجلترا وفرنسا وروسيا ضد أطماعه
خوفا على أسواقها ومستعمراتها .

واستسلم محمد علي ، وقنع بولاية مصر ، وتراجع عن الخطوات
الاصلاحية والثورية التي بدأها ، وانتهت مرحلة ، ولكنها تركت
علامات جديدة في طريق نضال الشعب المصري .. فالبعثات
والفتوحات التي تمت في عصر محمد علي فتحت الأذهان على التطور
السياسي والثقافي والصناعي الذي كان يسود أوروبا في تلك
المرحلة .. وكما مهدت الحملة الفرنسية للحركة القومية ، مهدت
اصلاحات محمد علي للثورة الوطنية .

الرجعية :

كان سؤال المرحلة .. هل تصبح مصر جزءا من الثورة
الصاعدة في العالم وتنمو كاحدى الدول الكبرى .. او تهبط
درجات التخلف لتصبح سوقا ، ومستعمرة تابعة لاحدى الدول
الرأسمالية ؟

كانت عوامل التطور ، وأسس الثورة الرأسمالية ، كما
أظهرتها الثورة الفرنسية ، هي .. قاعدة صناعية حديثة .. طبقة
رأسمالية تحمل عبء التطور .. حياة دستورية تمارس الطبقة
الجديدة من خلالها حرية العمل .. وتحطيم الاقطاع الذي وقف
عقبة ضد التطور .

وبدت بوادر النجاح في خلق القاعدة الصناعية المتطورة خلال
الحملة الفرنسية وخلال حكم محمد علي ، ولكن عناصر الثورة الأخرى
ظلت متخلفة .. فلا حياة دستورية ، ولا طبقة رأسمالية ، ولا حرية
فكر .. وفشلت محاولة الدخول الى طور التطور الرأسمالي .. وبدأ
الضغط الاستعماري لتحويل مصر الى مستعمرة وسوق تابع للدول
الرأسمالية .

وفي هذه المرحلة لم يبدأ الاستعمار بالعدوان المباشر كما

حدث في أثناء حملة نابليون .. أو حملة فريزر الانجليزية .. بل بدأ بالدعاية .. وانبرى علماء الاقتصاد الغربيين في تحليل أسباب فشل التصنيع .. قالوا : ان مصر بلد زراعى وجوها لا يهيء نجاح الصناعة .. وقالوا : ان نقص المواد الخام أدى الى فشل محمد على في التصنيع .. واتهموا اضطراب ادارة المؤسسات بأنه سبب الفشل .. ثم قالوا : ان العامل المصرى ليست لديه القدرة على مسايرة التطور الصناعى .

هل كان هذا صحيحا ؟

ان هذه العوامل كانت موجودة فعلا ، ونقص الفحم فى مصر كان يقابله نقص القطن فى انجلترا ، ومع ذلك قامت أضخم صناعة نسيج فى انجلترا .. واذا كان العمال فى مصر قد أحرقوا مصنع أسيوط فان عمال انجلترا أحرقوا أكثر من مصنع وخربوا الآلات .. أما اضطراب الادارة ، فكان يسود مرحلة التصنيع الأولى ، وشهدت انجلترا وفرنسا انهيار وخراب عشرات الشركات والمؤسسات الصناعية .

.. هذه العوامل كانت من طبيعة مراحل التطور الأولى فى الصناعة ، ولم تتغلب عليها أوروبا الا بمرور الزمن ، وممارسة التجربة .. واكتشاف الخطأ والصواب .. ولكن الاقتصاديين الرأسماليين فى الغرب كانوا يهدفون الى الابقاء على مصر سوقا لتصريف بضائعهم .. ومصدرا لنهب موارده الخام ..

وتلاقى أهداف الاستعمار مع الفكر الرجعى الذى ساد عصر عباس ، وشهدت مصر موجة من الاضطهاد ضد كل فكر جديد ..

بدأ عصر عباس بتصفية ما تبقى من المصانع التى أنشأها محمد على .. ثم أمر باستدعاء بعثات الطلبة من أوروبا .. وألقى

عددا كبيرا من المدارس ونفى كبار الأدباء والمفكرين والمهندسين الى السودان . وبذلك مهد عباس للغزو الاستعماري .

لصوص أوروبا :

فى أيام عباس نعدم اليه رجل أجنبى اسمه روستى يطلب تعويضا عن ضرر أصابه أيام محمد على ، ولم يكن هناك دليل على ادعائه . ورفض عباس ادعاء روستى . وتدخل فناصل الدول . وأصر عباس على موقفه . ونولى سعيد العرش، ودفع التعويض الذى بلغ أربعة ملايين فرنك .

وفى عام ١٨٦٢ ، أدت الازمة الاقتصادية فى انجلترا الى اغلاق المصانع فى لانكشير، وأخذ آلاف من الرجال والنساء يجوبون شوارع المدن الانجليزية ونظمت اللجان للعناية بالجوع . وكان البحارة ينهاون السفن ليبيعوا الغلال فى السوق السوداء . وكان لا بد من مخرج لهذا البؤس . وكانت مصر . وتدفق الآلاف مثل روسنى نهب الشعب المصرى .

كان القادمون جميعا مجموعة انتهازية ، نبحث عن الثروة بأية وسيلة . وكان القرص الأول الذى عقده سعيد ، فاتحة شهية للرأسماليين والمغامرين فى أوروبا .

فى عام ١٨٦٢ ، والرأسمالية الانجليزية تبحث عن طريق للخروج من أزمتها . عمد سعيد بأسا أول قرض من بنك فرو هلنج وجوشن بلندن . ان الازمة وافلاس المصانع أدى ذلك بالرأسماليين الى البحث عن مصادر جديدة للربح . فبدؤا بتصدير الاموال للحصول على فوائد لفروضهم .

كان مقدار القرض الاسمى الذى حصل عليه سعيد باشا ٣٢٤٢٨٠٠ جنيه انجليزى . اما قيمته الحقيقية ٢٤٠٠٠٠ ر

جنيه أى أن مصر خسرت فى بداية القرض ٨٠٠ر٠٠٠ جنيه وتعهدت
بوفاء هذا الدين على ٣٠ سنة بفائدة قدرها ٧٪ ، وكانت قيمة
القسط السنوى من رأسمال وفوائد ٢٦٤ر٠٠٠ جنيه ، أى أن
مجموع الأقساط ٧٩٢٠ر٠٠٠ جنيه فى حين أن أصل الدين
٢٤٠٠ر٠٠٠ جنيه .

وهكذا دخل جيب الرأسماليين الانجليز فى أول صفقة حوالى
٥٠ مليون جنيه ربها صافيا حصلوا عليها من عرق الشعب
المصرى .

وجاء عصر اسماعيل بعد عمه سعيد ، لتشهد مصر عملية
ابتزاز رهينة ، مارسها الرأسماليون الأجانب .

بلغت الفروض التى افترضها الخديو اسماعيل من البنوك
وأصحاب الأموال والمضاربين حوالى ١٢٠ مليون جنيه تقريبا .
لم يقبض منها الا نصف المبلغ ، أما الباقي فكان يخضم كفوائد
وسمسة ومصاريف ، نحول الى خزائن البنوك والرأسماليين فى
أوروبا .

فالفرض الذى عقد عام ١٨٧٠ ، كان مقداره سبعة ملايين
جنيه لم يقبض مصر منه سوى خمسة ملايين .

والقرض الذى عقد عام ١٨٧٣ ، وبلغ حوالى ٣٢ مليون جنيه
لم يصل مصر منه سوى ٢٠ مليون جنيه .

كانت عمليات نصب وحتيال ، قام بها أصحاب البنوك
والشركات فى أوروبا ضد الشعب المصرى . وتحولت الخزنة
المصرية الى ممول لاتراء شعوب أوروبا .

فى عام ١٨٧٧ ، كانت إيرادات الحكومة المصرية حوالى ٩٥

مليون جنيه خصص منها نحو ستة ملايين جنيه تدفع لأصحاب الديون الأجنبية .

وكانت القروض مشروطة . . بعضها كان مضمونا بإيرادات الجمارك ، وبعضها بإيرادات السكك الحديدية . . وهكذا فتح الباب أمام الرأسماليين الأجانب للتدخل ومناقشة أو مراقبة إيرادات الحكومة المصرية .

أما الوسيلة الثانية للنهب التى كان يمارسها الرأسماليون الأجانب ، فكانت عن طريق الشركات والمقاولين الذين يتولون اقامة المشروعات الحكومية فى مصر . . ويقول مؤلف « بنوك وباشرات » : « . . كانت المشروعات المصرية الكبيرة من نصيب من يعرف الوالى منذ الطفولة ، أو من نصيب التاجر الذى يتناول الطعام مع وزير الاشغال العمومية ، أو المقاول الذى ينام مع عشيقه الوزير ، وفى المستويات العليا من السلطة الحكومية، كانت الصداقة والنفوذ يشتريان بالخدمات التى تاتى فى الوقت المناسب ، وباللطف اللبق والهدايا ذات الذوق ، أما بالنسبة للموظفين ، فكانت الرشاوى المكشوفة تؤدى نفس المهمة . . »

• وأنفق على انشاء السكك الحديدية التى أقامتها الشركات الانجليزية حوالى ١٣ مليون جنيه ، فى حين كان التقدير الحقيقى لهذه العمليات لا يتجاوز ٣ ملايين جنيه .

وتكلفت عملية انشاء ميناء الاسكندرية ٨٠ ٪ أكثر مما كانت تساوى فى الواقع .

والوسيلة الثالثة للنهب تمثلت فى الشركات الأجنبية التى أنشئت فى مصر . . شركة مياه الاسكندرية ومنح امتيازها لمهندس فرنسى ، والبنك المصرى ورأس ماله انجليزى ، وشركة المطاحن

المصرية ورأسمالها فرنسى ٠٠ وشركة حديد الرمل والشركة المجيدية
للنقل البحرى والشركة المصرية للملاحة التجارية ٠٠ ورعوس أموالها
أجنبية تحول أرباحها الى الخارج .

ثم يأتى دور الأجانب المقيمين فى مصر ، الذين يقرضون
الحكومة بفائدة وصلت الى ٢٥ ٪ .
انها عملية ابتزاز رهينة .

ووصفت مجلة العالمين ، ما حدث من سرقات ونهب بقولها :

» ٠٠ كان اسماعيل يقترب المال من الخزانة العامة بكلتا يديه،
لا ليرضى أهواءه الشخصية فحسب ، بل ليسد نهم الطامعين المتلفين
حوله ، فكم من الفرنسيين والايطاليين والانجليز كانوا تعساء فى
بلادهم ، ثم نالوا بعد أن هبطوا مصر الرخاء والنعيم ! لقد كان
الحديدو مستعدا على الدوام أن يهب لهم المراكز والفصور والمنح أو
يعهد اليهم بالتوصيات على التوريدات، وماكان أشد دهشة السياح
اذ يرون فى القاهرة أو الاسكندرية جماعة من الأوربيين ليس لهم
من المزايا الا مظهر الرجل الأنيق ، يقومون بمهمة الموردين للخديو،
ويربحون من هذه التجارة أرباحا باهظة ، لا يتصورها العقل ، فليس
ثمة وسيلة لجمع الثروة الطائلة أسهل من الحصول على عطاء تأثيث
احدى السرايات الحديدية ، أو توريد بعض الصور أو النجف ، وكم
من أناس جاءوا من أوربا منقلين بالديون ، فما كادوا يستقرون فى
القاهرة ويأتون الى احدى قاعات الانتظار فى سراى عابدين ، حتى
صاروا من أصحاب الملايين طرفة ٠٠ ،

٠٠ هكذا أثرت الرأسمالية الأوربية ، وهكذا تكونت ثورات
العائلات فى أوربا ٠٠ وهكذا تضخمت الصناعة والبنوك فى الغرب
٠٠ كانت عمليات النهب هذه تتم فى كل المستعمرات وشبهه
المستعمرات .

التدخل الأجنبي :

هل كانت مصر فى حاجة الى كل هذه الديون التى أثقلتها
والتي نقلت ثروة مصر الى أوروبا ؟!

بالعكس ، كانت هذه الفترة من أكثر فترات الرخاء التى
شهدتها مصر .

فى عام ١٧٧٥ بدأت حرب الشعب الأمريكى النورية التحررية
فى سبيل استقلاله . . . وانقطع وصول القطن الأمريكى الى موانئ
انجلترا . . . وأسرعت مصانع النسيج فى انجلترا فى التهافت على
شراء القطن المصرى . . . وارتفع ثمن قنطار القطن من ١٥ ريالاً عام
١٨٧٢ الى ٢٣ ريالاً عام ١٨٧٥ ، وزاد المحصول من مليونى قنطار
الى ٣ ملايين قنطار .

كان هذا الثراء المفاجئ فى ثروة مصر ، قادراً على دفع مصر
الى مرحلة التطور الرأسمالى ، واقامة صناعة ضخمة تتناسب مع
تطور العصر . . . ولكن هذا الثراء نفسه هو الذى دفع المغامرين
الأجانب الى التدفق على مصر . . . وكان الحديو اسماعيل أشبه بترى
الحرب ، فهو الحاكم المطلق المتصرف فى كل إيرادات ومصروفات
الحزنة المصرية . . . فوقع فى براثن الرأسمالية الأوروبية وتبددت
الثروة ، ثم تحملت مصر - الديون الباهظة .

وكما سنرى فى عام ١٩٥٦ ، عندما كتب الاحتكارى الأمريكى
روكفلر الى ايزنهاور ، يقول له بصراحة . . . « يجب أن نقتصر على
احراز امتيازات سياسية متواضعة مقابل مساعدتنا الاقتصادية ،
وفى بعض الحالات الاستثنائية حتى بدون امتيازات فى مقابلها . . .
ان الطريق سيفتح أمامنا بعد ذلك ، ولكن فى مرحلة متأخرة ،
لنحصل على الثمن السياسى ومطالبنا العسكرية . . . »

وفي مصر عام ١٨٧٥ ، كانت السديون قد مهدت للشحن السياسي والعسكري .. وجاءت بعثة « كييف » من إنجلترا لدراسة أحوال المالية المصرية .. وتم انشاء صندوق الدين .. ثم جاءت بعثة غوشن وجوبير .

وغوشن هذا هو نجل غوشن الكبير صاحب بنك غوشن وفرو لنج الذي قدم أول القروض الى الحديو .. وكان غوشن الصغير وزيرا سابقا لوزارة المالية في إنجلترا ، ثم أصبح عضوا في مجلس العموم .. واختبر غوشن مندوبا عن الدائنين الانجليز ، وجوبير عن الدائنين الفرنسيين .. ان الحكومة الانجليزية لم تكن مرتبطة بالراسماليين الانجليز بروابط المصالح المالية وحدها بل وبروابط الدم .. كان اللصوص الراسماليون يسرقون من تحت ، ويتولون الحكم من فوق !

ووصلت اللجنة الثنائية ، وقررت انشاء مراقبة مالية للايرادات والمصروفات من عضوين انجليزى وفرنسى ، وتأليف صندوق الدين لتسلم الأقساط « والفواتير » ، ووضع السكك الحديدية وميناء الاسكندرية تحت ادارة مختلطة ..

وفرضت الرقابة الأجنبية على المالية المصرية ، وكانت مهمة الرقيبين تدبير المال اللازم لدفع أقساط الديون والفوائد .. وبدأ جمع الضرائب قبل مواعيدها واضطر الفلاحون الى بيع المحصول مقدما ، وخرج المرابون الأجانب يقدمون المال للفلاح ثمنا لمحصوله ، فكانوا يشترون منه أردب القمح بخمسين قرشاً مع أن ثمنه في السوق ١٢٠ قرشاً !

ثم شكلت لجنة تحقيق أجنبية ، لبحث ودراسة الحالة المالية، والتنقيب في أسرار الحكومة المصرية ومنحت السلطة المطلقة في اجراء تحقيق ، كما تشاء ! واقترحت لجنة التحقيق تشكيل وزارة ،

يدخلها وزيران ، أحدهما انجليزى لوزارة المالية والآخر فرنسى لوزارة الأشغال !

ان اللص الذى يسرق رغيفا يحاكم بالحبس ، أما الرأسماليون الأوربيون الذين نهبوا خزانة مصر ، وامتنصوا دم الفلاح المصرى ، فقد هبت حكوماتهم تحمى سرقاتهم .. بل أبشع من ذلك ، نرى للصوص الذين نهبوا الخزانة المصرية هم أنفسهم الذين انتدبتهم حكوماتهم لتنظيم وإدارة المالية فى مصر .

انهيار الاقطاع :

كان استسلام الحديو اسماعيل للتدخل الأجنبى ، ايدانا بأن نظام الحكم القائم فى حالة انهيار .

والحقيقة التى غفلها اسماعيل من دروس الثورات فى أوروبا ، هى أن نظام الحكم الاقطاعى قد انتهى عهده وتحللت أسباب وجوده أمام الثورة الرأسمالية .. وكان أمام اسماعيل أحد أمرين ، اما أن يتمسك بهذا الشكل من الحكم فيلقى نفس المصير الذى لاقاه ملوك أوروبا ، أو يدرك ثورة العصر وينجو من النهاية التعسة التى واجهها غالبية حكام الاقطاع .

ولكن اسماعيل كان ابن طبقته ، ولم يستطع أن يتحرر من أفكارها واتجاهاتها .. واستسلم للمصير ..

كانت الطبقة الحاكمة فى حالة من التفسخ والانحلال منذ وفاة محمد على ، وانغمست فى الملذات والشهوات .. وبدأ بين أفرادها صراع عنيف من أجل الحكم .. ودبرت مؤامرة قتل عباس فى مخدعه بقصره فى بنها .. وحاول أنصاره تنصيب ابنه الهامى باشا بدل الوريث الشرعى سعيد باشا .. ولكن المحاولة فشلت ..

وبعد وفاة سعيد دبرت مؤامرة اغتيال ولى العهد الأمير احمد
رفعت وتولى اسماعيل ..

وكانت المؤامرات ندبر بين القاهرة واسطنبول ، وتشترك فيها
الأميرات والغلمان ..

وانغمس الحكام فى الترف .. ففى الوقت الذى عقد فيه سعيد
باشا أول قرض أجنبى ، قام بتجميل احدى حجرات الاستقبال فى
قصر عابدين بعشرة ملايين فرنك ، واشترى مجموعة من أواني
الشرب تكلفت مائة ألف دولار ، وطلب من أحد المصانع الانجليزية
صنع أربعة أسرة للنوم تكلفت كل واحدة منها الفين من الجنيهات ..

وكان بقية أمراء الأسرة الحاكمة ينهجون نفس الحياة ، البذخ
والانحلال ، ووصف أحد الأطباء الاوربيين ، الأمير الهامى باشا بأنه
« رجل عجوز فى الواحد والعشرين من عمره » .. وكان الهامى باشا
قد ورث عن أبيه عباس باشا حوالى ١٠٠ مليون فرنك نفدا وآلاف
الأفدنة .. ومن خلال علاقة الأمير الشاب برجال الأعمال الأجانب ،
استمتع بالذات المختلفة اللانهائية .. وبعد عامين من وفاة والده
أضاع ثمانين مليون فرنك ، وغطت الديون أرضه .. وتسربت كل
هذه الثروة الى الخارج ، وبالذات الى أسرة أوبنهايم الذين قاموا بدور
القوادين للأمير ، بينما احتلوا أسمى المناصب فى بلادهم وظهروا
هناك كاعمة للمجتمع الرأسمالى .

وتدفقت رهوس الأموال الاجنبية لانشاء دور اللهو وبيوت
الدعارة ..

وكان الحديو اسماعيل رمزا لهذا كله ، وكان يجلس فوق قمة
هذا الفساد .. وبلغ ما أنفقه على انشاء سراى الجيزة وحدها حوالى
مليون ونصف المليون من الجنيهات ، وصرف أكثر من خمسة ملايين

جنيه على انشاء بقية القصور في القاهرة والاسكندرية ٠٠ وملايين أخرى على ضفاف البوسنور وحفلات تحدثت عنها أوروبا ، فشهدت مصر حفلات زفاف أبناء اسماعيل التي أطلق عليها « أفراح الإنجال » .

وبلغت حفلة افتتاح قناة السويس أروع ما يصل اليه الخيال ٠٠ ولا يكاد يمر عام الا ويسافر الخديو الى الآستانة أو أوروبا ، وكانت رحلاته في عواصم أوروبا حديث العالم ٠٠ أموال تنفق بغير حساب .

وعرفت مصر حفلات الرقص الغربي-التي اقامها اسماعيل في سراى عابدين والجزيرة ، وبلغت منتهى الفخامة ٠٠ وكان يدعى اليها الكبراء ورجال السلك السياسي وعفيلاتهم ٠٠ وكانت جريدة « الوقائع المصرية » تبرز أخبار هذه الحفلات في صفحاتها الأولى .

وانساق أمراء وباشوات مصر وراء الخديو يفلدون ٠٠ قصور وولائم ٠٠ وخمور من واردات أوروبا ٠٠ ومظاهر للزهو والتفاخر في القصور والأفراح ٠٠ والملابس والمجوهرات ٠٠ وعشيقات من أوروبا ٠٠ ان الطبقة الاجتماعية عندما تنهار وتفقد وظيفتها ودورها في المجتمع ، نكتشف عن أحط قيمها وأخلاقياتها ٠٠ فخربت بيوت ٠٠ وضاعت نروات طائلة ٠٠ وانتقلت ملكية مساحات واسعة من الأراضي الى المرابين الأجانب .

وكلما تهالكت الطبقة الاقطاعية على الفساد، أسرع نظام الحكم في الانهيار . وظهر ضعف الخديو في تراجمه امام التدخل الأجنبي . ورضى في ذل واستخذاء أن يقبل اقتراحات لجنة التحقيق الأوروبية ويشكل وزارة أحد أعضائها انجليزى لوزارة المالية ٠٠ وآخر فرنسى للأشغال .

آثار التدخل :

عندما ننهار الطبقة الحاكمة، لابد أن تسقط، وأن تحل محلها قوى جديدة للحكم . . وكان الاستعمار يعمل على سرعة سقوط أسرة محمد على ليحل محلها ، ويحكم مصر كسوق تجارى تحول أرباحه الى جيوب الرأسماليين فى أوروبا .

ولم تكن الطبقة الاقطاعية أصيلة فى مصر . . لم يكن لها تراث الاقطاع فى أوروبا ، فهي وليدة ظروف طارئة ، فعندما تولى محمد على الحكم ، ووضع يده على كل الاراضى الزراعية ووزع على أبنائه وأفراد أسرته أراضى واسعة بلغت حوالى ٢٠٠ ألف فدان . . وتفرعت الأسرة الحاكمة وزاد عدد أفرادها فى عهد خلفاء محمد على ، وبنوا القصور الفخمة وامتلكوا الاراضى الواسعة . . وعاشوا مترفعين عن الاندماج فى الشعب ، وقد عزلوا أنفسهم عن حياته ، فكانوا يتحدثون فيما بينهم باللغة التركية فى حين يتحدث الشعب اللغة العربية . . كانوا ينظرون الى الشعب المصرى على أنه فى مستوى أقل منهم ، فكانوا يطلقون على المصريين اسم « الفلاحين » احتقارا وازدراء . . وكان الشعب يقابلهـم بالمـثل ويطلق نكاته ونوادره سخرية منهم ، وظلت الأجيال تتناقل القول المأثور « حسنة وأنا سيدك » لتمثل عقلية الأتراك فى ذلك الوقت .

واختار عدد كبير من أفراد هذه الطبقة الإقامة فى تركيا ، واحتفظوا بملكية أراضيهم الواسعة ، وظلت تصلهم إيرادات الاقطاعيات بوساطة وكلائهم فى مصر .

. . وأصيب أفراد هذه الطبقة بأول طعنة من التدخل الأجنبى، عندما ظهر عجز الميزانية عن سداد الديون ، واعتبرت لجنة التحقيق الأوروبية ، أن الحديو مسئول عن العجز ، وطلبت منه أن يتنازل عن

أطيانه وأطيان عائلته ٠٠ وعرض الحديو أن ينزل عن أطيانه المعروفة بأطيان الدائرة السنية والدائرة الخاصة وعن ٢٨٩ ألف فدان من أطيان عائلته ٠٠ ولكن تبين أن أطيان الدائرة السنية مرهونة في ديونه السابقة ، فطلبت اللجنة أن يخصص لسداد العجز أطيانا أخرى للعائلة الحديوية ٠٠ فقبل الطلب ٠

وكان أول أعمال الوزارة الأوروبية، عقد قرض جديد من بنك روتسلد الانجليزى بمقداره حوالى ٨٥ مليون جنيه ، رهنه في معايله الاملاك التى ننازل عنها أفراد الأسرة الحاكمة والتي بلغت أكثر من ٤٢٥ ألف فدان ٠٠ وعهد بإدارة هذه الأراضى الى لجنة دولية ٠

أما الطبقة النانية . وهى طبقة كبار الملاك ، وهى التى أعطيت حق ملكية الأراضى خلال حكم سعيد، فقد جمع الكثيرون منهم ثروات طائلة خلال فترة ارتفاع أسعار القطن ٠٠ وعجزوا عن استغلال هذه الأموال ٠٠ بل اندفعوا يفلدون الأسر الحاكمة فى مظاهر الفخفة ٠٠ وأسرفوا فى شراء البضائع المستوردة من أوروبا ٠

وكان الحديو قد لجأ الى هذه الطبقة فى عقد قرض أطلق عليه « قانون المقابلة » ويقضى باعفاء ملاك الأراضى الزراعية من نصف الضريبة المفروضة عليهم اعفاء دائما، اذا دفعوا الضريبة على أراضيهم فى ست سنوات مقدما ٠

وجاء التدخل الاجنبى ، واقترحت لجنة التحقيق إلغاء قانون المقابلة ٠٠ وضاعت على هؤلاء الملاك المبالغ الطائلة التى دفعوها ٠٠ ورأت لجنة التحقيق الأجنبية أن تفرض السخرة على الطبقات المسيرة كما هى مفروضة على الطبقات الفقيرة ، ولعلها أرادت أن تقيم عدالة المساواة ! ، ولكنها وضعت نظام الاعفاء من السخرة نظير دفع بدل من المال يؤدى الى الحكومة !

ان الاستعمار يؤمن بعدالة الاستغلال ! لا يفرق بين طبقة وطبقة ، انه يبحث عن استنزاف المال بأية وسيلة ومن أى مصدر . . انه يواجه أفواها جائعة فى بلاده ، لا بد أن يشبعها والا أكلته .

وواجهت الطبقة الثالثة ، مشاكل التدخل الأجنبى بصور أخرى . . والطبقة الثالثة كان يمثلها الموظفون من سكان المدن ، وضباط الجيش وأصحاب الصناعات الصغيرة ، والحرفيين ، وهم من يطلق عليهم عادة بالبرجوازية الصغيرة .

وينتمى الى هذه الطبقة فئة المثقفين من أبناء الشعب، ويمثلون القيادة الفكرية . . وزاد عدد أفراد هذه الطبقة بعد توسعات اسماعيل فى التعليم . . وانتشار الصحف . . وعودة أعضاء البعثات من الخارج .

. . ولقيت هذه الطبقة بفناتها المختلفة أسوأ مصير فى ظل القروض المشروطة ، وفى خلال مرحلة التدخل الأجنبى .

فقدت طبقة الاقطاع بعض أملاكها . . وفقدت طبقة كبار الملاك بعض ثرواتها . . أما البرجوازية الصغيرة ، فكانت تفقد كل شيء . . واجهت البطالة ، والموت جوعا .

أفلس أصحاب الصناعات الصغيرة والحرفيون أمام تدفق البضائع الأجنبية الى السوق المصرية . . ولم تستطع الصناعة الناشئة أن تقف أمام منافسة صناعة أوروبا ، وخاصة بعد أن ألغيت الحواجز الجمركية تحت الضغط الأجنبى .

وزاد عدد الموظفين الأجانب وشغلوا المناصب العليا فى الدولة، ووصل عددهم الى ١٣٢٥ موظفا أجنيا ، على حين كان عدد الموظفين المصريين لا يتجاوز ٩٢٠٠ موظف . . وبلغ مقدار ما كان يحصل

عليه الموظفون الأجانب من مرتبات أكثر من ٢٧٠ ألف جنيه. وفي نفس الوقت كان صرف مرتبات الموظفين المصريين يتأخر أشهراً متتالية .

وكتب مراسل التايمس في الاسكندرية .

« مما يلهو به الزوار المتهمكون أن يحصوا الموظفين الأوروبيين القاعدين الذين يتقاضون آلاف الجنيهات ، في الوقت الذي لا يستطيع فيه مئات من خدام الحكومة الوطنيين الحصول على مرتبات قليلة متأخرة من العام الماضي أو قبله ويستحقونها عن خدمات جليلة قاموا بها فعلاً .. »

ورأت لجنة التحقيق الأوروبية تحقيق مصروفات الحكومة المصرية ، فكان هذا إيذاناً بتوفير عدد من موظفي الحكومة الوطنيين .

أما المثقفون ، فقد بلغ عدد المنفيين منهم الى السودان حوالى ٩١٢ منفياً . وتكرر انذار الصحف ، وعطلت جريدتا « مصر » و « التجارة » نهائياً لنشرهما مقالات لم ترض عنها الحكومة . وأنذرت جريدة « مصر الفتاة » ثم عطلت نهائياً . ومنعت صحف « النحلة » و « أبو نضارة » و « القاهرة » من دخول مصر .

.. وعندما عجزت الحكومة عن دفع أقساط الديون ، قررت تسريع ٢٥٠٠ ضابط من ضباط الجيش ، مضى عليهم ١٨ شهراً ، لم يتناولوا فيها مرتباتهم .

وكتب مراسل التايمس .

« ان وجود جيش جرار من موظفي الحكومة مشرف على الموت جوعاً لفضيحة أحق بالاعتبار من نفس تأجيل الدين العمومي تأجيلاً مؤقتاً .. »

ولكن الرقابة الأوروبية المتحضرة رفضت سماع صرخات
الجوع .

.. لقد جاءوا لسداد أرباح القروض .. ولن يترددوا عن
أهدافهم ، حتى ولو اضطروا الى سرقة أكفان الموتى !

والطبقة التي تمثل السواد الأعظم من الشعب « الفلاحون »
وتحت ضغط الضرائب ، واستعمال الكرياج ، اضطروا الفلاحون الى
الالتجاء للمرابين الأجانب .. وبلغت فوائد الربا الفاحش ٤٠٪ ..
واجتاحتهم المجاعة .. وهذا وصفها ..

» .. فكان من وراء ذلك كله ، أن انتابت أهل الصعيد قاطبة
سنة شديدة ، لم يسمح بمثلها منذ أجيال مضت ، فكنت ترى
الأطفال والنساء هائمين على وجوههم ، متنقلين من قرية الى قرية
يستجدون الأكف ليدرءوا غائلة الجوع ، وكثيرا ما حملتهم شدة
المسبغة على أن يقتاتوا بفضلات الطرق ، وقمامة التسوارع ، وقد
أحصى من أكلهم القحط في العالم المذكور ، فلم يقلوا عن عشرة آلاف
نسمة .. »

الثورة الفكرية :

لم تكن مصر قد دخلت طور الثورة الرأسمالية ، عندما بدأ
يتأكد الفكر الاشتراكي في أوروبا .. فشاهدت مصر ثلاثة تيارات
فكرية ، تفاعلت مما لمواجهة طفيان الحكم الرجعي والوقوف في وجه
الاستعمار الزاحف .. الفكر الحر أو الليبرالي ، وفكر الإصلاح
الديني ، وأفكار الثورة الاجتماعية .

قام المثقفون بنقل الفكر العالمي الثوري الى مصر .. ومهد
الفكر الحر للديمقراطية .. والمطالبة بالتصنيع .. واقامة حياة
نيابية .. ومحاربة الاقطاع .. وتحطيم الحكم الرجعي .

وتحدث رفاعة رافع .. الطهطاوى بعد عودته من فرنسا
عن ثورة عام ١٨٣٠ التى انتهت بعزل شارل العاشر ملك فرنسا ..
كما نوه بالدستور الفرنسى وتقييد سلطة الحاكم ونظام الضرائب
فى كتابه « خلاصة الابريز فى تلخيص باريز .. »

وتحدث رفاعة رافع عن مصادر الثروة القومية ، فحددها
بالزراعة والصناعة والتجارة .. وأشاد بالتطور الصناعى قائلا :
« إن الأمة المتقدمة فى ممارسة الأعمال والحركات الكدية ، ذات
الكمالات العملية المستكملة للأدوات الكاملة ، والآلات الفاضلة ،
والحركة الدائمة ، قد ارتقت الى أعلى درجات السعادة والغنى بحركات
أعمالها ، بخلاف غيرها من الأمم ذات الاراضى الخصبة الواسعة الفاترة
الحركة ، فإن أهلها لم يخرجوا من دائرة الفاقة والاحتياج .. »

وفى كتابه المرشد الأمين تحدث عن حرية العقيدة والحرية
السياسية .

ويبدو تأثر رفاعة رافع بالتيارات الاشتراكية الوليدة فى
أوربا .. فيقول فى كتابه « مناهج الالباب » .

« فأرباب الأراضى والمزارع هم المفتنمون لنتائجها العمومية ،
والمتحصلون على فوائدها ، حتى لا يكاد يكون لغيرهم شئ من
محصولاتها له وقع ، فلا يعطون الأهالى الا بقدر الخدمة والعمل ،
وعلى مقدار ما تسمح به نفوسهم فى مقابل المشقة ، يعنى أن الملاك
فى العادة تتمتع بالمتحصل من العمل ، ولا تدفع نظير العمل الجسيم
الا المقدار اليسير الذى لا يكافئ العمل .. »

وظلت أفكار رفاعة رافع ، تمثل تيارا فكريا رئيسيا أدى دوره
التمهيدى للثورة ، فارتفع شعار التصنيع ، وكان الخطباء والطلبة
يطالبون فى خطب المحافل باقامة الصناعة وانشاء بنك وطنى ..

كما سادت هذه الآراء في المقالات الصحفية ، وتلقت طبقة كبار الملاك هذه الشعارات وجعلتها من أهدافها الرئيسية ٠٠ والتقت مطالب الجماهير مع أهداف كبار الملاك في المطالبة بالحياة الدستورية كوسيلة لوقف التدخل الأجنبي ، والحد من طغيان الحديو ٠٠

أما تيار الإصلاح الديني ، فحمل لواءه جمال الدين الأفغاني ، وربط جمال الدين بين مسئولية رجال الدين والتطورات الاجتماعية، وندد بالاستبداد وطالب بالحرية ٠٠ وكان يعمل على نشر آرائه في حلقات للدراسة جمعت العلماء والموظفين ٠٠ فحطم قيود الجمود والأوهام ، وخلق تيارات جديدة في الصحافة .

كان الأفغاني قد لمس تدخل الإنجليز في أفغان- والهند ٠٠ وأدرك بمجرد وصوله الى مصر خطورة الموقف ٠٠ فأخذ يوجه الأذهان الى الناحية السياسية ضد التدخل الأجنبي .

ونلاقى التيار الديني مع تيار الفكر الحر ٠٠ وانطلقت الموجة الفكرية تدفع الجماهير الى الثورة ٠٠ وفي خلال سيرها تلاقى مع موجة جديدة كانت قد بدأت تتبلور في أوروبا ، وأخذ الفكر العربي يتهيأ لاستقبالها ٠٠ فتناولت صحيفة « مرآة الشرق » المذاهب السياسية في أوروبا عام ١٨٧٩ ، وناقشت « السوسياليست (الاشتراكية) والنهليست (الفوضوية) والكمون (الشيوعية) » ، ثم تناولت الصحيفة في أكثر من مقال أهداف واتجاهات المذاهب المختلفة ٠٠ واتجهت «مرآة الشرق» في معارضتها اتجاههااقتصاديا، فلا يعنيتها البرلمان ولا تفاصيل الانتخابات ، بقدر ما يعنيتها التفاوت الطبقي ، فتهاجم الأمراء في مصر قائلة :

« ٠٠ انهم شادوا القصور وغرسوا البساتين ، واقتنوا الحور والولدان وتأنقوا في المآكل ، وتفننوا في الشراب ، وزينوا الملابس،

وسحبوا مطارف العجب والحياء ، وأفراد الرعية على مرأى منهم سفاة
عراة يتضورون جوعا ويتلظون ظمأ ويموتون بردا ٠

ثم نجد عبد الله النديم يردد فى مقالاته كلمات النهيلىست،
والسوسىالىست والكومون ٠٠

بل نرى النديم يهضم الفكر الجديد ويتأثر به ويقدمه للشعب
المصرى فى مقالاته ٠٠ ثم فى شعر شعبى ترده الجماهير ٠٠ فيقول :

أهل البنوك والأطيان صاروا على الأعيان أعيان

وابن البلد ماشى عريان معاه ولا حق الدخان

شرم برم حالى غلبان

ووجدت طبقات الشعب المختلفة ، قياداتها الفكرية تحدد لها
أهدافها ٠٠ فالفكر الحر كان تعبيرا عن كبار الملاك ٠٠ كما عبرت
حركة الإصلاح الدينى عن العلماء ٠٠ وحملت حركة الإصلاح
الاجتماعى أمانى الجماهير من الفلاحين والعمال ٠٠

كان كل شىء مهيا للثورة ٠٠ انهيار طبقة الاقطاع ٠٠ واستبداد
الحكم ٠٠ والحالة الاقتصادية المنهارة ٠٠ والضغط على طبقات
الشعب واستنزاف مواردها لدفع أرباح القروض ٠٠ والتدخل
الأجنبى ٠٠ ثم موجة الفكر النورى التى اجتاحت الشعب ، وانطلقت
تدعو للثورة ٠

الفصل الرابع

- طوبى لمن يكونوا أكثر حرية ..
- لأن في الأحرار يكمن الجمال كله ..

مكسيم جوركى

الثورة العربية

ما هي الثورة ؟

الثورة

قيام طبقة جديدة صاعدة ، تحل محل طبقة منهارة متفسخة فعندما يصل المجتمع الى درجة معينة من التفسخ ، والانحلال ، وتنهار القيم ، ويتضح فشل العلاقات القائمة في توفير الأمن ووسائل الحياة الاقتصادية للناس . تتحرك قوى الشعب بقيادة طبقة جديدة تحمل قيما جديدة ، واخلاقيات رفيعة ، ووسائل جديدة لتنظيم الحياة ..

ولم يدرك محمد علي تاجر الدخان الذي جاء يحكم مصر ، طبيعة ثورة العصر ، عندما تولى زمام السلطة اثر ثورة الشعب ضد الاستعمار التركي المتخلف وطبقسة المماليك ، وظلت التناقضات والتفسخ والانحلال ينخر في المجتمع المصري حتى جاء عصر اسماعيل .

حركة الجيش

كان كل شيء في مصر يمهّد للثورة .. الأسرة الحاكمة متفسخة منهارة أمام زحف المغامرين الأجانب الذين جاءوا لنهب ثروة الشعب المصري .. والجوع يسود كل مكان .. والبطالة منتشرة .. والموظفون لا يجدون مرتباتهم .. والقيم للأخلاقية تنهار في كل صورها .. وفضائح الحديو اسماعيل ، وأمراء وأميرات البيت الحاكم ، على كل لسان .. انه عصر الاقطاع في حالة الانهيار ..

وسيطر الرأسماليون الأجانب على ثروة البلاد ، وأصبح أكثر الملاك الوطنيين أجراء للأجانب .

وأنشئت المحاكم القنصلية والمحاكم المختلطة ، وبذلك فقدت الدولة سيطرتها على القضاء .

لم يكن ينقص اندلاع لهيب الثورة ، الا وجود الطليعة الثورية، وتنظيم طبقات الشعب وخلق تحالف طبقي لمواجهة قوى الحكم الرجعى والتدخل الأجنبى .

وقامت الجمعيات السرية فى القاهرة والاسكندرية ، وأخذت تجند العناصر الثورية .. ولكن المد الثورى كان يسبقها .

وفى ١٨ فبراير سنة ١٨٧٩ ، اجتمع أكثر من ستمائة ضابط، وخطب فيهم البكباشى لطيف سليم، أحد اساتذة المدرسة الحربية ، وطالبهم بالثبات والعمل حتى ينالوا مطالبهم ، وغادروا ثكناتهم يتبعهم طلبة الكلية الحربية ، وأتجهوا فى مظاهرة الى وزارة المالية.

وقبل أن يصلوا الى مبنى الوزارة ، اتصلوا بأعضاء مجلس شورى النواب ، وطلبوا منهم مرافقتهم ، فأشترك أربعة من النواب فى المظاهرة ..

ووقف الضباط فى طريق نوبار رئيس الوزراء ، وشدوه خارج عربته ، ولما وصل السير ولسن وزير المالية ، جذبه الجنود من لحيته ، وأرغموهما على الخروج من العربة ، وقادوهما الى وزارة المالية وسجنوهما فى احدى الغرف ، حتى يقرر الضباط مصيرهما ..

وأسرع القنصل البريطانى يستنجد بالخدو اسماعيل لانقاذ سير ولسن .. وذهب الخديو بنفسه الى وزارة المالية ، وأفرج عن رئيس وزرائه ، ووزير المالية ..

كانت هذه الحادثة شرارة الثورة التي اندلعت واستمرت أكثر من ثلاث سنوات، شهدت مصر خلالها ازهى عصور الحكم الوطنى.. واكتشف الشعب من خلال حركة الضباط قدرة الجيش على قيادة الثورة .. انه القوة الوحيدة المنظمة التى تستطيع أن تقوم بدور الطليعة للثورة .. وكما يقول روزنشتين فى كتاب « المسألة المصرية » :

« وكل شعب زراعى يعيش جماعات متباعدة يضعف أمام الاستبداد داخليا كان أو أجنبيا - فتم الجيش المصرى ، وان شئت فقل الضباط المصريون الذين يستطيعون الوقوف ، بل يقفون بالفعل فى وجه المعتدين الأوربيين اذا ما اضطروهم اليأس الى ذلك ، وان من لغو الكلام أن يعد هذا الحادث وما تبعه من نوعه مجرد شغب عسكرى، فان ما شعر به الضباط هو ما كانت الأمة تشعر به ، غير أن الأمة لم تكن تستطيع التصريح برغباتها ، ولا البدء بالعمل مجتمعة متممة النظام » .

ويؤكد هذا المعنى السير وليم جريجورى فى مقال نشر فى التيمس عام ١٨٨٢ ، قائلا :

« فالجنود فى الشرق ، كانوا ولا يزالون العامل الأكبر فى الحركات السياسية ، ذلك بأن لهم وحدهم من الاتحاد والشجاعة ما يمكنهم من بلوغ أغراضهم » .

« كان الجيش هو الهيئة الوحيدة التى أوتيت القدر الضرورى من النظام والقوة ، فكان لابد أن يتجمع حوله استياء الأمة عاجلا أو آجلا ليعبر عن نفسه تعبيرا مفيدا .. »

وأدرك الخديو اسماعيل مغزى حركة الجيش ، وحاول أن يستغلها لاستعادة سلطانه من التدخل الأجنبى .. وأعلن اسماعيل

أنه لن يكون مسئولاً بعد ذلك عن النظام والأمن ، إذا لم يعزل نوبار
من رئاسة الوزارة .

وأقيل نوبار . ولكن الوزيرين الأجبيين احتفظا بمنصبيهما . .

وكانت الخطوة الثانية فى استعادة السلطات الوطنية من
التدخل الأجنبى ، قيام أعضاء مجلس شورى النواب بمقترحات مالية
تخفيض الضرائب التى ينوء بها الشعب .

وهاجت الدوائر المالية فى أوربا وأعلنت استحالة وجود
مجلس نواب يراقب الميزانية . . وأعلن سير ولسن وزير المالية فى
الحكومة المصرية ، افلاس خزانة مصر . .

وأوعز الوزيران الاجنبيان بفض دورة انعقاد المجلس ، وذهب
رياض باشا وزير الداخلية ، ليعلن رسميا انتهاء دورة انعقاد مجلس
شورى النواب . .

وكما حدث خلال الثورة الفرنسية ، عندما طلب كبير أمناء
الملك فض اجتماع مجلس الامة ، فتصدى له « ميرابو » أحد قادة
الثورة الفرنسية ، قائلا . . « اذهب وقل لمن أرسلوك انا هنا بأمر
الشعب ، وانا لن نبرح مكاننا الا بعد السيوف . . »

. . كذلك وقف النائب محمد راضى يرد على رياض . . « المجلس
لم يزل باقيا له مدة ، ولن ننصرف الا اذا أعطى مجلس النواب حقوقه
وأجيب طلباته ، وها نحن منتظرون الرد »

وفى ٢٩ من مارس ، قدم النواب عريضة الى الخديو اعترضوا
فيها على مسلك الوزارة فى امتهان حقوق المجلس ، واحتجوا على
المشروع المالى الذى أعدته الوزارة ، وتعلن فيه افلاس الحكومة المصرية
. . كما أعلنوا رفضهم لمشروع الغاء قانون المقابلة ، وعزمهم على
الامتناع عن تنفيذه . .

وأصرت الحكومة على فض المجلس ، ولم تحدد موعد اجراء الانتخابات الجديدة ..

الحركة الشعبية

واجتمع الأعيان وكبار الملاك فى منزل رئيس مجلس شورى النواب ، ووضعوا لائحة وطنية ، ومشروعاً مالياً يعارض فكرة اعلان افلاس الحكومة ، وأوضحوا قدرة البلاد على الوفاء بديونها ، كما طالبوا بوزارة وطنية واقصاء الوزيرين الأوربيين ..

وبلغ عدد الموقعين على اللائحة ستين من أعضاء مجلس شورى النواب ، وستين من العلماء والهيئات الدينية ، وفى مقدمتهم شيخ الاسلام ، وبطريك الأقباط ، وحاخام الاسرائيليين ، و ٤٢ من الأعيان والتجار و ٧٢ من الموظفين العاملين والمتقاعدين و ٩٣ من الضباط ..

.. وهكذا تطورت حركة الضباط الى مقاومة منظمة ضمت طبقات وفئات الشعب المختلفة ..

وقدمت مطالب الشعب الى الحديو ، واستجاب لها ... واستدعى قناصل الدول الأجنبية ، وأبلغهم مضمون اللائحة الوطنية ، وقراره بقبولها .

وسقطت الوزارة الأوربية .. وهاج الرأسماليون فى انجلترا وفرنسا .. ولكن الثورة مضت فى طريقها ، وشكلت وزارة وطنية لم يدخلها وزراء أجانب .. وكان أول قراراتها استمرار انعقاد مجلس شورى النواب ... وأعلن رئيس الوزراء أنه لن توضع قوانين أو لوائح الا بعد عرضها على المجلس وقراره لها .. وكان معنى ذلك وقف عمليات النهب التى مارستها لجان التحقيق والرقابة

الأوربية بتدخلها في فرض الضرائب وعقد القروض وانتزاع أرباح الأسهم والسندات لحساب المالكين في أوروبا ..

واجتمع مجلس شورى النواب ، وانتخب لجنة دستورية لبحث الدستور الذي تقرر وضعه ..

وقد أقر الدستور المبادئ الأساسية للحياة النيابية لأول مرة في تاريخ مصر .. وخول مجلس النواب حق اقرار القوانين واقرار الميزانية ، كما تقرر مسئولية الوزارة أمام المجلس ..

وأدركت انجلترا وفرنسا ، وأصحاب الديون في أوروبا ان مصر لم تعد مستعمرة للسلب ، وأن وجود القوى الوطنية سيعرقل مشروعاتهم في استمرار عمليات نهب الخزانة المصرية ..

وأحس الاستعمار التركي القديم أن مصالحه مهددة أمام نمو الحركة الوطنية ، فالجزية والأموال المنهوبة في صور هدايا ورشاوى ومرتببات للأمراء الأتراك ستصبح تحت رقابة نواب الشعب ... والتقت أهداف تركيا بأهداف الاستعمار الانجليزى الفرنسى ، وقبلت تركيا مشورة انجلترا وفرنسا وصدر قرار عزل اسماعيل .. واستسلم الحديو بعد أن سمح لنفسه أن يقع في قبضة الرأسماليين الذين أغرقوه في الشهوات ونهبوا ثروته وثروة الشعب المصرى وغادر اسماعيل البلاد بعد أن لعب به المرابون والدائنون وأصحاب الشركات والمؤسسات المالية ، ووجد نفسه معزولا وسط تيارات النهب العالمية .

وجاء توفيق تحت ضغط القوى الاستعمارية ، وحاول ارضاء القوى التى جاءت به .. أراد تصفية العناصر الوطنية ، فصدر قرار بنفى جمال الدين الأفغانى ، كما حاول احلال العناصر التركية مكان العناصر المصرية في الجيش .. كما أصدر أوامره بتخفيض عدد القوات المسلحة ..

ولم تستسلم القوى الوطنية أمام الحديو توفيق ، بل مضت في طريق الثورة لتوحيد نفوذ الأجانب ، وأخذ شريف باشا في وضع الأسس المالية لدفع أقساط القروض وقدمت الوزارة مشروع الدستور الى الحديو توفيق ليوقع عليه .. ولكن الحديو رفض تحت ضغط انجلترا وفرنسا اقرار الدستور .. واستقال شريف باشا .

واختير رياض باشا الذي أثبت من قبل ولاءه للأوربيين ، رئيسا للوزارة .. واجتاحت البلاد موجة من الارهاب مارسها رياض باشا ضد القوى الوطنية .. ونفى كثيرا من الوطنيين الى السودان .. وصادر الصحف ..

وتحت ضغط الضرائب الجديدة ، واستعمال الكبراج اضطر الفلاحون الى الالتجاء للمرابين الأجانب ، وبلغت فوائد الربا الفاحش حوالى ٤٠٪ ..

وزاد عدد الموظفين الأجانب وبلغ ١٣٢٥ موظفا أوربيا. وشغل الأجانب المناصب الكبرى ، وبلغ ما كان يحصلون عليه من مرتبات أكثر من ٣٧٠ ألف جنيه .

وانشئت مؤسسات وشركات برعوس أموال أجنبية لم يكن لها من هدف سوى الحصول على المال بأحط الوسائل .. وكانت تستغل الأيدى العاملة بأرخص الاجور .. وتشترى المحصولات من الفلاحين بأبخس الأثمان ..

وتحركات القوى الوطنية من جديد لتنظيم قوى المقاومة ، وتشكل أول حزب سياسى يمثل الاعيان والمثقفين ، وأطلق عليه أول الأمر « جمعية حلوان » وظل يعمل سرا ، ويوزع المنشورات ضد نهب ثروة الشعب وتسرب الأجانب وسيطرتهم على الحكم .. كما طالبوا باعادة املاك الحديو الى الحكومة المصرية ..

وللمرة الثانية ، يتحرك الجيش ليقوم بدور الطليعة فى مقدمة القوى الوطنية ..

وفى أول فبراير عام ١٨٨١ اجتمع ضباط الجيش واختاروا أحمد عرابى ممثلا لهم ، لرفع شكواهم الى رئيس الوزراء من مظالم وزير الحربية التركى ..

والقى القبض على عرابى واصحابه ، وتحركت قوات الجيش من القلعة والعباسية وطره واتجهت بأسلحتها الى قشلاق قصر النيل وأفرجوا عن زعمائهم ..

وأدركت القوى الوطنية ضرورة ارتباطها بحركة الجيش ، وبدأت اتصالات خفية بين شريف باشا ممثلا لكبار الملاك ، وسلطان باشا عن الاعيان وعرابى ممثلا للجيش والشعب ..

وكان الفلاحون يرسلون ممثلهم الى القاهرة يحملون مطالبهم بتخفيف الضرائب ، والتذمر من سلب محصولاتهم وأموالهم ، فكانت غالبية القوى ممثلة فى أروقة الوزارات بممثليها الذين جاءوا يحملون عرائض الفلاحين ..

يوم خالد

وفى ٩ من سبتمبر عام ١٨٨١ شهدت مصر ، يوما من أروع أيامها الوطنية ، عندما أرسل أحمد عرابى الى الحديو يبلغه أنه قادم على رأس قوات الجيش الى سراى عابدين لتقديم مطالب الشعب ..

واحتشدت قوى الجيش بأسلحتها وذخيرتها وحاصرت سراى عابدين بمدافعها ، وتجمع وراء صفوف الجيش آلاف من أهل القاهرة هاتفة .. « عرابى .. عرابى .. » كانت مظاهرة شعبية رائعة .

ونزل الحديو توفيق الى الميدان ، وتقدم أحمد عرابى راكبا

جواده شاهرا سيفه ، وقدم مطالب الجيش والشعب ، وهى ..

• اسقاط وزارة رياض

• زيادة عدد الجيش

• تولى الطبقة المتوسطة الحكم

وأشار قنصل انجلترا الذى كان يقف بجانب الخديو عليه
باطلاق الرصاص على عرابى .. ولكن الخديو لم يعمل بنصيحة
القنصل ، ورضخ الخديو لمطالب الشعب ..

شكل شريف باشا الوزارة الجديدة ، واستعد لوضع الدستور
الجديد ولائحة الانتخابات ، وانتصرت الحركة الوطنية .. واهتزت
أوروبا ..

وأدرك الاجانب مغزى الثورة .. وكتب مراسل التيمس :

« لا فائدة من اخفاء الحقيقة ، وهى أن هذه الحركة لا ترمى الا
الى هدم تدخل أوروبا فى الإدارة المصرية ، وأنه اذا كانت هذه النية
منذ أسبوعين مقصورة على فئة قليلة من الضباط ، فانها ليست
الآن كذلك .. ان سكان الاسكندرية والقاهرة المدنيين على الأقل ،
وهم الذين كانوا على وجه العموم لا يهتمون لما يحدث ، أصبحوا
يؤيدون عمل الجيش كل التأييد ، وهم الآن أجراً على الجهر
بأغراضهم » ..

وانتقلت الثورة الى مرحلة جديدة ، وطلب شريف باشا من
الزعماء العسكريين الانتقال بقواتهم العسكرية من القاهرة الى
الاقاليم ، لتجنب الاصطدام بالخديو ..

وغادر عرابى القاهرة الى الشرقية ، كما غادر عبد العال حلمى
العاصمة الى دمياط .. وكان يوم سفرهم مظاهرة سياسية ضخمة ،

ألهبت مشاعر الجماهير .. ونشرت الورود .. وكان في وداعهم
الأعيان والتجار والآلاف من أبناء الشعب وألقيت الخطب والكلمات
تأكيدا لوحدة ارادة الشعب ..

وفي الشرقية ، ظل عرابى يتنقل بين المدن والقرى يبث
أفكاره بين الأعيان والفلاحين .. وعقدت الندوات وكان الفلاحون
يهتفون باسمه في كل مكان ..

وأصبح عرابى أسطورة الشعب ومعبود الجماهير ..

وخاف الحديو من التفاف الشعب حول عرابى ، فعينه وكيلًا
لوزارة الحربية ، فعاد الى القاهرة ..

وانطلقت الصحافة تندد بالعهد البائد ، وتطمح في تقارير
الضرائب ومحاسبة الأوربيين على حساب المصريين ، وكثرة الموظفين
الأجانب ، وسيطرة آل روتشلد الماليين على مصلحة السكك
الحديدية ..

كما حملت الصحافة على المواخير وبيوت الحمر ، ودور البغاء
التي أخذت تنتشر في انحاء القاهرة محتمية بالامتيازات ... كما
هاجمت ايام حكم الوزيرين الأجنيين ..

والقى استعمال الكبراج ، وانطلقت صيحة الحرية بين
الفلاحين ..

وأصبحت المراقبة التي أقامتها انجلترا وفرنسا على الميزانية
المصرية لفظا لا معنى له ..

وعلى الرغم من قصر المدة التي قامت فيها وزارة شريف ، فانها
بدأت بإزالة بعض فضائح الماضي ، وأعدت الوزارة القانون الجديد
للانتخابات .. وقانونا لمنع السخرة .. واصلاح المحاكم المختلطة
التي ساهمت في ظلم الفلاحين ..

وقام عرابي باصلاح حصون السواحل ، ونظم احتياطي المدفعية ووزعه على الحصون ... ودراسة نصوص المعاهدات والاتفاقيات المعقودة بين الحكومة المصرية والحكومات الأجنبية أو الرعايا الأجانب .. كما أخذت في دراسة مشكلة زيادة الموظفين الأجانب في دوائر الحكومة المصرية ..

وكتب السير وليم جريجوري في التيمس قائلا :

« لقد قوى عمل الجيش ما في مصر من رأى عام ، وانى لكبير الأمل بأن المساوى القبيحة التى لا تزال فاشية في البلاد سيقضى عليها بالصبر والأناة شيئا فشيئا .. لا شك انه لولا وجود يد قوية في الحركة الوطنية ما تم اصلاح يذكر ، طالما تكلموا عن الاصلاح في هذا البلد كما تكلموا عليه في تركيا ولكن الامر لم يتعد دائرة الكلام .. اما الآن فقد شرع في اصلاحات قيمة كان الباعث عليها علم القوم بوجود عصبية قوية تصر على انفاذها .. »

وتجلت الثورة في أزهى صورها ، عندما أراد الانجليز والفرنسيون أن يمنعوا مجلس الأمة من نظر الميزانية ، واستقال شريف .. وتقدم البارودى دون تردد ووراء الطليعة العسكرية والقوى الوطنية ، وشكلت الوزارة الجديدة وعلى رأسها رجل عسكرى ..

وكان كل انتصار للثورة يؤكد خطواتها نحو التحرر والقضاء على الرجعية فى الداخل والتخلص من الاستعمار التركى القديم ، والقضاء على الابتزاز المالى والتدخل الأجنبى ..

وتم توسيع الدائرة الانتخابية للشعب ..

وقام مجلس النواب بدراسة الاقتراحات والمشروعات لتعميم التعليم وبناء خزان أسوان .. وفحص شكاوى الأهالى .. ودفع

الديون التي على الحكومة للمصريين .. وبدأ دراسة اصلاح النظام
القضائي واصلاح الزراعة والرى والمواصلات والادارة ..

ان المعركة تصل أوجها .. القوى الوطنية تؤكد قدرتها على
حكم مصر ودفع الديون ، كما أطلقت الحرية للشعب .. واندفعت
الجماهير نحو وعى جديد ..

وفى خلال هذه المرحلة ، بدأ التفكير فى وقف الجزية التي
كانت تدفع لتركيا ، كما ترددت الأفكار حول الغاء النظام الملكى
واعلان الجمهورية ، وتحديث زعماء الثورة عن الاصلاح الزراعى
وضرورة توزيع الاراضى على الفلاحين ..

وأدرك الاستعمار انه يفقد مصر كمستعمرة ، وأن الوسائل
السلمية لايتراز ثروة الشعب المصرى لم تعد ملائمة ، فأخذ يدبر
للعنوان .. وجاء الأسطولان الفرنسى والانجليزى الى الاسكندرية،
لتهديد الثورة والقضاء على زعمائها ..

ولكن الثورة لم تتوقف .. ورفضت الطليعة العسكرية
الانذار العسكرى ، وثار الضباط فى وجه توفيق .. واجتمع مجلس
النواب وطالب عرابى برفض الانذار وخلع الخديو .. ووقفت بجانبهم
طليعة العلماء ورجال الدين .. وانهاالت التلغرافات من القوات
العسكرية ومن المدن والأقاليم والقرى تؤيد عرابى .. وأعلن
البارودى التعبئة ..

مرحلة تاريخية

كانت الثورة العرابية ، ثورة حقيقية نابعة من أعماق الشعب،
ولم تكن « هوجة » ، كما حاول الاستعمار أن يصفها وأن يشوهها
فى اذهان أجيال الشعب المصرى ، ولم تكن انقلابا عسكريا أو فوضى
عسكرية ، كما أشاعوا عنها فى خارج مصر وفى داخلها ..

كانت الثورة العرابية ، مرحلة تاريخية لمسيرة التطور
الانسانى ، وملاحقة الحضارة الحديثة ، والخروج بالشعب المصرى
من مرحلة التخلف الى مرحلة التقدم ..

واستلهمت الثورة العرابية ، كل ما استخلصته الثورة
الفرنسية فى نضالها ، وكل ما اكتسبته ثورة البورجوازية أو
الرأسمالية فى العالم من أجل تطورها ..

كان التطور الصناعى ، كما نادت به الثورة الفرنسية يقوم
على ثلاثة أسس :

- توزيع الأرض على الفلاحين ، والقضاء على طبقة الاقطاع .
- تولى الطبقة الوسطى ، السلطة التشريعية والتنفيذية .
- تدعيم الصناعة ، بالمحافظة على الثروة القومية .
- اطلاق الحريات الاقتصادية والسياسية .

ولم يكن أحمد عرابى فلاحا عسكريا جاهلا ، كما حاولوا
تصويره ، بل كان جنديا ثائرا ، ووطنيا راسخ العقيدة . ونستطيع
أن نبين أفكاره من حديثه مع مستر بلنت .

تكلم عرابى عن ابطال السخرة التى أنزلها الأغنياء من
الباشوات الترك بالفلاحين ، وابطال احتكار هؤلاء الأغنياء مياه
الرى عند زيادة النيل ..

وتكلم عرابى عن اصلاح العدالة التى تطرق اليها الفساد فى
صورة مخيفة ، وعن تعليم الرجال بل وتعليم النساء ، وعن طريقة
الانتخاب التى تنتمى للبرلمان الجديد .

وكشف عن اعداء الثورة فى الدّاخل قائلا :

« انما هم امراء الأسرة الحديوية وأغنياء الباشوات أولئك الذين توجه ضد مظالمهم حركتنا القائمة ، حركة الفلاحين القومية ، وأنه على حسب مبادئ الحرية الجديدة سوف يكون الناس جميعا منذ الآن سواسية لا فرق بينهم بسبب الجنس أو اللون أو الدين » .

وكانت الخطب والكلمات التي ألقيت خلال الثورة ، توضح أهداف الثورة واتجاهها . . .

ففي حفل جمعية المقاصد - ألقى أحد الطلبة خطابا طالب فيه الأثرياء بالمساهمة بأموالهم في انشاء بنك أهلي يستغنى به الأهالي عن الاقتراض من المرابين بالفوائد الفاحشة . . .

ومما قاله محمود سامي في جلساته الخاصة :

« لقد كنا نرمى منذ بداية حركتنا الى قلب مصر الى جمهورية محايدة مثل سويسرا . . . وعندئذ كانت تنضم اليها سوريا وليها الحجاز . . . »

وكان من أهداف الثورة حماية الصناعة الوطنية من غزو البضائع الأجنبية . . . فكانت في مصر صناعات ناسئة كنسيج أقمشة الكتان والقطن والحريز وصناعة الحصر والجلود ، وكانت هذه الصناعات تشغل عددا من السكان يربحون حوالي ١٥٠ ألف جنيه سنويا . . . كما كانت هناك صناعة الصابون والعسل ، وتجارة البلح ، وصناعة السكر ، ومعاصر الزيوت وصناعة السجاد . . . وتعرضت هذه الصناعات للمنافسة الأجنبية مما عرض المصانع للفلق وتشريد العمال والموظفين .

كما طالب عرابي بتوسيع القاعدة الانتخابية لتشمل قطاعات واسعة من الشعب ، ولكن كبار الملاك عارضوا الفكرة ، ومع ذلك كانت غالبية أعضاء مجلس شوري النواب الذي انتخب أثناء الثورة من أبناء الطبقة الوسطى . . .

وأدركت الدوائر الاستعمارية والرأسماليون الغربيون أنه مهما حسنت نيات القائمين بالحركة الوطنية فانهم لا بد أن يمسوا مصالح الأوربيين الكثيرة التى تمثلها المراقبة الأوربية وكثرة الموظفين الأوربيين والمزايا الكثيرة التى يتمتع بها الأوربيون بعثهم بالامتيازات الممنوحة لهم ، وكانت أوروبا الرأسمالية تعلم حق العلم ان مصالحها فى مصر قائمة على النهب والسلب ، وانه اذا ما استقلت مصر واشتد ساعدها عاجلا أو آجلا فلا بد أن يضحي بهذه المصالح من أجل ما هو أهم منها ، ألا وهو مصالح الشعب المصرى ..

ان الثورة العرابية هى المحاولة الثانية فى تاريخ الشعب المصرى للدخول الى مرحلة الثورة الصناعية التى وصلت اليها الحضارة الانسانية .

كانت المحاولة الأولى فى عصر محمد على ، وكانت أسباب فشله عجزه عن فهم طبيعة ومقومات ثورة العصر .

أما الثورة العرابية ، فقد قفزت بالنضال المصرى سنوات طويلة الى الأمام ، ولكنها واجهت قوى الاستعمار فى عصر نموه وازدهاره ، واستطاعت انجلترا وقوى الرجعية فى الداخل أن تضرب ثورة الشعب وأن تعرقل خطواته نحو التقدم والتطور ..

عرايى والمستقبل ..

لم يتجاوز عمر الثورة العرابية ثلاث سنوات وبضعة أشهر .. بدأت بحركة الضباط فى فبراير عام ١٨٧٩ وانتهت بالاحتلال البريطانى فى سبتمبر عام ١٨٨٢ .

وخلال هذه الفترة القصيرة ، انطلقت قوى الشعب المصرى لأول مرة منذ مئات السنين .. وأكدت وعيها ، وقدرتها على مسايرة

التطور الانساني .. وشهدت مصر خلالها ازهى أيامها ..

وكتب بلنت يصف الأيام التي تلت مظاهرة ٩ من سبتمبر :

« ان ثلاثة الشهور التي أعقبت هذا الحادث الخطير لهى من الوجهة السياسية أسعد الأيام التي شهدتها مصر .. ولقد ألحظ بمشاهدة ما جرى فيها بعينى رأى فلم أتلق معلوماتى عنها بطريق السماع ولو كان ذلك لشككت فى حقيقتها .. انى لم أر فى حياتى ما يشبه هذه الحوادث وأخشى ألا أرى مثلها فى المستقبل .. ان كل الأحزاب الوطنية وكل أهالى القاهرة قد اتفقت كلمتهم على تحقيق الغاية الوطنية الكبرى .. وسرت فى مصر رنة فرح لم يسمع بمثلها على ضفاف النيل منذ قرون ، فكان الناس فى شوارع القاهرة حتى الغرباء منهم يستوقف بعضهم البعض يتعانقون وهم جذلون مستبشرون بعهد الحرية العظيم الذى طلع عليهم على حين غفلة طلوع الفجر اثر ليلة مخيفة حالكة الظلام » .

وأخذت الصحف العربية تثير الشعب ضد الاستعمار وضد تغفل المالىين الأوربيين فى شئون مصر ، ووسائل نهب الثروة المصرية ، وتحمل على الأوربيين حملة شعواء وهاجمت المواخير وبيوت الحمر ودور البغاء المنحطة التي أخذت تنتشر فى أنحاء القاهرة محتمة بالامتيازات .

فكيف تلقت أوروبا الرأسمالية أنباء هذه الثورة ؟

وكيف استقبلت وزارة شريف التى طلب عرابى بتوليده الوزارة ؟

وكتبت التيمس أيضا :

« ان الحكومة الوطنية الجديدة ، استقبلت فى أوروبا باعراض

الدبلوماسيين وسب الحكوميين ولعنة الأسواق المالية ، •

ان القوى الوطنية والجيش ترابطت فى قوة ، وخلقت تحالفا
فى وجه انجلترا وفرنسا ••

ووضعت الحركة الوطنية وقوى الثورة أهدافها ، وهى
التخلص من الحكم الرجعى فى الداخل وطرده المراقبة الأوربية على
الميزانية المصرية •• واستقلال المصريين بحكم أنفسهم ••

ولأول مرة منذ سنوات طويلة ، قام الجيش ليعبر عن ارادة
الشعب ، واختار حكومة وطنية استطاعت أن تسيّر بالحكم ثلاث
سنوات ، درست خلالها مشروعات على جانب كبير من الأهمية
بالنسبة لمستقبل الشعب •• فناقشت بناء خزان أسوان ، كما
ناقشت تعميم التعليم •• ومشاكل الري والزراعة •• وزاد عدد
الجيش ••

وانتقل الحكم فى مصر من يد الأمراء والاقطاعيين الى يد الطبقة
الوسطى •• ومارست هذه الطبقة مسئولياتها التشريعية ، وواجهت
أعصب أيام فى تاريخ مصر ، ومع ذلك أثبت مجلس شورى النواب
الذى مثل قطاعات واسعة من الشعب قدرته على فهم مسئولياته ••

واثبتت الثورة أن الشعب المصرى لا يقل استعدادا وقدره عن
غيره من شعوب أوروبا فى ممارسة شعائر الثورة الفرنسية ومبادئها
التي كانت تسود دول أوروبا فى ذلك الوقت ••

وأدرك الشعب المصرى من خلال الثورة العرابية مضمون
الاستعمار وأخطاره ، وظلت الحكومة ومجلس شورى النواب فى
التضييق على الرقابة الأوربية الثنائية حتى أصبحت عاجزة عن
ممارسة أعمال النهب ، وهى التى أتاحت من قبل عددا لا يحصى من
المضاربات والمقاولات الصورية بين الحكومة وأفراد المقاولين والماليين

وأكدت الثورة العرابية خلال نضالها ، أن الطريق لتحرير الشعب العربي لن يتم الا بطرد الاستعمار التركي المتخلف ، وإعلان الجمهورية ٠٠ وتحرير الاقتصاد من الاستعمار الجديد الذى يتسرب على شكل شركات وبنوك ومؤسسات مالية وقروض مشروطة بأرباح باهظة ٠٠

كما كشفت الثورة العرابية عن قوى التضامن العربى ٠٠٠ فأرسلت الثورة الى الأمير عبد القادر الجزائرى والشيخ السنوسى فى ليبيا والى عرب طرابلس ٠٠ واتصل رجال الثورة بالمهدى فى السودان ٠٠ وجاءت رسائل التأييد من تونس والجزائر ٠٠ وألقيت الخطب تأييدا لعرابى فى مساجد دمشق ٠

وهكذا وضعت نواة الكفاح العربى المشترك خلال الثورة العرابية ، لتنمو وتزدهر ٠٠

وأطلقت الثورة العرابية قوى الفلاحين ، وأثارت مشاكل العدالة الاجتماعية ، وطالبت بتوزيع الأرض على الفلاحين ، ونادت بالمساواة والحرية والاخاء ٠٠ وكشفت جذور الصراع الطبقي ، وأوضحت معانى الصراع بين قوى تحالف الشعب العامل وقوى الرجعية والاستعمار ٠٠

لقد أكدت الثورة العرابية ، قدرة الشعب المصرى على ممارسة أسلوب الحياة الجديدة ، وإدراك مطالب الحضارة الحديثة ٠٠٠ ولم تستطع النكسة التى أدت اليها خيانة الرجعية وعدوان الاستعمار أن تحطم روح الثورة العرابية فى نفس الشعب المصرى ، بل ظلت كامنة لتنتلق أقوى مما كانت ٠٠ تأخذ من دروس الماضى ، وتطور الحاضر ٠٠ وتسير الى المستقبل ٠

الفصل الخامس

« اخي ، لو شحلتوا السيف على
عنقي فلن اركع

ولو في فمي الدامي جبال سياطهم
تنقع

فلن ارجع عن فجري ، لن ارجع ؛
لن ارجع

وقد اوشك ان يطلع ؛ قد اوشك
ان يطلع من الأرض التي من ثديها
بركاننا يرضع . »

معين بسيسو

الثورة المضادة

تواجه الثورات في سيرها ثورات مضادة .. فالثورة - وهي قيام طبقة أو طبقات جديدة تريد أن تتسلم السلطة - تصطدم في سبيل ذلك بمقاومة عنيفة من الطبقة المنهارة التي تتشبث بامتيازاتها ، وتريد أن تحافظ على مصالحها وعلى وجودها حتى الرمح الأخير ..

وواجهت الثورة العربية مقاومة عنيدة من قوى الاقطاع والرجعية في الداخل .. وقوى الاستعمار التركي والاستعمار الانجليزى والفرنسى من الخارج .

مؤامرات .. واشاعات

قبل أن يبدأ العدوان البريطاني على مصر ، كان قد تحدد موقف الطبقات المختلفة من الصراع ضد الاستعمار .

انحاز الحديو توفيق وأمراء الاقطاع الى جانب الاستعمار منذ الوهلة الأولى للصراع ، ووقف كبار الملاك موقفا وسطا من الثورة ، على حين أيدت جماهير الشعب وقوات الجيش والفلاحون والأعيان قيادة الثورة في انطلاقها ..

فمنذ تولى الحديو توفيق الحكم ، أخذ يدبر المؤامرات للتخلص من القيادة العسكرية الثائرة ، وقرر القبض على الزعماء الثلاثة أحمد عرابى وعلى فهمى وعبد العال حلمى ، ولجأ الى وسيلة قذرة

فاستدعاهم للحضور الى ديوان الوزارة لترتيب الاحتفال بزفاف
الأميرة جميلة هانم شقيقة الخديو ..

وأحس عرابي ورفيقاه بالمؤامرة ، فأبلغوا زملاءهم الضباط
بالدعوة ليرقبوا الحالة ..

وصل عرابي وصاحباة الى قصر النيل ، فوجدوا أنفسهم
محاصرين بالضباط الموالين للخديو ، وكان المجلس العسكري
منعقدا ، وأصدر القاضي أمرا باعتقالهم ومحاكمتهم ، ونزعت منهم
سيوفهم ، وقادوهم الى قاعة السجن بقصر النيل بين صفين من
الضباط الشراكسة ووجهت اليهم الألفاظ النابية والشتائم ..

ووصلت أنباء المؤامرة الى الضباط المصريين ، فانطلقوا
بقواتهم وأسلحتهم الى قصر النيل ، وأنقذوا الزعماء الثلاثة ..

وفي ٩ من سبتمبر عام ١٨٨١ ، يوم المظاهرة العسكرية ،
خرج الخديو لمواجهة عرابي وقوات الجيش ، وعلى يمينه مستر كوكسن
قنصل إنجلترا في الاسكندرية وعلى يساره السير أوكلن كولفن
المراقب المالي الانجليزي ، وحاول مستر كوكسن قنصل الاسكندرية
أن يدفع الخديو الى اغتيال عرابي وأشار عليه بأن يطلق مسدسه
على الضابط الناثور ..

وفي أبريل عام ١٨٨٢ اكتشفت مؤامرة ، قام بها الضباط
الشراكسة لقتل عرابي ورفاقه من كبار رجال الحركة الوطنية ،
وألقى القبض على تسعة عشر ضابطا ، قدموا الى المحاكمة
العسكرية ، واعترف أحد الضباط أن راتب باشا هو الذي دبر
المؤامرة وأغرى الضباط الشراكسة بقتل عرابي ، وصدر الحكم
بادانة أربعين ضابطا تركيا منهم رفيق باشا ، فحكم بتجريدهم
جميعا من ألقابهم ونفيهم الى السودان ، ورفض الخديو توفيق
التصديق على الحكم ، وتمسك عرابي ورفاقه بالتنفيذ ، وثارت أزمة

عنيفة وهاج الرأي العام غضبا على الحديو الذى كشف موقفه العدائى الصريح للقيادة الوطنية ..

وقام أعوان الحديو باغراء الضباط بالمال والمناصب ليقفوا فى الوقت المناسب مع الحديو ، وفكر رياض باشا فى تدبير مشاجرة فى أحد الشوارع يندس فيها من يقتل عرابى .

وتوالى المؤامرات والدسائس فى صفوف الجيش .. مؤامرة يوسف كمال باشا .. ومؤامرة فرج الزينى .. ومؤامرة تعيين داود يكن باشا الشركسى وزيرا للحربية ..

وأخذ الحديو فى تمرين حرسه الخاص على اطلاق النار وكان يكافئ الجنود بجنيئات ذهبية لاستمالتهم الى صفوفه .. وأحيط بيت عرابى وعبد العال بالجواسيس ، كما سرت اشاعة فى القاهرة بأن الحديو استصدر فتوى سرية من شيخ الاسلام بقتل عرابى ..

كان هدف القوى الرجعية والاستعمارية التخلص من أحمد عرابى بأى ثمن ، وبأية وسيلة . كان عرابى رمز الحركة الوطنية كلها، كما كان رمزا للتخلص من الرأسماليين الأوربيين الذين نهبوا ثروة مصر . لقد تجمعت فى عرابى آمنيات الفلاحين فى استرداد أرضهم من المرابين ، وآمنيات أصحاب الصناعات فى وقف استيراد السلع الأوربية التى تهدد مصانعهم ، وآمنيات الموظفين فى التخلص من الموظفين الأجانب ، وآمنيات الأعيان فى مراقبة الميزانية وتخفيف الضرائب ، والضرب على أيدى لصوص أوروبا .

وكما حاولت الرجعية والاقطاع التخلص من عرابى ، قام الاستعمار بمحاولاته المجنونة ضد الزعيم الذى وقف فى صلابة ضد غزوهم المالى ونهبهم لثروة الشعب ..

وأخذ السير ادوارد مالت يسعى فى حمل محمود سامى

وعرابي وثلاثة من زعماء الحركة ، على أن يوافقوا من تلقاء أنفسهم على ترك مصر نظير معاش سنوي ، واحتفاظهم بألقابهم ، وعهد الى السيو مونج أحد رجال القنصلية الفرنسية أن يقوم بهذه المهمة لعرفته اللغة العربية ، ورفض مسيو مونج ، وعهد الى سلطان باشا أن يقوم بعرض الرشوة على عرابي . . وثار عرابي في وجه سلطان باشا . .

وعرض آل رتشيلد على عرابي مرتبا سنويا ٤٠٠٠ جنيه وعرضت الحكومة الفرنسية مرتبا سنويا آخر قدره ستة آلاف جنيه ، مقابل تركه مصر . .

وفشلت محاولات التخلص من عرابي . . وأخذوا يطلقون الاشاعات والدس ضد الحكومة الوطنية وحركة الجيش . .

وحاول السير أوكلن كلفن تشويه الحكم الوطني فكتب يقول :
« ان النظام الجديد هو بأسره تحت سيطرة جيش متمرد ظافر . . » .

كما كتب مستر كوكسن يهاجم « عرابي » وحركة الجيش :
« ان ما يتظاهرون به من طموح الى العدل والحرية قد انتهى بان حلت سلطة الجيش العاشم محل كل سلطة مشروعة » .

وقال : ان « عرابي » شرع يرقى عددا كبيرا من ضباط الجيش بغير حق ، وأن الخديو اعتمد هذه الترقيات خوف الفتنة ، وكانت الوزارة قد نشرت قانونها الانتخابي الجديد ، فلم ير المستر كوكسن في هذا القانون غير وسيلة خبيثة لتأييد الحكم العسكري ، وقال عنه « ان الغرض منه في هذا البلد ان تكون كل القوة الانتخابية ، لمن رشحتهم السلطة الحاكمة ، والسلطة الحاكمة الآن هي سلطة الجيش » .

وكتب عدة تقارير عن الاضطراب والفوضى السائدين في
الاقاليم ، كما كتب السير ادوارد مالت القنصل البريطاني عن قلة
اكثرث الاهالى بأولياء الامور المدنيين ، ويعزى ذلك الى سلوك رجال
الحزب العسكرى الذين لا يعاملون زملاءهم المدنيين بالاحترام
الضرورى لادارة البلاد ، وتحدث عن الرشوة وانتشارها لكثرة
التغيير والتبديل فى كبار الموظفين .

وتحدث سير مالت القنصل البريطانى عن الضيق الذى وقع
فيه الفلاحون فى سبيل الحصول على المال ، ويقول ان الملاك
ينسبون قلة رءوس الأموال ، وما هم فيه من الضيق الى سياسة
الحكومة الحاضرة ، التى لا تبعت على الثقة بها .

ولا شك أن سقوط الحكم الاقطاعى الرجعى وقيام العناصر
الوطنية بممارسة الحكم لأول مرة يحتاج الى تجارب ويؤدى الى
أخطاء ، ولكن الاستعمار والرجعية كانا يجسمان الأخطاء الصغيرة
ليعطما الاطار الكبير للحكم الوطنى ، ومما يدعو الى السخرية ، ان
سير مالت وسير كوكسن كانا يتحدثان عن الرشوة وهى مهما بلغت
لن تصل الى ما حصل عليه الرأسماليون الانجليز من أرباح قرص
واحد من قروضهم التى امتصت ثروة الشعب ودم الفلاح .

وكتب تيودور روتشتين يرد على هذه الافتراءات فى كتابه
« خراب مصر » يقول :

« الحقيقة أن عهد الوزارة الوطنية كان من أسعد ما رأت مصر
وأنه لم يكن عسكرى الصبغة ، بل كان من كل الوجوه أقل العصور
تأثرا بارهاب الطبقات العليا ، نعم ان الجيش كان فى ميدان العمل،
ولكنه كان عنصرا حيويا من عناصر الحركة الوطنية »

وكتب السير وليم جريجورى احد الذين انصفوا الثورة

العربية مقالا فى التيمس ، يفند فيه الافتراءات التى وجهت الى الجيش قائلا :

« لست اخشى القول بأنه قد ارتكب من الفظائع العسكرية فى لندن وحدها فى شهر واحد أكثر مما ارتكب فى مصر كلها منذ ذلك اليوم المشهود يوم ٩ من سبتمبر ، يوم أصبحت يد الضباط هى العليا ، ومع ذلك لم يقل أحد بأن الجيش الانجليزى متمرد عاصى .. ان فى مصر حزبا وطنيا يشمل الامة المصرية بأجمعها اذا استثنينا بالطبع طبقتى الاقطاع والمترفين » .

كما كتب يقول :

« انى لكبير الامل بأن المساوى القبيحة التى لاتزال فاشية فى البلاد سيقضى عليها بالصبر والأناة شيئا فشيئا ، ولا شك أنه لولا وجود يد قوية فى الحركة الوطنية ما تم اصلاح يذكر .. »

ولا شك أن مستر مالت وكوكسن والدوائر الاستعمارية وقوى الحيانة فى الداخل كانت تتعمد تشويه الحكم الوطنى وإبراز اخطائه والظلم فى أعماله ، حتى تمهد للتدخل البريطانى بعد أن رأت مصالحها المادية فى السلب والنهب مهددة بالزوال أمام نمو القوى الوطنية .

ولعل كلمات مستر روزل ، تكشف لنا عن مدى الحقد الذى كان يحمله البريطانيون للشعب المصرى من وجود الحكم الوطنى . وبكائنهم على زوال أيام الطفيان .. كتب يقول :

« ان الحاكم الشرقى اذا حرم كبراجه ، وحظر عليه أن يسجن من يشاء عجز عن سياسة قوم اعتادوا منذ القدم أن يخضعوا للحكومة فردية قوية .. ان الطريق الذى سارت فيه الحركة منذ عام جعل الفلاح يعتقد أنه يستطيع الوصول طفرة الى ما يقال له انه حرية »

وبذلت القوى الاستعمارية ، كل جهد فى نشر الاشاعات داخل مصر وخارجها ، واستأجر أصحاب رؤوس الأموال صفحات الصحف الصفراء لنشر أكاذيبهم ومفترياتهم ضد الحكم الوطنى . ولم يكن هدفهم سوى عودة أسلوب سرقة الخزانة المصرية ونهب ثروة الفلاح المصرى . .

دول من اللصوص :

لم تكتف الثورة المضادة بالاشاعات والمؤامرات والافتراءات، بل قامت الدوائر المالية فى اوربا بحملة محمومة ضد الحكم الوطنى بدعوى انقاذ ديونها ، وحماية أصحاب رؤوس الاموال من الجماعة العسكرية فى مصر .

• عرض رئيس وزراء انجلترا على فرنسا اقتراحا بأن يرسل الباب العالى فى تركيا الى مصر قائدا يعطى السلطة التامة فى اعادة النظام الى الجيش المصرى ، وأن يرافق هذا القائد قائدان آخران أحدهما انجليزى والثانى فرنسى ، وأن يتبع القائد التركى مشورة هذين القائدين . .

• وصرح غمبتا رئيس وزراء فرنسا أنه :

« يعارض أشد المعارضة فى أى تدخل من جانب المجلس فى امر الميزانية . . »

ويرى . .

« أنه يجدر بفرنسا وانجلترا ألا تلين قناتهما لئلا يشجع تردهما ما يطمع فيه الأعيان من بسط سلطتهم على الميزانية »

• وبرز بسمارك ، وأرسل باسم الحكومتين الألمانية والنمساوية احتجاجا شديدا الى الحكومة المصرية على الطريقة التى

تنوى أن تتبعها فى معاملة أصحاب الديون السائرة ، وعلى توانيها فى اجابة مطالبهم ، وأرسل فى الوقت نفسه الى حكومتى انجلترا وفرنسا مذكرة جاء فيها أن « المانيا لا تقصد غير الدفاع عن مصالح رعاياها المالية وانها تترك المسألة السياسية لانجلترا وفرنسا » .

•• وهكذا تتكشف أهداف الثورة المضادة عن رغبة الدول الرأسمالية والاحتكارات العالمية فى المحافظة على ما نهبتة وما تريد أن تنهبه من مصر ••

وكان غمبتا رئيس وزراء فرنسا ، يهدف الى تقوية مركز فرنسا فى الخارج بتشديد قبضتها على شمالى افريقيا وتقوية علاقاتها بانجلترا ، وكان من رأى غمبتا أن أوروبا بوجه عام وفرنسا بوجه خاص ، لا تصنع الديمقراطية للتصدير، ولهذا كان ينظر الى الحركة الوطنية فى مصر بعين الاحتقار ويعتبرها « تعصبا اسلاميا » أو « أوهاما ثورية » وعصيانا عسكريا ، ولهذا كان يتوق الى اخماد أنفاس الحركة الوطنية المصرية قبل أن تستفحل وتؤدى الى ازدياد المقاومة للاستعمار الفرنسى فى شمالى افريقيا •

وكان غمبتا على اتصال بالماليين اليهود وأخصهم آل روتشند الذين كانوا يحملون معظم سسندات الدين المصرى ، ويهدفون الى تشديد القبضة على مصر ضمانا لأموالهم •

ولم يكن غمبتا رئيس وزراء فرنسا هو وحده رجل الدولة الذى تربطه علاقات المصلحة والصداقة مع الاحتكاريين والرأسماليين العالميين ، فكان اللورد غوشن أحد وزراء الأحرار فى بريطانيا رئيسا لبنك فرهلنج وغوشن ، وهو البنك الذى عقد أول قرض لمصر بفائدة ٨٪ ، وطالب غوشن بعد ذلك بلجنة تحقيق لبحث حالة الميزانية المصرية ، وكان معنى ذلك تسليم ميزانية البلاد الى الاجانب

والسماح لهم بالتصرف فيها وفق أهوائهم ، كما كان هدفهم فرض ضرائب جديدة والاستيلاء على موارد أخرى . .

وارتبطت أهداف الاقطاع والرجعية في الداخل ، بأهداف الاستعمار العالمي . . فأرسلت فرنسا وانجلترا مذكرة مشتركة الى الحكومة المصرية ، جاء فيها :

« فالمرجو أن تبلغوا توفيق باشا بأن الحكومتين الفرنسية والانجليزية تعتبران أن تثبيت سمو الخديو على العرش طبقا لأحكام الفرمانات التي قبلتها الدولتان رسميا هو الضمان الوحيد في الحال والاستقبال لاستتباب نظام وتقدم وسعادة مصر ورفاهيتها ، وهي الأمور التي تنظر إليها فرنسا وانجلترا بعين الاهتمام ، والحكومتان متفقتان اتفاقا وطيدا على بذل جهودهما المشتركة لمقاومة كل أسباب المشاكل الداخلية والخارجية التي قد تهدد النظام القائم في مصر ، ولا يخامرهما شك في أن الجهر بعزمهما في هذا الصدد سيكون له اثره في انتفاء الأخطار التي يمكن أن تستهدف لها حكومة الخديو . . ومن المحقق أن هذه الأخطار ستلقى من فرنسا وانجلترا اتحادا وثيقا للتغلب عليها وتعتقد الحكومتان أن سمو الخديو يجد من هذه التأكيدات الثقة والطمانينة والقوة التي هو في حاجة اليها لإدارة شئون الشعب المصري والبلاد المصرية ، » .

وقابل الشعب المصري المذكرة الاستعمارية بالسخط العام في حين قبلها الخديو شاكرا بطبيعة الحال . .

وأرسلت فرنسا وانجلترا أسطولا الى الاسكندرية للقيام بمظاهرة عسكرية تأييدا للخديو وتهديدا للثورة .

وأخذت الصحف التي كانت تمويلها القنصلية البريطانية في نشر المقالات العنيفة ضد عرابي والحركة الوطنية .

وفشلت كل المحاولات التى بذلت لابعاد عرابى واسقاط الحكم الوطنى ، وبدأ التمهيد للتدخل العسكرى الاستعمارى بعد أن لمس الرأسماليون الاوربيون اصرار الحكومة الوطنية على مراقبة الميزانية .

الرجعية فى الداخل

وقف كبار ملاك الاراضى فى مصر بجانب الثورة العرابيه عندما أحسوا أن أملاكهم مهددة بالضياح أمام زحف القروض الأجنبية وزيادة الضرائب لسداد الأرباح . .

وكان يمثل هذه الجبهة شريف باشا وسلطان باشا . .

كان الاستعمار يرسم ويخطط للفصل بين العناصر المدنية والعناصر العسكرية فى الثورة . . وكان السير أوكلندا كلفن يأمل أن تكون العناصر المدنية فى الحركة الوطنية أكثر اعتدالا وأسلم قيادا من الجيش ، وأنه إذا تحقق هذا الأمل وأمكن التخلص من الجيش وقواده بوسيلة من الوسائل أمنت عواقب الثورة .

وكان يرى أن ليس فى هذه الخطة شيء مستحيل التنفيذ ، فان الحزبين اللذين قاما بالحركة الوطنية كانا يمثلان فى الحقيقة طبقتين مختلفتين متضادتين فالأعيان يكونون طبقة الملاك الموسرة ومعظمهم من الأتراك والشراكسة ، أما الجيش فرجاله من الفلاحين .

وشريف باشا نفسه كان تركى الأصل ومن أغنى أغنياء مصر ، لذلك كان آخر ما يرغب فيه أن يدافع عن حقوق الفلاحين ،

على حين كان ضباط الثورة يخطبون في الفلاحين ويؤكدون لهم ان الاراضى التى يمتلكها الاثرياء من حق الفلاح .

وظهرت بوادر خيانة الرجعية عندما أكد شريف باشا للسير ادوارد مالت أنه ينوى « فى المستقبل دعوة مجلس شورى النواب للانعقاد ، وأنه يأمل أن يصبح هذا المجلس الممثل الشرعى لحاجات مصر الداخلية ، وبذلك تزول عن الجيش الصفة التى انتحلها لنفسه فى الحركة الأخيرة » .

وكشف شريف باشا عن حقيقة موقفه من الشعب ، بعد أن رفعته الثورة وجعلت منه رئيسا للوزارة الوطنية ..

وظهر الخلاف الشديد بين شريف باشا وعرابى عندما صدر الأمر العالى بعقد مجلس شورى النواب ، فان « شريف » كان يريد أن ينتخب المجلس على القاعدة الضيقة : قاعدة عام ١٨٦٦ التى لا تسمح بممثلين جدد لطبقات الشعب ، وكان عرابى يصر على تنفيذ قانون الانتخاب الأكثر ديمقراطية والذى وضعه شريف باشا نفسه فى الأشهر الأخيرة من عهد اسماعيل ، والذى حال عزل اسماعيل دون تنفيذه ، ولا شك أن « عرابى » كان على حق ، فمن العدل أن يبدأ النظام الجديد الذى أقامته ثورة ٩ من سبتمبر بترقية النظم السياسية بحيث تقف سدا فى وجه التدخل الاوربى ، ودافع عرابى عن رأيه بمنتهى الشدة وأيده كثير من الأعيان ، ولكن « شريف » لم يتراجع عملا بنصيحة المراقب البريطانى السسير اوكلند كلفن .

وظهر موقف شريف باشا المتردد والمتخاذل عند وضع القانون الاساسى لتحديد سلطة البرلمان ، وقرر شريف بعد استشارة المراقبين الاجانب ، ألا يكون للمجلس اختصاص البحث فى جزية

الباب العالى والدين العام ، وكل النفقات التى فرضها على الخزانة
قانون التصفية وغيره من اتفاقيات الديون والقروض الدولية . .

ورفض مجلس النواب هذه اللائحة ، واجتمع النواب ووضعوا
لائحة جديدة ، نصت على عرض الميزانية على مجلس النواب لبحثها
ومناقشتها ، وقام وفد من النواب وتوجه الى سراى عابدين وطلب
من الحديو تشكيل حكومة لاقرار اللائحة الجديدة .

واستقال شريف . . وانفصل عن الثورة ، بعد أن لجأ الى
القنصلين الانجليزى والفرنسى يطلب منهما تقديم احتجاج على
موقف مجلس النواب . .

رجل آخر اسمه محمد سلطان باشا . .

بدأ سلطان حياته فلاحا بسيطا فى نواحي المنيا ، واستطاع
تحت حكم اسماعيل أن يصل الى المناصب العليا ، على الرغم من
عدم حصوله على التعليم الكافى ، وأصبح مفتشا عاما على الوجه
القبلى واستطاع أن يستغل منصبه فى الاستيلاء على مساحات
شاسعة الاطراف من الاراضى فى مديرية المنيا ، بحيث أصبح من
كبار اعيان البلاد ، ان لم يكن عميدهم ، وكان سلطان ينتهج أسلوبا
انتهازيا منذ بداية الثورة . . أقام علاقات سرية مع الحديو ، وتظاهر
بتأييد الثورة فاختر رئيسا لمجلس شورى النواب ، وظل يترقب
الفرصة حتى استطاع أن يغرى بعض النواب بالانشقاق على
الثورة . . ولكن غالبية المجلس ظلت على ولائها للثورة .

وحاول سلطان أن يستميل بعض الوزراء الى صفه بجيث
يستطيع عزل عرابى والبارودى ، ثم تنحيتهما عن الحكم ولكنه
فشل .

وحدث العدوان . . وانضم سلطان الى صفوف القوات
الانجليزية ، وكان على رأس الحيانة . .

وعلى أثر وصول الأسطول البريطانى الى ميناء الاسكندرية انقسم النواب ، وانضم العدد القليل من الأنرياء والاقطاعيين الى صفوف الحديو والانجليز ..

سلطان تركيا :

كانت تركيا تمثل الاستعمار المتخلف الذى يكتفى بالحصون على الجزية والرشوة والهدايا .. وكان السلطان ورجال حاشيته يبيعون الالقاب والنياشين لأمرء مصر وأثريائها .

وظلت تركيا على حالتها من التخلف ، ولم تقم فيها صناعات او رءوس اموال تنافس الشركات والراسمالين الاوروبيين. وأطلق على تركيا فى ذلك الوقت لقب « الرجل المريض » .. وكانت الدول الاستعمارية تترقب وفاة هذا المريض لترث التركة وتوزع دول الخلافة بينها ..

ووقف السلطان من الثورة العربية موقفا عدائيا ولو أنه فى نفس الوقت كان فى خوف من احتلال انجلترا وفرنسا لمصر ..

وفكر السلطان فى إرسال جيش احتلال ليعيد نفوذ الخلافة سيرته الأولى قبل محمد على ، ولكن انجلترا وفرنسا حالت دون تنفيذ الفكرة ..

وأخيرا- أوفد السلطان وفدا الى مصر دون علم الدول الاوروبية وكان هدف البعثة ، تأكيد سلطان الحديو وتصفية الثورة وحل مجلس شورى النواب والقبض على الوطنيين ..

ووصلت البعثة الى الاسكندرية وطلب رئيسها من المصريين اطاعة الحديو ممثل السلطان ، ولكن البعثة أدركت أن الشعور العام فى صف عرابى .. ثم حاولت استمالة رجال الازهر فردوا عليهم

بعنف ، ووقف أحد شيوخ الأزهر امام البعثة منددا بموقف الخديو
توفيق وطالب بعزله ..

وفى اليوم التالى قام طلبة الأزهر بالمظاهرات تأييدا لعرابى
ضد السلطان ..

وعادت البعثة الى تركيا بعد أن نال رئيسها من الخديو ٥٠
ألف جنيه رشوة وهدايا ذهبية ..

وكشف الاستعمار القديم عن وجهه ، عندما هبطت القوات
الانجليزية فى الاسكندرية .. وأمام ضغط بريطانيا وافق السلطان
على اعلان « عصيان عرابى » .

وهاج الرأى العام العربى والاسلامى ، وأرسلت خطابات
مجهولة الى السلطان تهدده بالخلع ، وفى الآستانة قام شيوخ
المساجد بالدعاء لعرابى فى خطبهم .. ودعا أحد الخطباء الى حمل
السلاح دفاعا عن مصر ..

وأراد السلطان أن يصفى الموقف فى مصر عن طريق العلماء ،
فكتب اليهم يطلب منهم أن يمنعوا المصريين من ارسال المؤن
والمبتوعين الى عرابى ، وأن يقنعوا عرابى بالقاء السلاح باسم
الشريعة ، ورد ثلاثة من كبار علماء الأزهر على السلطان يعذرونه
من هذه السياسة ويقولون له انهم انما يطيعون أوامره وأوامر
الخديو طالما أنها تتمشى مع أحكام الشريعة ، وأنهم سيعتبرون
« عرابى » قائدا عاما للقوات المصرية ، طالما أن أعماله تتمشى مع
الشريعة وأن المصريين لن يلقوا السلاح ، الا اذا انسحب الانجليز من
الاسكندرية ، وأنهم مجمعون جميعا على المطالبة بخلع توفيق ، وعلى
أن القضية المصرية ليست متصلة بشخص عرابى بل بخلاص
البلاد ..

وسافر أحد علماء الأزهر الى دمشق مندوبا عن عرابي وقابله معظم العلماء واعيان المدينة وجماهير الشعب السوري بالتأييد والدعاء لعرابي ..

وظلت الغالبية العظمى من رجال الأزهر وشيوخه على ولائها للثورة باستثناء اقلية كان على رأسها شيخ الاسلام محمد العباسي الذين ظلوا سندا للخديو وتلقوا مقابل ذلك الهدايا والنياشين من السلطان ..

وقررت الغالبية العظمى من العلماء خلع الشيخ محمد العباسي من منصبه وتنصيب الشيخ محمد الانبأبي شيخا للاسلام وكان يمثل رجال الأزهر المتحررين ويعبر عن وجهة النظر القومية .
واصدر علماء الأزهر فتوى بأنهم لن يطيعوا السلطان اذا ما انضم الى الأوروبيين .

وأعلن الشيخ عليش أحد علماء الأزهر فتواه بأنه لا يصح أن يكون توفيق حاكما بعد أن باع مصر لأعدائها واتباعه نصائح الانجليز ، ولذلك وجب عزله ، وأن مصر تؤيد « عرابي » ..

خيوط المؤامرة :

كشفت سنوات الثورة عن أعداء الشعب المصري ، كما كشفت عن أصدقائه ..

وقف أصحاب المصالح المشتركة معا .. تركيا التي كانت تنهب جهد وقوت الشعب بأخذ الجزية والهدايا والرشاوى .. انجلترا وفرنسا والنمسا الذين كانوا يمثلون دول الاستعمار الجديد في ذلك الوقت وكان هدفهم سيطرة الشركات وأصحاب رؤوس الأموال الأجانب على ميزانية الشعب المصري ، ثم الخديو والاقطاعيون

الذين ابتزوا دم الشعب وسكبوه في ملذاتهم وشهواتهم وأقاموا القصور وعاشوا حياة البذخ على حساب الشعب .

ومنذ اليوم الاول لقيام عرابي أيد سلطان تركيا تشييعت توفيق على العرش .

وكما يقول محمود الحفيف في كتابه « أحمد عرابي » :

« كان توفيق يسلك تجاه الثورة العرابية مسلك لويس تجاه الثورة الفرنسية ، مع فارق واحد وهو أن الحديو ، كان من ورائه الانجليز . فلما لجأ اليهم توفيق لم يقض هذا العمل عليه ، وانما قضى على مصر . . »

ألقى الحديو بنفسه في أحضان الانجليز منذ استعان بالمراقب الانجليزي لمواجهة مظاهرة عابدين العسكرية . .

وظل توفيق على اتصال دائم بقناصل انجلترا وفرنسا يطمعهم على المطالب العرابية والازمات الوزارية ، ويأذن لهما بمصاحبتة وهو يستقبل الوزراء .

وحاول توفيق أن يضرب الثورة بمؤامرات الاغتيال والدس ، كما حاول استغلال سلطاته ، فأقال شريف باشا ثم تراجع . . وأقال وزارة البارودي ، ولكنه كان أضعف من أن يحقق سلطانه . . وعزل « عرابي » من وزارة الحربية ، فقامت جماهير الشعب ، والهيئات ، ورجال الدين الاسلامي والمسيحي وكل الطوائف وأعادت « عرابي » . .

وتأكد الحديو توفيق أنه أضعف من أن يواجه الشعب وحده ولجأ الى أحضان الانجليز . .

وقام كلفن العضو الانجليزي في لجنة المراقبة المالية بتخويف

توفيق من السلطان والعرايين ٠٠ كما قام كلفن ومالت القنصل البريطاني بتضليل الرأي العام في الداخل والخارج ، بالسيطرة على الصحف والصحفيين الأجورين ، وكان كلفن نفسه مراسلا لحدى الصحف ، وكان مراسل التيمس يستقى منه المعلومات ، أما شركنا روتر وهافاس فقد كانت كل منهما تعطي ألف جنيه في العام من خزانة مصر ! ٠٠

وعلى اثر مظاهرة ٩ من سبتمبر ، كتب كلفن تقريرا قال فيه:

« أرى أن ليست الحالة الحاضرة بطبيعتها الا هدنة وأن ما وصلنا اليه من التسوية ليعطينا مهلة نستجم فيها ونلم فيها بالقوى التى تعمل حولنا ونسعى فى الاستفادة منها أو القضاء عليها » .

وفى ديسمبر عام ١٨٨١ ، اتصل وزير خارجية إنجلترا اللورد جرنفل بوزير خارجية فرنسا ليون غمبتا وطالبه بتضامن الدولتين فى العمل ازاء ما يحدث فى مصر .

وأرادت إنجلترا أن تمنع مجلس شورى النواب من النظر فى الميزانية ، وكتب القنصل البريطانى الى وزير خارجيته :

« ان التدخل المسلح سـيـصـبـح أمرا ضروريا ومحتوما اذا تشبثنا بمنع المجلس من التصويت على الميزانية ٠٠ »

وبدأت الدولتان تعدان العدة للتدخل المسلح والعدوان على مصر .. وأرسلت الدولتان مذكرة الى الحكومة الوطنية تطالبان فيها بأبعاد عرابى من مصر ، وإرسال على فهمى وعبد العال بعيدا عن القاهرة واستقالة الوزارة ..

وجاء فى الانذار أن هذه المطالب تقدم بناء على وطنية سلطان باشا ! ٠٠

وهكذا التقت الدول الاستعمارية والحديث وسلطان باشا ..

ورفضت الحكومة الوطنية مذكرة القوى الاستعمارية ..

كان الصراع يجري بسرعة وعنف .. وأدت التناقضات دورها.
بين القوى الرجعية .. ووجدت تركيا نفسها بعيدا ، بعد أن مهدت
لإنجلترا وفرنسا تدخلهما .. ثم بدأت إنجلترا ترسم لابعاد فرنسا
.. انه صراع الرأسماليين على اقتسام الاسواق والغنيمة من عمليات
النهب .. وحاولت فرنسا أن تحتفظ بالنفوذ الأكبر لها في مصر ..
وكتبت « التيمس » اللندنية ترد على الاشاعة القائلة بأن
إنجلترا وفرنسا على وشك اعلان حمايتهما المشتركة على مصر ،
يقول :

« ان فكرة احتلال انجليزى فرنسى لمصر لا تلقى استحسانا ،
ان طول عهدنا بالادارات الثنائية التى يقف فيها تنافس الرؤوس
عقبة فى سبيل التقدم يجعلنا نشك فى استقامة العمل مع مثل هذا
الاشتراك .. كذلك يتساءل الناس ، ماذا لفرنسا من المصالح
الحقيقية فى مصر ؟ .. لا شك أن مصرفا من مصارف باريس
الكبرى قد تورط فى اقراض مصر ، ولكن خمس سنين من الحماية
الانجليزية كفيلة بنجاته من ورطته » .

وهكذا لم يعد الحديث عن احتلال مصر مغلفا بكلمات السلام
أو حماية الحديث أو استتباب الأمن بل أعلنت الدوائر المالية
الانجليزية اهدافها الحقيقية وهى أنها قادمة لجباية الضرائب وجمع
الأموال لسد نهم الرأسماليين فى إنجلترا وفرنسا وتسديد
أرباحهم وأقساط قروضهم ، وفتح الأبواب أمام الشركات وجعل
مصر سوقا لبضائعهم ورؤوس أموالهم ..

وحاولت إنجلترا تهدئة الحالة لتنفرد بالعمل ، وبعد أن تقرر

ارسال سفن فرنسية وانجليزية ، عادت انجلترا وسحبت هي
وفرنسا قطعهما البحرية بعد أن ظلت ٢٤ ساعة في ميناء
الاسكندرية ..

وكانت كلما اشتدت التهديدات والانذارات الاستعمارية من
جانب فرنسا وانجلترا ، كان أعضاء مجلس شورى النواب يتمسكون
بحقوق الشعب ، وكانت الجماهير تعلن تأييدها لعرايى وتنادى
باسقاط الحديو ورفض الانذارات والتهديدات ..

وقد أقر مجلس شورى النواب لائحة المجلس الجديدة وكان
من أهم مواد القانون الجديد :

• المادة التى تنص على « أن للنواب حق مراقبة أعمال الموظفين
العموميين فى دور انعقاد المجلس » •

• والمادة التى تنص على أن كل معاهدة أو تعاقـد بين الحكومة
وطرف آخر وكل امتياز أو التزام ، لا يكون قانونيا الا بعد موافقة
المجلس •

وكان هذا اسوا نذير للموظفين الأوروبيين الذين لم يكن لهم
فى مصر غير السلب والنهب •

وأخذ المجلس فى تطبيق هذه المواد ، وأرسل القناصل
تقاريرات تصف « الاضطراب الذى بدأ ينتشر » •

وامام الأخطار ازداد تحالف قوى الشعب ترابطا ، واندفعت
جموع البوليس ورجال الجيش والعمال والفلاحون الى جانب الثورة •

موقف الثورة :

حاولت الثورة أن تحدد موقفها من أعدائها فى الداخل والخارج
بعد أن تبين لها موقف القوى المعادية ..

وناقش رجال الثورة مع علماء الأزهر فكرة اقصاء الحديو
واسقاط الحكم الملكي وعلان الجمهورية .. فاعترض العلماء ،
ويذكر الشيخ محمد عبده أن الوطنيين وجدوا بعض العلماء غير
مستعدين تماما لهذه الفكرة ، وأنهم كانوا متخلفين عن زمن الثورة .
كما كان من الصعب ضرب قوى الرجعية التركية على حين أن
عددا كبيرا من ضباط الجيش من الأتراك والشراكسة ..

واعتمد عرابي على قوة الثورة ، وموقف الطبقة الوسطى
داخل مجلس شورى النواب وتأيد الجماهير فى تدعيم الثورة
والسير بها الى الامام ..

وكان فى استطاعة عرابي أن يحقق اهداف الثورة ، لو أن
القوى الاستعمارية لم تتدخل وتخلق هذا الترابط بينها وبين
القوى المعادية فى الداخل ..

ولم تكن هناك قوى خارجية تؤيد « عرابي » ، فلم يجد حوله
قوى صديقة ، بل كان العالم فى ذلك الوقت تتقاسمه الدول
الاستعمارية وتوزع الاسلاب وتتنازع على الاسواق ، وتزحف
بشركاتها ورعوس الاموال ..

.. ووقف الشعب المصرى ، امام الثورة المضادة بكل قواها
.. قوى الاستعمار المالى من الخارج وقوى الرجعية من الداخل ..
وأوشك الشعب على الانتصار .. ولكن اللحظة الحاسمة لم
تكن قد أتت ..

وجاء العدوان ..

كان الهدف من العدوان ، هو التخلص من عرابي والحكومة
الوطنية وحل مجلس شورى النواب .. لاعادة الرقابة الأوربية على
الميزانية ، وضمان سداد الأرباح والقروض ..

وكانت الدول الاستعمارية تدرك ، أنه طالما بقي عرابي على رأس الثورة ، فلن يحققوا أهدافهم من نهب الخزانة المصرية ، وفرض الضرائب على الفلاحين .. فالثورة تمضى فى طريقها من انتصار الى انتصار ..

وأعلن عرابي ..

« لتتأكد انجلترا أن أول بندقية تطلقها على مصر سيستحرر المصريين من كل المعاهدات والاتفاقيات ، ومعنى ذلك انهاء الديون والرقابة .. سندمر قنواتنا ونقطع مواصلاتنا ، وتم الاتفاق مع الزعماء المدنيين فى كل بلد فى سائر أرجاء العالم الاسلامى ، واني أحذر مرارا وتكرارا من أن أول ضربة توجهها بريطانيا أو حليقاتها الى مصر ستتسبب فى اسالة الدماء انهارا فى طول آسيا وأفريقيا وعرضهما » .

وهدد عرابي بحرق المدن ، كما أحرق الروس موسكو فى عام ١٨١٢ أمام زحف نابليون ، وكما قطع الهولنديون قنواتهم عام ١٦٧٤ .

وعلق الكاتب الانجليزى بلنت صديق عرابي على هذا القراز بقوله :

« ان هذا هو القرار اليائس الأخير الذى اتخذه شعب يرى نفسه مهددا بخضوعه مرة أخرى للعبودية » .

ولكن « عرابي » لم يستطع أن يحقق تهديداته وقراراته بعد أن طعنه السلطان باسم الدين وأعلن عصيانه ، فتحطمت وحدة القوى الاسلامية ، كما تأمرت قوى الحيانة والرجعية فى الداخل وتحالفت مع قوى العدوان ، واستسلم عرابي بعد أن وجد نفسه وحيدا مع الشعب ضد العدوان والتآمر ..

ولكن الشعب لا يموت .. فليست الثورة الا حلقة من سلسلة معارك سابقة وانتصارات قادمة ..

الفصل السادس

« كان مثل يتالم

كان سرا مفلقا لا يتكلم

كان يعلم :

انه لا بد هالك

وستبقى بعده الشمس هنالك

في ليالي بعثها شمس الجزائر

تلد النائر في اعقاب نائر . -

عبد الوهاب البياتي.

العدوان الاستعماري

العدوان وما زال الوسيلة البدائية لتحقيق أهداف
الانسان المتخلف .. فلا يكفي التقدم الصناعي أو
العلمي لخلق الانسان المتحضر ، بل هناك الشعور
الانساني الذي يكمن في الايمان بالمساواة والاخاء والحب

كان

المتبادل ..

ولكن الرجل الذي يجعل أهدافه جمع الثروة والثراء ولو على
أشلاء الأطفال وجثث النساء ودماء الشعوب ، وجوع الملايين ...
مثل هذا الانسان يحطم كل شيء في سبيل نزواته .
ومنذ ظهرت النزعة الرأسمالية واتجهت الى التوسع
والاستعمار ، وشعوب العالم تتمزق تحت وابل الرصاص وانفجار
القنابل ووحشية أعمال القتل ..

مؤامرة قلعة

واجهت الثورة العربية العدوان .. أرسل الحديو مبعوثا
خاصا الى أوروبا يستعدي الدول الكبرى على الحركة الوطنية ،
ويطالب بالتدخل الأوروبي المسلح ، مفضلا أن يكون هذا التدخل
انجليزيا ..

ولم يكن الحديو في حاجة الى السقوط في هذه الفعلة الشنعاء ،
فان انجلترا كانت تدبر للعدوان دون وسيط .. وأرسل قنصلها
في مصر مستر مالت الى لندن يقول :

« اننى أرى ضرورة حدوث ارتباكات حادة قبل الوصول الى
أى حل شاف للمسألة المصرية ، وأنه من الحكمة التعميل بهذه
الارتباكات بدل محاولة تأخيرها » .

ولكى تحدث هذه الارتباكات ، قام مالت بالاتفاق مع القنصل
اليونانى بتسليح الجاليتين اليونانية والبريطانية فى الاسكندرية ..
وفى ١١ من يونيه تعرضت الاسكندرية لمذابح دامية بين
الوطنيين والأجانب قتل فيها عدد كبير من الجانبين .
وأعلن فى مجلس العموم البريطانى فيما بعد أن هذه المذبحة
دبرت بالاتفاق بين الحديو ومحافظ الاسكندرية ..

وذكر الشيخ محمد عبده فى مذكراته أن الحديو وقت الحادث
أبرق الى محافظ الاسكندرية أن يستعين بجنود من الأسطول
البريطانى ، لا بفرق من الجيش المصرى ؛ كأننا يستعجل توفيق
الاحتلال ويخشى أن تفلت الفرصة من يده . ويقول الشيخ
محمد عبده :

« وفى يوم الحادث توجهت الى السراى فرأيت موظفيها فى جذل
عظيم مما حدث وكانوا يبالقون فى رواية الأخبار ويضحكون من
عهد عرابى بالمحافظة على الأمن العام »

وأعلنت انجلترا أنها لا تثق فى استتباب الأمن والنظام ..
وهكذا توافرت الفرصة لانجلترا لتحقيق سياستها
الاستعمارية .. وادعى قائد الأسطول البريطانى الذى كان يربط
فى الاسكندرية أن السلطات العسكرية فى مصر تقوم بتحسين
طوابى الاسكندرية وسد مداخل المدينة خلف الأسطول البريطانى .
وفى ١٠ من يوليو أنذر القائد البريطانى بأنه سسيضرب

الاسكندرية بعد مضي ٢٤ ساعة ، اذا لم تسلم قلاع الاسكندرية ليجتليها وينزع سلاحها ٠ وبلغت انجلترا الدول بهذا القرار وذكرت أن ضرب الاسكندرية انما هو دفاع شرعى عن النفس ! ٠

وقرر عرابي رفض طلب القوائد البريطانى ووافقه مجلس الوزراء ٠٠ وذكر عرابي فى مذكراته :

« تقرر بالمجلس المذكور بأنه لا يمكن اجابة طلب الأدميرال المذكور لما فى ذلك من الخزي والعار الذى يلحق بالمصريين الى الأبد حيث ان الاستحکامات والطوابى المذكورة ما أنشئت الا لحفظ الثغور والعساكر وما وجدت الا للدفاع عن الوطن العزيز والذود عن حياضه ، فلا يجوز لهم أن يخربوا معاقلهم بأيديهم لمجرد طلب العدو الطامع فى بلادهم ، بل الواجب عليهم أن يدافعوا عن بلادهم ويقوموا بما تحتمه عليهم واجباتهم الحربية الى آخر رمق من حياتهم دفاعا عن شرف الوطن ٠٠ » ٠

وكان الحديو قد هرب من القاهرة الى الاسكندرية وفى تلك الليلة انتقل من سراى رأس التين فى موكبه الرسمى الى سراى الرمل وبقي بها حتى تم الاحتلال وعاد الى سراى رأس التين وتلقاه الأدميرال الانجليزى ووضع البوارج على مقربة من القصر لحمايته ٠

وعندما سأل أحد الضباط المصريين ، الحديو توفيق عن رأيه لو ضرب الانجليز الاسكندرية ٠٠

فرد الحديو :

« فلتحرق المدينة جميعها ولا يبقى فيها طوبة على طوبة ، حرب بحرب ، كل ذلك يقع على رأس عرابي ، وعلى رعوس أولاد الكلب الفلاحين ٠٠ » ٠

وفى الساعة السابعة من صباح ١١ من يوليو عام ١٨٨٢ ،

أطلق الأدميرال البريطاني أولى قذائفه على مدينة الاسكندرية ..
وظل تبادل النيران مستمرا بين قطع الأسطول وقلاع
الاسكندرية من الساعة السابعة صباحا حتى الواحدة والنصف وكان
الدفاع حتى تلك اللحظة رائعا ..

ثم استأنف الاسطول الضرب بعد الثانية واستمر يرسل
قذائفه الوحشية على القلاع والبيوت ، واندلعت النيران ..
ووقف الشعب مع جنوده في بطولة رائعة يدافع عن مدينته
ويذكر عرابي في مذكراته :

« وفي أثناء القتال تطوع كثير من الرجال والنساء في خدمة
المجاهدين ومساعدتهم في تقديم الذخائر الحربية واعطائهم الماء
وحمل الجرحى وتضميد جراحهم ونقلهم الى المستشفيات » .
وقال الشيخ محمد عبده :

« تحت مطر الكلل ونيران المدافع كان الرجال والنساء من
أهالى الاسكندرية هم الذين ينقلون الذخائر ويقدمونها الى بعض
الطوبجية الذين كانوا يضربونها ، وكانوا يغنون بلعن الأدميرال
ومن أرسله » .

وقال محمود فهمى باشا :

« ورأيت في ذلك الوقت بعينى ما حصل من غيرة الأهالى بجهة
رأس التين وأم كبيبة وطوابى باب العرب ، وهمتهم فى مساعدة
عساكر الطوبجية من جلبهم المهمات والذخائر وخراطيش البارود
والمقذوفات هم ونساؤهم وأولادهم وبناتهم ، والبعض من الأهالى
صار يعمر المدافع ويضربها على الأسطول » .

وظل رجال المدفعية المصرية يطلقون قذائفها فى حماسة
أدهشت خصومهم كما قال جون نيينه .

ولكن قذائف المدافع المصرية ، كانت تسقط في البحر في منتصف المسافة بينها وبين سفن الاسطول ، وعلى الرغم من ذلك أصابت المدفعية سبع مدرعات أصابت بعضها خطير وبعضها ضئيل ..

ويصف جون نينيه أحداث ذلك اليوم قائلا :

« لقد أدى الجميع واجبه رجالا ونساء كبارا وصغارا ولم تكن ثمة أوسمة أو مكافآت تستحق أولئك الفلاحين على أداء واجبه ، وانما كانت تثير الحماسة في نفوسهم عاطفة الوطنية والثورة على ما استهدفوا له من فظائع ..

ويقول جون نينيه :

« وقد مرت من فوق سطح المنزل الذي كنت أقيم به بالقرب من محطة الرمل خمس قذائف من رسائل « الانسانية الغربية » ، أصابت احداها مدرسة فدمرتها ، وأصابت ثلاث بعض قصور الأغنياء ، وقتلت الخامسة أحد عشر شخصا ..

ووقف الضرب في الساعة السادسة مساء .. وقد بعث الأدميرال الانجليزى ، الموت والدمار في أنحاء المدينة ، وقتل النساء والأطفال ليحمى أرباح وأقساط المالكين الانجليز ..

وقرر عرابى اخلاء الاسكندرية من الجيش ليباعد بقواته عن نيران مدافع الاسطول .. وتراجع الى كفر الدوار لاقامة تحصيناته .
أما الحديو ، فقد عاد من الرمل الى الاسكندرية في نفس القطار الذى أرسل اليه ليعود الى القاهرة .. ووضع نفسه صراحة تحت حماية الأدميرال الانجليزى ..

قوة الشعب

أرسل الحديو الى عرابى يطلب منه الحضور الى الاسكندرية مع قوات الجيش لتسلم المدينة من الأدميرال الانجليزى. وكانت الرسالة خدعة مكشوفة ، وكان هدف الحديو منها القبض على عرابى وتسليمه الى الانجليز ..

وأدرك عرابى الخدعة .. فأصدر الحديو قرارا بعزل عرابى من منصبه .. ورد عرابى بأن أرسل برقية الى جميع المديریات والمحافظات يعلن للشعب فيها انضمام الحديو الى الانجليز ، ويحذره من اتباع أوامره ، ويدعوهم الى الاستعداد وجمع ما يلزم للقتال ..

وأرسل عرابى خطابا خطيرا الى يعقوب سامى باشا وكيل وزارة الحربية فى القاهرة ، يعلن اليه فيها خيانة الحديو للبلاد ، ويدعوه الى عقد جمعية من الكبراء والعلماء للنظر فى الأمر واصدار قرار بشأن الحديو ، وفيما يجب عمله لصالح الأمة وتقرير مدى صلاحية هذا الوالى عليها .

واستقر الرأى فى القاهرة ، على دعوة مجلس من وكلاء الوزارات وبعض كبار الضباط وكبار الموظفين ، وقد انعقد هذا المجلس وعرف باسم المجلس العرفى ، وظل يدير شئون الحرب والادارة طول مدة القتال .

وقرر المجلس دعوة جمعية عامة تضم رؤساء الأديان والعلماء والأعيان وكبار موظفى الدولة والتجار ، وشهدت القاهرة أروع اجتماع تاريخى ضم أكثر من خمسمائة مواطن يمثلون طبقات الشعب العامل من جميع المديریات والمحافظات ..

وتليت فى الاجتماع فتوى شرعية بأن الحديو وقد انحاز الى العدو المحارب لبلاده يعد مارقا من الدين ..

ثم قرروا عدم الاعتراف بقرار الحديو الصادر بعزل عرابي .
والتفت جماهير الشعب حول عرابي تهتف له « الله ينصرك
يا عرابي »

ولم يهتم عرابي بقرار عزله ، ووقف في خطوط كفر الدوار
يعد قواته لصد العدوان .. وأقام خيمته وسط الجنود ، وكان يفد
اليه فيها غير الضباط واران حربيه ، الاعيان والعلماء وكبار التجار
وغيرهم من ابناء الشعب ..

.. كان عرابي رمز التخلص من جشع الاجانب واستبداد
الاتراك والاقطاعيين ..

وكما يقول محمود الحفيف في كتابه :

« قل أن نجد في تاريخ الحروب حربا كهذه الحرب التي لم
ينفق فيها قرش واحد من خزانة الدولة ، والتي قامت على بذل
الشعب طائعا من قوته وماله ودمه .. »

وكانت ترد الى كفر الدوار كل يوم اعانات الشعب من المال
والقمح والشعير والبقول والسمن والحضر والفاكهة والحيل والماشية
والجمال .. حتى حطب الحريق ..

وكتب عرابي بعد انتهاء القتال :

« ان جميع النفقات التي لزمت لمائة الف جندي مصرى في اثناء
الحرب كانت كلها تبرعات من الامة المصرية بغير تمييز بين العقائد ،
فقد بدأت الحرب ولم يكن هناك أكثر من عشرة آلاف جندي تحت
السلاح ، ولا أكثر من ألف ومائتي بدلة عسكرية في المخازن ،
وحتى هذه لم تكن كاملة ، ولم يكن لدينا أكثر من ألف وخمسمائة
عذل من الحبوب ، ولكنه عند نهاية الحرب كانت لدينا في مستودعات
الجيش وفي المديريات المختلفة والمخازن ما يزيد قيمته على مليون
من الجنيهات من المال والمنتجات الزراعية والبقر والجاموس والغنم
والاقمشة . وكل ذلك قدم هدايا من الامة للجيش المدافع عن

وطنها ٠٠ ولم ينفق على الجيش فى أثناء القتال درهم واحد من خزانة الحكومة ٠٠

وانضمت الى الجيش النظامى آلاف من المتطوعين ، كانوا أضعاف الجيش الرسمى ، ووزعوا على أعمال مختلفة تتصل بالجهد الحربى ٠٠

انتصار كفر الدوار

قام عرابى بسد ترعة المحمودية ليمنع المياه العذبة عن القوات الانجليزية فى الاسكندرية ٠٠

وفى ٥ من أغسطس بدأ الانجليز هجومهم ، وزحفوا من الرمل بقيادة الجنرال اليسون وتصدت لهم القوات المصرية وبعد ثلاث ساعات ونصف اضطر الانجليز الى التقهقر وفروا عائدين الى الاسكندرية مهزومين ٠٠

وفى اليوم التالى عادت القوات الانجليزية بعد أن ضاعفت عدد الجنود ٠٠ وقابلتهم القوات المصرية وتبادل الجيشان اطلاق النار ، ثم تقارب الجيشان واختلطت القوات وبدأ قتال بالسلاح الأبيض ٠٠ وأظلم الليل وشعر الانجليز بضعف مقاومتهم وانسحبوا الى الاسكندرية والقوات المصرية تطاردتهم حتى اختفوا فى الظلام ٠٠٠ واستشهد من المصريين ٢٩ جنديا وضابطا ٠٠٠ وترك الانجليز وراهم فى ميدان المعركة ١٧ قتيلًا وشوهد عدد من الانجليز يحملون قتلاهم وجرحاهم ، كما لوحظ فى اليوم التالى للمعركة أن آثار جر الموتى ظاهرة فى أكثر من مكان ٠٠

وعجز الانجليز عن زحزة المصريين عند كفر الدوار أو اختراق خطوطهم . فانظروا وصول الامدادات ٠٠

وأرسل الحديو يهنئ الانجليز على انتصاراتهم ! وفي الوقت نفسه أصدر بلاغا يحذر فيه المصريين من مشايعة عرابي ، ورماء بالعصيان والثورة وتوعد كل من يؤيده بالعقاب ..

وتوالت الامدادات على القوات الانجليزية في الاسكندرية ، فوصل ١٤ ألفا من المشاة و ٣ فرق من الفرسان وألف من رجال المدفعية وخمسمائة من المهندسين ..

وفي ١٩ من أغسطس أعاد الانجليز محاولة الهجوم على كفر الدوار بقيادة الجنرال ولسلي الذي جاء خصيصا من انجلترا لقيادة العدوان ..

وزحفت القوات الانجليزية في هذه المرة بقوات ضخمة نقلتها القطارات المسلحة ، كما تقدمت قوات أخرى من جهة الرمل ... والتحم الجيشان ودارت معركة عنيفة استمرت ثلاث ساعات حتى غربت الشمس .. وارتد الانجليز بعد أن خسروا عددا كبيرا من قواتهم ..

وأعاد الانجليز هجومهم ثلاثة أيام متتالية، كانت المعارك فيها حتى غروب الشمس ، وكان المصريون يردونهم كل يوم الى الاسكندرية بعد دفاع قوى مجيد ..

وأدرك الانجليز أنهم لن يستطيعوا اختراق تحصينات كفر الدوار ، فبدؤوا في الاعداد للانتقال الى ميدان آخر ..

وفي نفس الوقت ، أصدر الحديو توفيق منشورا الى ضباط وجنود الجيش يدعوهم فيه الى طاعة ولسلي وأوامره ، كما لو كانت صادرة من توفيق .. « فمن يخضع له فكأنه خضع لنا شخصا ، ومن خالفه كان عاصيا لنا ويعامل معاملة العصاة .. » ،

كما وجه الحديو الى الشعب بلاغا قال فيه : « ان العساكر

الانجليز يعدون في هذه الحالة ناثين عنا في قطع دابر المفسدين
وتطهير البلاد منهم ٠٠ » .

ولكن الشعب كان يزداد ايمانا بشورته ٠٠ ويزداد تمسكا
بزعيمه وقائمه ٠٠

احتلال القناة

قرر الانجليز نقل المعركة ومهاجمة مصر من ناحية الشرق ٠٠
وفكر بعض زعماء الثورة في ضرورة ردم قناة السويس ٠٠
وأرسلت انجلترا الى الدول الكبرى تخبرها أن تلقت أنباء
مزعجة ، مؤداها ان خططا وضعت ضد القناة نفسها ، وتسألها عن
علاج الحالة التي قد تفضي الى كارثة بالتجارة الدولية ٠٠

وتبادل عرابي وديلسبس الرسائل ، وادى ديلسبس دورا
قدرا ، فأرسل الى عرابي تلغرافا قال فيه « يستحيل أن يدخل
الانجليز القناة ٠٠ يستحيل » .

وكان هدف ديلسبس أن يفوت على عرابي سد القناة ٠٠٠
ووصل الأسطول البريطاني واحتل بورسعيد ثم تقدم الى
الاسماعيلية واحتلها ، وجعلها قاعدة لزحفه ، ووضعت بارجة عند
مدخل القناة لمنع مرور البواخر التجارية .

لم يكتف الانجليز باحتلال القناة ، بل استعانوا بسلطان
باشا على رشوة البدو القاطنين غربى القناة بين الاسماعيلية
والصالحية ٠٠ وكان سلطان باشا يرافق الجيش الانجليزى ناثبا عن
الحديو ليقدم له كل المساعدات . وأصدر الحديو أمرا بالترخيص
للقوات الانجليزية باحتلال القناة ٠٠

لم تحترم انجلترا القوانين الدولية ٠٠ ولم تتردد في جعل

القناة منطقة قتال ، وقاعدة حربية ٠٠ ومنعت مرور السفن حتى تم لها احتلالها ٠٠ ولم يكن اعتراض ديلسبس وشركة القناة على الانجليز الا عملية شكلية لمنع العربيين من سد القناة ٠٠ ووضع الحديو ستة من ضباط الجيش المصرى فى خدمة الجنرال ولسلى ، أربعة من الضباط الأجانب الذين كانوا يخدمون فى الجيش المصرى ، واثنين من الاتراك ٠٠٠ وسافر الضباط الستة من الإسكندرية الى الاسماعيلية ٠٠

وقامت المخابرات الانجليزية بدورها ، والقى القبض على اثنين من البدو عند مرورهما بالقرب من معسكر كفر الدوار ، واعترفوا بأن جنديا انجليزيا اسمه جيل حمل ثلاثين ألف جنيه من قائد الأسطول ليوزعها على البدو فى منطقة القناة ٠٠

كما قام سلطان باشا بتوزيع ورشوة الخونة بنفسه بعد أن أدرك الانجليز أن قيامهم بهذا العمل لا يفيد ، ويجعل الحيانة مقضوحة ٠٠ واستطاع سلطان باشا شراء سعود الطحاوى من البدو ، ويوسف خنفس ، وعبد الرحمن حسن قائد فرقة الاستطلاع السوارى ، وراغب ناشد وهو قائمقام فى المقدمة ٠٠

وقام عثمان بك رفعت ياور الحديو بأغراء عدد من ضباط الجيش ، وخاصة الذين كانوا من أصل شركسى وأقنعهم بأنه لا فائدة من المقاومة ، ومن الخير لهم الانسحاب من صفوف عرابى والانضمام الى الحديو قبل فوات الفرصة ٠٠

وسط هذا الجو المشحون بالحيانة والغدر والكذب والخداع ، ثبتت القوات الانجليزية أقدامها على القناة وجاءها المدد من القوات الهندية ٠٠ وتقدمت تحتل المسخوطة والمجفر والقصاصين ٠٠٠ وقاومت القوات المصرية التى كانت فى هذه الجبهة فى استبسال وشجاعة أمام قوات تفوقها عددا وعدة ٠٠

وانتقل عرابي الى الميدان الشرقي ، فسافر من كفر الدوار
بالقطار ، واستقبلته الجماهير في الزقازيق استقبالا رائعا ، وفي
مقدمتهم الاعيان والعمد والموظفون ورجال الطرق الصوفية، ورددت
الجماهير هتافها « الله ينصرك يا عرابي » .
وكان النساء والصبية على خط السكة الحديد يرددون أغنية
« يا مولانا يا عزيز أهلك عسكر الانجليز » ، وكان أحد الشباب
يهتف « الله ينصرك » وتردد الجماهير قائلة « يا عرابي .. » .

الشعب والخيانة

انطلقت الجماهير في كل مكان .. في المدن .. في القرى ..
في الشوارع .. في البيوت .. في المساجد ... في الكنائس ...
ترسل الى عرابي بالتأييد .. وتبعث اليه بكل ما تملك ..

كانت النساء تتبرع بحليهن من أجل الجيش ... والشباب
يندفعون الى معسكرات التدريب ليخوضوا المعركة .. وهرع
الشيوخ الى المساجد يدعون الله أن ينصر عرابي .

أما المراقب المالي الانجليزي ، فقد أخذ الاموال الموجودة في
خزانة المالية ، وأودعها احدى قطع الاسطول البريطاني .. وكذلك
الاموال الموجودة في صندوق الدين حملها أعضاء القومسيون الى
السفن الحربية .

ورد الشعب على هذا الفسدر بالتبرع .. وقدموا الى الجيش
ثروات طائلة .. وكان البعض يتبرع بكل ما يملك ... وآخرون
يتبرعون بنصف ما يملكون .. وتقدم الفلاحون بأولادهم الى عرابي
لعدم قدرتهم على التبرع ، ولأنهم لا يملكون سوى أبنائهم ...
وقدمت الفلاحات الاواني النحاسية .. وأخرج الشعب كل ما كان
يخزنه من حبوب أو سمن وقدمه الى الجيش ..

ويقول الشيخ محمد عبده في مذكراته :

« لقد رأيت المواطنين جميعا ينفرون الى الحرب في شوق وحمية لقتال المعتدين ، لا فرق بين فلاح وبدوى ومدنى ، وكانت الغيرة الوطنية تملأ قلوب الجميع .. وكانت شوارع القاهرة تغص في المساء بالاستعراضات العسكرية من الشبان يجولون شوارعها وهم ينشدون الاناشيد الوطنية التي تشيد ببطل الحرية ، ويهتفون للزعيم الثائر أحمد عرابي .. وفي كل اجتماع إنما كان ، وفي أى وقت حين يرد اسم البطل أو تذكر الحرب يتجه الناس بالدعاء له بالنصر على الأعداء » .

ولم تكن مصر معزولة عن العالم العربى ، ففي تلك الايام الخالدة وضعت بذرة تضامن الشعوب العربية ..

ففى الشام حمل الرجال السلاح ، وأعدوا كتائب المجاهدين .. ولكن الاستعمار التركى حال دونهم والوصول الى مصر ..

وفى تونس أخذت الصحافة العربية تشيد بعرابى وتلقبه يحامى العرب ، وهرع الناس الى المساجد ، وصلوا فى مسجد التبروان يدعون الله أن ينصر أحمد عرابى وأن يخذل الانجليز .. ويقول برودلى :

« .. كان العربى فى تونس يهمس فى أذن الآخر ، لقد ظهر أخيرا منقذ العروبة من الاستعمار .. » ..

وسرت موجات الكراهية ضد الأوروبيين فى كل البلاد العربية ، وأثار اعتداء الانجليز على مصر ذكرى اعتداء فرنسا على المغرب .. ورأى العرب جميعا فى عرابى بطلا للحرية أمام الاستعمار .. ووسط المد الثورى الصاعد .. وحماس الجماهير .. والتفاف

الشعوب العربية حول عرابي ، أعلن السلطان ، تحت ضغط بريطانيا « عصيان عرابي » في منشور طويل نشرته صحف الآستانة ..

وكانت انجلترا تحت السلطان ، وتترقب صدور هذا الاعلان بعد أن لمست عنف مقاومة القوات المصرية في كفر الدوار وخسائرهم في الميدان الشرقي . وبذلت انجلترا كل جهودها من ضغط ورشوة لحاشية السلطان واغراء وهدايا لرجال الباب العالي حتى أصدر السلطان الاعلان المشئوم .. وجاء في هذا الاعلان :

« .. تحقق الآن رسميا أن عرابي رجع الى زلاته السابقة ، واستبد برياسة العسكر بدون حق ، فيكون قد عرض نفسه لمسئولية عظيمة ولا سيما أنه يهدد أساطيل دولة حليفة للدولة العلية السلطانية ..

وبناء على ما تقدم يحسب عرابي باشا وأعوانه عصاة ليسوا على طاعة الدولة العلية السلطانية ..

وأن معاملة عرابي باشا وحركاته وأطواره مع حضرة السادات الاشراف هي مخالفة للشريعة الاسلامية الغراء ومضادة لها بالكلية .. » .

وهكذا دفع الانجليز السلطان الى استغلال الشريعة الاسلامية لتحقيق أهدافهم ..

وأسرع الحديو ، وعهد الى سلطان باشا بتوزيع جريدة الجوائب التي نشرته ، فقام وفد برياسة سلطان الى الاسماعيلية يحمل أعدادا ضخمة من « الجوائب » ، وأخذوا في توزيعه بين ضباط وجنود الجيش ..

كما أخذ سلطان نفسه يتنقل فى المدن والقرى يوزع « اعلان العصيان » ويدعو العمدة والاعيان الى مساعدة الانجليز ..

وأحدثت المنشورات أثرها ، وأخذ بعض الضباط يتحدثون عن مخالفتهم لأوامر السلطان واعتبار ذلك خروجاً على الدين وكتاب الله ورسوله .. وأن من مات منهم يموت عاصياً وليس شهيداً .. وحاول عرابى أن يقنعهم بأن « اعلان العصيان » دسيسة انجليزية .. ولكن عبثاً ..

ولم يكتف الانجليز والحديو بذلك ، فيقول نبيه فى كتابه : « وكان بجانب الأمناء فى جيشنا بالشرقية فريق من الحونة يسوقهم الانجليز ويمدونهم بالمال ويحرضهم توفيق ، وفريق من الشراكسة الباشوات الذين يحقدون على جنس الفلاحين المصريين .. » وظل سلطان باشا يرافق الجيش الانجليزى فى زحفه ... واستطاع أن يشتري بالمال بعض ضباط الجيش المصرى .. ووسط هذا الجو من المؤامرات والرشوة والتجسس والخيانة خاض عرابى معاركه ضد قوات الاستعمار الانجليزى .

معركة التل الكبير

انتهت المعارك الأولى فى الميدان الشرقى دون خسائر تذكر بين القوات المصرية وقوات الاستعمار .. وأثبتت القوات المصرية قدرتها على صد العدوان ..

وفى ٢٨ من أغسطس استعدت القوات المصرية للهجوم ... واندفعت قوى الجيش فى حماس وقوة واستطاعت أن تجلى الانجليز عن مواقعهم ، وظلوا يشددون عليهم حتى وصلت امدادات جديدة للانجليز .. وظلت المعركة سجلاً بين الطرفين حتى هبط الليل ، وتوقف القتال ..

وأدت هذه المعركة التي أطلق عليها « معركة القصاصين الأولى » الى توقف زحف قوات الاستعمار ، واضطر الانجليز الى الترقب والانتظار حتى يستعينوا بسلاح الرشوة والحيانة ..

وفي ٩ من سبتمبر بدأت القوات المصرية هجوما جديدا ... وكانت الخطة التي رسمت تؤكد انتصار القوات المصرية ، كما اعترف القائد البريطاني نفسه ..

ولكن الحيانة أدت دورها ، وقام الضابط على يوسف وهو أحد الضباط الذين اشتراهم سلطان باشا بافشاء خطة المعركة ، بل أبشع من ذلك سرق الرسم الأصلي الذي رسمه عرابي بيده وأرسله الى الجنرال ولسلي .

ويقول الشيخ محمد عبده :

« في واقعة القصاصين كان الرسم كما ينبغي ، وكانت العساكر المصرية يجب أن ترحف في الساعة الثانية بعد منتصف الليل على الجيش الانجليزى ، وما راع القواد المصريين الا وجود الفرق الانجليزية زاحفة .. وكانت الحيانة وصلت والنقود قد وصلت الى قلب الجيش والى كثير من الضباط بسعى سلطان باشا .. »

وانقلبت المعركة بسبب الحيانة من الهجوم الى الدفاع ، وعلى الرغم من ذلك كاد الدوق أوف كنت يقع أسيرا فى أيدي القوات المصرية ، لولا تراجع قوات الضابط الحائن على يوسف .. وظلت المعركة دائرة من منتصف الليل حتى الصباح ، واستمرت فى قوتها وعنفها ..

وكانت القوات المصرية فى انتظار وصول قوات محمود سامي البارودى ، لتقوم بدورها فى المعركة ، ولكن الحيانة أدت هنا أيضا

دورها ، وقام البدو المأجورون من سسلطان باشا بتضليل القوات المصرية ، فلم تصل أرض المعركة الا بعد انتهاء المعركة ..

ان معركة القصاصين أوشكت أن تكتب تاريخا جديدا في حياة الشعب المصرى ، وأوشكت أن تكون مولد عصر جديد تتحرر فيه مصر من تركيا والاستعمار الانجليزى والرجعية والاقطاع التى تمثلت فى الحديو وعناصر الخيانة ..

ولكن المعركة لم تنته بالنصر ، كما كان متوقعا لها ..

وقد ذكر عرابى أن السير شارلز ولسن أحضر له خطة المعركة حين كان فى سجنه بالقاهرة ، وسأله اذا كانت من رسم يده ، فأجاب عرابى نعم . فرد عليه قائلا .. « انها خطة جيدة وربما كنتم بها تنتصرون علينا .. »

انتهت معركة القصاصين الثانية، وبدأ الاستعداد لمعركة التل الكبير ..

قام آلاف الفلاحين المتطوعين بانشاء خطوط الدفاع عن التل الكبير بسرعة، وكانت عبارة عن خنادق تمتد نحو ستة كيلومترات ..

وفى يوم ١٢ من سبتمبر أرسل الضابط الحائن على يوسف من مقدمة الجيش الى عرابى يؤكد له أن الانجليز لن يتحركوا اليوم .

كان فى مقدمة الجيش المصرى ، فرقة استطلاع من السوارى يقودها ضابط اسمه عبد الرحمن حسن ، وأخرى يقودها على يوسف .. وقد قبل الاثنان الرشوة ، ولم يعرف ما ناله الضابط عبد الرحمن ولكن على يوسف كان يشكو أنه لم يأخذ سوى ألف جنيه مع أنه وعد بعشرة آلاف جنيه ! ..

وفى مساء اليوم الذى أكد فيه الحائن على يوسف أن الانجليز لن يتحركوا ، بدأت القوات الاستعمارية زحفها بالليل ، وشدد

ولسلى تحذيره لجنوده ، ألا يرتفع صوت فى أثناء تحركهم .. وكان
اعتماد القائد البريطانى فى تقدمه على الضباط الأتراك الموالين
للخديو ..

وتقدم جيش ولسلى ، وكان عبد الرحمن يحرس الطريق مع
فرقته ، فترك الجيش الانجليزى فى سلام .. ومر الجيش الانجليزى
على مقربة من على يوسف ، فلم يكتف بترك قوات العدو تمر فى
سلام ، بل وضع لها الفوانيس فى الطرق التى تمر بها ..

وكانت القوات المصرية نائمة فى خطوطها معتمدة على تقارير
على يوسف .. كان المفروض أن تحمى قوات الطلائع المقدمة ..
ولكن الطلائع أفسحت الطريق ..

وأحاطت القوات الانجليزية بالقوات المصرية ، وانطلقت البنادق
والمدافع تفتك بالمصريين .. وقام الجنود من نومهم مذعورين بعد أن
أخذتهم المباغتة .. وبدؤوا يبحثون عن طرق النجاة من الموت الذى
يحيط بهم ..

ووسط الفد والحياة تبرز عظمة الشعب فى أبنائه .. وقام
الضباط الأبطال محمد عبيد ، وأحمد فرج ، وعبد القادر عبد الصمد ،
وحسن رضوان ، وتقدموا بقواتهم التى لاتزيد عن أربعة آلاف جندي ،
وصمدوا أمام القوات الغادرة وظلوا يقاتلون حتى استشهد معظم
أفراد القوات .. وظل محمد عبيد فى موقعه حتى وقع شهيدا مع
قواته .. وظل حسن رضوان يقاتل وأوقع بالقوات الاستعمارية
خسائر فادحة حتى سقط جريحا فى الميدان ، ولما حمل أسيرا الى
ولسلى وقام يقدم له سيفه كما تقضى التقاليد العسكرية ، لم يأخذه
منه احتراما له ، وأثنى على بسالته ..

وكان عرابى يصلى الفجر ، عندما فوجئ بالقتال ، واتجه الى

ميدان المعركة ، ووقف بجانب محمد عبيد ، وشاهد فرار الجنود
فحاول أن يردهم ..

وظل عرابي في ميدان القتال ، حتى اقترب الانجليز من
موقفه ، وبقي ثابتا في مكانه ، ونصحه طبيبه بالابتعاد عن المعركة ..
ولوى خادمه بلجام فرسه .. واتجه عرابي بحصانه الى القاهرة يستعد
لمعركة جديدة ..

انتهت معركة التل الكبير ، بعد ان فقد المصريون ألفين من
الجنود الذين كانوا نائمين ، بينما لم تخسر القوات المصرية في كل
المعارك السابقة أكثر من مائتي جندي ..

وهللت الصحف الرأسمالية لانتصار القائد البريطاني .. كما
هلل له أصحاب رؤوس الأموال .. ومنح لقب لورد .. هل كان هذا
لانتصاره ؟ ان ولسلي لم يبرز براعة عسكرية أو انتصارا حربيًا ، بل
قام بأقذر خدعة في ميدان القتال ، وأحرز نصرا رخيصا بالرشوة
والحيانة .. ولكن الرأسماليين الاستعماريين لا تهمهم الوسيلة ،
مادام هدفهم تحقق في الاستيلاء على السوق التي تغزوها شركاتهم
ورؤوس أموالهم ، ويتحكمون في ميزانيتها وضرائبها ..

الاستسلام ..

أراد عرابي أن يجمع قواته في بلبس وضواحيها ، وأن يدعم
قواته بالقوات العسكرية في العباسية ، وقطع الخطوط الحديدية الى
الزقازيق ، ونسف قناطر الشرقية على العدو ..

ولكن على الروبي نصحه بالذهاب الى القاهرة ، لبحث
الاستعدادات اللازمة لاستئناف القتال ..

واجتمع المجلس العرفي في القاهرة ، ووقف عرابي يطالب

باستمرار القتال .. فما زالت هناك حامية القاهرة بمدفعيتها وحامية
دمياط .. وحامية كفر الدوار ..

وتوالت كلمات الحاضرين .. وأكدوا استعداد الشعب للدفاع
عن بلاده .. والمخازن مليئة بالأسلحة والمؤن والذخائر .. وكانت
هناك ذكريات الثورات التي أشعلها أهل القاهرة ضد نابليون
وكليبر خلال الحملة الفرنسية ..

ولكن الخيانة كانت قد أدت دورها ..

ودخلت القوات الانجليزية الى القاهرة ، واستقبلتها نساء
رجال الحديو ورجال الاقطاع بالزغاريد ..

.. ولكن الشعب فى باب الشعرية والحسينية تهباً للنورة ..
وخرجت الجموع تحمل ما تجده من سلاح لتتشعل نيران الانتقام ..
وأسرع رجال الحديو من جديد ليهدئوا الشعب النائر ..

وعاد الحديو من الاسكندرية الى القاهرة ، واستقبله القواد
الانجليز .. واصطفت على الجانبين قوات الاحتلال تحرس الحديو فى
طريقه الى مصر !

وبدأ جو من 'الانحلال الخلقى والسياسى ، وتقدم سلطان باشا
ومعه عدد من الاقطاعيين بهدايا الى قادة الاحتلال .. وأرادوا أن
يجمعوا التبرعات ، ولكن الشعب لم يتبرع ، فدفعوا ثمن الهدايا
من جيوبهم . وقدموا الى الجنرال ولسلى سبيفا من الذهب محلى
بالمجوهرات ، وأهدوا الى الاميرال سيمور طبنجة محلاة بالماس ..

ومنح الحديو سلطان باشا عشرة آلاف جنيه من الذهب ، كما
أنعم عليه بالنيشان المجيدى من الدرجة الاولى وأنعمت عليه ملكة
انجلترا بوسام سان ميشيل وسان جورج فأصبح يحمل لقب «سير» .

واعقل عرابى والزعماء الوطنيين ، انتظارا لمحاكمتهم .. وكان
الحديو يرسل أتباعه وأعوانه الى عرابى فى سجنه ليوجهوا اليه
الاهانات ..

ويروى عرابى فى مذكراته :

« .. وبعد ساعة جاء ليزورنى بشارة تكلا محرر الأهرام
وظننت أنه قادم ليعزىنى وليبلى عواطفه نحوى ، وقد كان ممن
يدينون بمبادئنا قبل الحرب وأقسم بدينه وشرفه أنه واحد منا وأنه
يعمل لحرية وطننا ، وقد عندناه فى الحق من الوطنيين ، ولكنه لما
دخل على توقع أشد التوقع ثم قال : أى عرابى ماذا صنعت ، وماذا
حل بك ؟ ورأيت أن الرجل خائن ولا شرف له ، ولما لم أجبه أدار ظهره
وانصرف .. »

.. وبدأت محاكمة العرابيين ..

وشهدت قاعة المحكمة صور البطولة فى أروع مظاهرها ..
وظل عرابى مرفوع الرأس ، وعندما سألوه عن حقيقة مناداته بعزل
الحديو ، أجاب بالإيجاب ..

ورد عرابى على سؤال آخر ، قائلا :

« لا أظن أن أحدا من المصريين على اختلاف مذاهبهم يسمح
بالتدخل الأجنبى فى بلاده ، وكل ذى ذوق سليم يجب أن يعلم أن
الأمة المصرية بأجمعها لا تسمح بذلك .. »

وعندما سئل عرابى عن احدى الرسائل التى كتبها فى أثناء
الثورة ، قال :

« نعم ، صدر منى هذا الجواب الذى هو عبارة عن الأخذ بالحزم
فى اظهار الحقيقة والعمل بالحق .. »

وكتب عرابي ..

« اننا كنا ندافع عن وطننا بطريقة تقرها شريعة الله والانسان، وكل من يقول غير هذا ، كائنا من كان فهو عبد للهوى والمال .. »
وشهدت المحاكمات شيخا في الثمانين من عمره ، يهز قوى البطش والطغيان .. سئل الشيخ حسن العدوى ، عما اذا كان قد وقع على قرار يقضى بأن الحديو توفيق يستحق العزل ، فضرب الشيخ المائدة بقبضة يده ، وصرخ في وجه المحكمة :

« ايها الباشا ، أنا لم أر الورقة التي تتحدث عنها ، ولا يمكنني ان أقول شيئا عما اذا كنت وقعت عليها أو ختمتها بخاتمي ، ولكني أقول لك ما يأتي ، انك اذا احضرت الى ورقة تحتوى على مثل هذا المعنى الذي ذكرته ، فاني أبادر بالتوقيع عليها ، وختمها بخاتمي في حضورك الآن . اذا كنتم مسلمين ، تستطيعون أن تنكروا أن توفيقا باشا ، وقد خان بلاده وذهب الى الانجليز ، لم يعد يصلح لأن يحكمنا ؟ »

وصمتت المحكمة ، ولم تجرؤ على استدعاء الشيخ حسن العدوى لسؤاله مرة ثانية ..

لم يمت الشعب المصرى .. ظل رائعا في حزنه ، وفى ألمه ..
يرقب مرور الدقائق والساعات والأيام .. والسنين ..

الفصل السابع

« السيف الذى لا تغمده فى قلوب
السادة الجرمين ..

تغمده فى قلوب الفراء والأبرياء..»

بول ايلوار

الاحتلال البريطاني

الاحتلال .. جاء للسلطان الذي أصدر فتوى « عصيان
عرايى » .. وجاء للخونة الذين باعوا وطنهم بجنيهاات
ذهبية زائفة .. وجاء للمتمردين الذين خدعوا بكلمات
الاستعمار البراقة ..

.. وكانت بريطانيا تصدر الوعود ، والعهود ..
أرادت أن تطمئن السلطان ، فقال اللورد جرنفل فى رسالة له
قبل العدوان :

« ان سياسة حكومة جلالة الملكة بالنسبة لمصر لا ترمى الى
غير سعادة هذه البلاد وتمتعها التام بما نالتة من الحرية بمقتضى
الفرامانات السلطانية المتوالية .. »

وأرادت أن تخدع الحديو .. فأرسل اميرال الاسطول
البريطانى قبل ضرب الاسكندرية يقول :

« أنا امير الاسطول البريطانى أرى الفرصة سانحة لأن أسرع
فاؤكد لسموكم أن حكومة بريطانيا العظمى لاتنوى فتح مصر ..
وأن غرضها الوحيد هو أن تحمى سموكم والمصريين من العصاة .. »

وأرادت أن تفتت وحدة قوى الشعب ، لتسقط حكم عرايى
الوطنى ، فصرح السير تشامرلس ويلكى فى مجلس العموم ، أثناء
المعارك قائلا :

« ان رغبة حكومة جلالة الملكة هي أن تترك المصريين وشأنهم بعد أن تخلص مصر من الطفيان العسكريين . ونحن نشق بأنه خير لانجلترا أن تقوم في مصر حكومة حرة ، لا حكومة مستبدة . »
وفي أغسطس عام ١٨٨٢ ، صرح جلادستون في مجلس العموم :

« لقد سألتني السيد الفاضل ، هل في نيتنا أن نحتل مصر احتلالا غير محدود ؟ قد أذهب في جوابه بعيدا ، فأقول : انه مهما نأت من شيء ، فلا شك في أنا لن نأتي هذا ، انه مناقض لمبادئ حكومة جلالة الملكة وآرائها مناقضة مطلقة ، مناقض لعهودها التي بذلتها لأوروبا ، ويمكنني أن أقول انه مناقض لآراء أوروبا نفسها »

كلمات . . وكلمات . . وعهود . . وأكاذيب . . تماما كالتى نسمعها اليوم من الاستعمار الأمريكى الجديد . . « مشروعات للتنمية » و « رفع مستوى الشعوب » و « حكومات حرة » و « الدفاع عن العالم الحر . . »

ولكن الاستعمار هو الاستعمار . . وبقيت انجلترا تحتل مصر ٧٥ عاما . . فماذا فعلت ؟

ثمن الخيانة :

كان أول من دفع ثمن الخيانة ، سلطان تركيا الذى أصدر فتوى « عصيان عرابي . . » فمنذ اليوم الأول للاحتلال ارتفعت اعلام انجلترا فوق الدور وفي شوارع القاهرة . . وفرضت انجلترا حكمها ، وحاول السلطان أن يحدد موعدا للجلاء .

ودارت مفاوضات في الآستانة ، واخفقت . . وظل الحال على هذه الصورة ، حتى قامت الحرب العالمية الاولى ، وأشعلت انجلترا

الحرب فى البلاد العربىة ضد تركيا .. وانتهت الحرب بانتهاء العلاقة
نهائىا بين تركيا ومصر ..

والحدىو .. ظن الحدىو أن الانجلىز سىعیدون الىه سسلطانة
اللى انتزعها الشعب .. وحدث خلاف فى أول أيام الاحتلال بینه
وبین قادة الانجلىز ، فأبرق الىه اللورد جرانفل مهيدا متوعدا فى
أسلوب خشن ولفظ قاس .. فقال :

« .. انه لیس هذا أو ان ظهور الحکومة المصرىة بمظهر
المعارضة والممانعة ، وان استمرارها على الاباء يعرضها للفشل
والخطر ، ولا تكون هذه النتيجة مقتصرة على الوزارة وحدها ، بل
تتناول مرکز الحدىو نفسه .. »

أما الرجعیون والاقطاع والمرتشون ، فقد أحسوا بعد العدوان
أنهم غاصوا فى وحل الخيانة ، وأن الأجلال من أبنائهم سستظل تحمل
وصمة خیانة الوطن الى الأبد .. وكتب بلنت فى يومیاته :

« زارنى عبد السلام المویلحى ، وأخبرنى أنه كان صدیقا
حمیما لسلطان باشا ومن أعوانه ، وأنه كان أحد الذین انضموا الىه
فى خصومته لعرايى ، ولكن الأسف یتملكهم جمیعا الآن لأنهم لم
یتحدوا ، وهو لا یقر مسلك سلطان فى أثناء الحرب ، فقد خدع
القنصل البريطانى سلطان باشا الذى غرر به لیفعل ما فعل واعدا
ایاه وعدا واضحا أن حقوق البرلمان المصرى سوف تحترم .. ولما رأى
الرجل الشیخ بعد الحرب مبلغ ما خدع به حزن حزنا شديدا ، ومات
وهو یأمل أن یسامحه عرايى ، وألا ینقل اسمه فى الاعقاب موسوما
بالخیانة الوطنیة .. »

أما المتمردون الذین رفضوا رأى عرايى بالسیر فى المعركة حنى
النهاية ، فقد واجهوا أبشع صور الاستعمار .. واسفر أمامهم وجه
بریطانىا القبیح .. وجه الرأسالیین الانجلىز .

بدأ الاحتلال بتصفية العناصر الوطنية .. وألقى القبض على جميع الوطنيين من الضباط والعلماء وخطباء المساجد والتجار والأعيان ، ولم يستثن سوى الجواسيس ، والمنافقين .. وامتدت الاغتيالات الى المديریات والمحافظات وقبض على العمد والأعيان والقضاة .. وعامة الناس .. وبلغ عدد من فى السجون أكثر من ثلاثين ألفا من المصريين ..

وانتهز حكام المديریات من صنائع الانجليز فرصة القبض على الأعيان ، واستولوا على ثرواتهم ، حتى أثروا وامتلكوا الاراضى الواسعة ، أما من قاومهم ، فكانت توجه اليه تهمة تأييد عرابى ، وينفذ فيه حكم الاعدام .

وشكلت المحاكم العسكرية .. ولجان التحقيق .. وساد جو من الارهاب والتخويف للقضاء على أية نزعة قومىة أو اتجاهات حرة .

وكان أول ما فكر فيه الاحتلال ، إلغاء الجيش المصرى ، وخلق جيش صغير يرأسه ضباط من الانجليز .. وأصدر الحديو مرسوما بتجريد جميع الضباط الذين أيدوا « عرابى » من رتبهم وحرمانهم من أى حق فى المعاش أو مرتب الاستيداع ..

وصدر مرسوم بتسريح الجيش ، وعهد الى السير فالنتين بيكر وهو ضابط انجليزى بتنظيم جيش جديد .. وأنعم الحديو عليه برتبة فريق .. فأصبح يعرف باسم « الفريق بيكر » .

وقرر الفريق بيكر اقضاء من تبقى من الضباط الوطنيين من الجيش وتعيين كبار الضباط من الانجليز .

.. ثم أصدر الحديو مرسوما بتعيين سير افلن وود أحد قواد الحملة الانجليزىة سردارا (قائدا عاما) للجيش المصرى ..

وصار الجيش فى قبضة الاحتلال .. ونقص عدده الى ستة آلاف .. وأقصى الضباط المصريون عن ادارات الجيش الهامة .. وكان الضباط المصريون لا يبقون فى الجيش الا اذا أبدوا ولاءهم للاحتلال والقواد البريطانيين ..

وأغلقت المدارس الحربية التى كانت تضم قبل الاحتلال أكثر من ألفى طالب ، وبقيت مدرسة واحدة حدد عدد طلبتها بـ ١٠٠ طالب .. يلحق بها ساقطو الشهادة الابتدائية .

وألغيت المصانع الحربية وبيعت آلاتها .. وأودعت الذخائر فى قلعة القاهرة ، وكان يقوم بحراستها ضباط من الانجليز ..

كما ألغيت قوانين اصلاح الجيش .. وكذا ألغيت البحرية المصرية ، ولم تبق من السفن الحربية ، سوى « المحروسة » لتصبح يختا خاصا للخديو ..

وعطلت الترسانة البحرية .. وألغيت المدرسة البحرية .. وأغلق حوض اصلاح السفن ..

.. وكان يصحب ذلك كله فصل الموظفين والعمال وتشريدهم وتشريد عائلاتهم وتركهم يتضورون جوعا دون عمل أو مرتبات .

وأصدر الخديو مرسوما ، بتعيين بيكر باشا مفتشاً عاما للبوليس ، وعاوناه عدد من الضباط الانجليز والكونستابلات .. وكان الكونستابل الانجليزى يتقدم أى ضابط بوليس مصرى ..

وألغى النظام الدستورى الذى وضعته الثورة العرابية ، وبذلك ألغيت الرقابة على الميزانية .. وعادت وسائل النهب لتسديد ارباح القروض والاقساط للأجانب .

وعاد التعليم الى الوراء ، وألغيت مجانية التعليم ، ووقفت

حركة انشاء المدارس وأغلق بعضها ، وتقرر جعل التعليم باللغة الانجليزية ، وحل المدرسون الانجليز محل المصريين ٠٠ ومسخت برامج التعليم ، واستبعد التاريخ القومي الصحيح من مناهج الدراسة ٠٠

أما فى التعليم العالى ، فلم يبق من المدارس العليا عام ١٩١٠ سوى أربع ، وهى : الحقوق ، والطب ، والهندسة ، والمعلمين ٠٠ وانحطت برامج التعليم فيها ، واقتصرت على اعداد موظفين مطبوعين بالخضوع والولاء للاستعمار .

والفى التعليم الصناعى ، وانتهت البعثات الخارجية ٠٠ وهكذا أغلقت فى وجوه الطبقة الوسطى أبواب الوظائف ، بعد أن شردوا من مراكزهم التى كانوا يشغلونها فى المؤسسات التى أغلقها الانجليز ٠٠ وسدت فى وجوه أبنائهم المدارس ٠٠

ومن الناحية الاجتماعية ، انتشرت الحمور بين سكان المدن ثم سكان الريف ، وانتشرت محال بيع الحمور فى القرى بين الفلاحين ، وفى أحياء العمال ٠٠

كما انتشر البغاء ، وأصبح مهنة رسمية ، تمنحها الحكومة الرخص ٠٠

وانتشرت دور اللهو غير البرى ، وجاء الافاقون من راقصات أوروبا والقوادين ، وضاعت ثروات كبيرة ، وكما يقول « الرافعى » فى كتابه :

« انتشر الفقر والبؤس فى الطبقات الكبيرة ثم المتوسطة والصغيرة » .

لم يكن العنوان هدفا ٠٠ لم ترسل بريطانيا أسطولها وجيوشها لتحرض نصرا عسكريا ٠٠ بل كان الهدف الحقيقى ، اسقاط

الحكم الوطني وإبعاد عرابي ، وحاولت بالرشوة والمؤامرات .. كما عرضت على عرابي مرتبا ضخما ليعترك مصر .. ولما فشلت اضطرت الى استعمال القوة ، وأسلوب الفوز .

ولم يكن إسقاط عرابي والحكم الوطني الا وسيلة لهدف أكبر، هو تمكين الرأسماليين الأوروبيين من بسط نفوذهم المالي على مصر .

وكما أوضح اللورد كرومر بعد الاحتلال ، بقوله :

« والأوروبي لا يقيم في مصر ، الا اذا كان « سيصنع » مالا من إقامته فيها ، والأوروبي لا يستطيع أن ينتج مالا ما لم تكن حياته وما ملكت يده محمية ضد خطوات الحكومة التعسفية التي كانت الى وقت قريب سيئة جدا ، والتي يظن أنها قد ترجع الى أحوالها السابقة اذا انسحبت يد بريطانيا الحاكمة » .

.. والحكومة التعسفية التي يقصدها كرومر ، هي حكومة عرابي .. ويوضح عبد الرحمن الرافعي ، أهداف العدوان بقوله :

« اجتمع الى جانب الاستعباد السياسي ، الاستعباد الاقتصادي والمالي وهو أشد وطأة وأخطر أثرا من الأول ، وبينما كانت البلاد في حاجة الى وقايتها من تغفل النفوذ الاقتصادي الأجنبي ، لكي تحافظ على مواردها المالية من الضياع ، وجد هذا النفوذ على العكس كل رعاية ومساعدة ، بحيث لم توجد دولة في الشرق تغفل النفوذ الأجنبي في حياتها المالية والاقتصادية ، مثلما تغفل في مصر ، ويرجع السبب الاول في ذلك الى الاحتلال وسياسته الاقتصادية » .

ويكشف جوزيف تشمبرلن أهداف السياسة الاستعمارية وهو من أكبر دعاة الاستعمار الامبريالي .. بقوله :

« في الاستعمار فقط .. فيه الحل الوحيد لازمتنا الاجتماعية ذلك أن البطالة والسلام لا يلتزمان ، وليس في بريطانيا فرصة

للقضاء على البطالة ، واني لأراها فى تنمية أسواقنا القديمه
والاستيلاء على أسواق أخرى جديدة » .

ويؤكد هذا المعنى استعماري امريكي .. يمهّد
للاستعمار الجديد طريقه .. وقف السناتور بيرفردج
يخطب في بوسطن عام ١٨٩٨ ، فقال :

« ان المصانع الأمريكية تنتج أكثر مما يستطيع
الشعب الأمريكي أن يستعمله ، والارض الامريكية تنتج
أكثر مما يستطيع أن يستهلك .. لقد كتب القدر
سياستنا ، يجب أن تكون - وستكون - تجارة العالم
بين أيدينا .. وستسلط عليها كما علمتنا أمنا انجلترا
- سننشئ مراكز تجارية فى العالم كله ، كنقط لتوزيع
الانتاج الامريكي ، سنغطى صفحة المحيط باسطولنا
التجارى - سنبنى اسطولا حربيا يتمشى مع عظمتنا ،
وحول مراكز تجارتنا ، ستنمو مستعمرات عظيمة تحكم
نفسها بنفسها وترفع علمنا وتتجر معنا .. »

.. هذه هى أهداف الاستعمار البريطاني .. وهذه هى
أهداف الاستعمار الامريكي ..

فكيف نفذت انجلترا سياستها الاستعمارية فى مصر بعد
الاحتلال ؟

كان تصدير البضائع هو هدف الرأسمالية عندما بدأت
نموها فى أوروبا .. وبعد ذلك تحول تصدير البضائع الى تصدير
رأس المال ..

وشهدت مصر منذ انتهاء عصر محمد على الغزو الرأسمالى
الأوربى بالبضائع ورعوس الاموال .. ثم أصبحت القروض

والشركات هي السمة الغالبة لغزو الرأسمالية لمصر ٠٠ وكان الصراع بين حكومة عرابى الوطنية وبين الرأسماليين الأوربيين ٠٠ وكان الهدف الرئيسى للثورة العرابية ، وقف التدخل الاوربى ، والغاء المراقبة الثنائية على المالية المصرية ، وطرد الوزيرين الفرنسى والانجليزى من الوزارة المصرية ٠٠

وجاء الاحتلال ٠٠ وسيطر الانجليز منذ الساعة الاولى على مالية البلاد بتعيين مستشار مالى بريطانى ، أصبح صاحب الأمر والنهى فى الشئون المالية للحكومة والبلاد ٠٠ وضعت الامتيازات الاجنبية لحماية الأجانب وشركاتهم وأموالهم ٠٠

وانهالت رهوس الاموال على مصر ٠٠ وأسست البنوك الاجنبية ، وشركات الرهون العقارية ، والشركات المالية ، والشركات الزراعية ، وشركات البناء ، وشركات النقل ، والشركات الصناعية والتجارية ، وشركات الفنادق ٠٠ وأنشئت شركة الدلتا المصرية للخطوط الحديدية ، والشركة المصرية لأراضى الدلتا ، وشركة الأسواق المصرية ، وتحتكر ادارة ١٢٠ سوقا ٠٠

والمال الأجنبى يزداد ٠٠ ففي عام ١٨٩٢ كان لايزيد عن ٧ ملايين جنيه ٠٠ فيصل عام ١٩٠٢ الى ٢٦ مليون جنيه ويقفز فى خمس سنوات حتى يبلغ ٨٧ مليون جنيه ، ثم يصل عام ١٩١٤ الى ١٠٠ مليون جنيه ٠٠

فاذا اضيفت ديون مصر ، وفروع البنوك الأجنبية فى مصر ، كان المال الاجنبى المستغل عام ١٩١٤ حوالى ٢٥٠ مليون جنيه ، كانت ارباحها تبلغ ٢٥ مليون جنيهه ، تحول الى الخارج لتدخل جيوب الرأسماليين فى اوروبا ٠٠

وبينما كانت أرباح رأس المال الاجنبى تزداد ، زادت ديون

الشعب المصرى ، وفى ذلك تقول لجنة الميزانية فى مجلس شورى القوانين عن ميزانية عام ١٨٩٤ ٠٠

« ان الامة المصرية سائرة فى طريق الفقر وعسر الحال ، وهذا يزيد على توالى الأيام ، وتداول الأعوام ، وحسبنا فى بيان ذلك أن الديون الخصوصية المسجلة فى سجلات المحاكم بلغت من عام ١٨٧٦ الى مارس عام ١٨٨١ نحو ١٢ مليون جنيه ، ثم فى أوائل عام ١٨٩١ بلغت فوق العشرين مليون جنيه ، وبلغ قدر الاطيان المرهونة نحو مليون وثلثمائة ألف فدان وكسور ، والعقارات نحو تسعة آلاف ومائة ، وهذا خلاف الديون غير المسجلة ، أعنى أنها تضاعفت تقريبا فى عشرة أعوام ، ولا شك أن هذه الحالة لو دامت لم يمض الا سنوات قليلة حتى يتضاعف هذا الدين ، ويصبح معظم الاراضى المصرية مرهونا ، ويصبح الاهالى أجراء يعملون لدائنيهم فيما كانوا يملكون ٠ »

وقد تحملت الخزانة المصرية نفقات الحرب التى دفعتها انجلترا لحملة الاحتلال ، كما تحملت أيضا نفقات جيش الاحتلال ٠٠ وقدرت التعويضات التى دفعتها الحكومة المصرية تعويضا للأجانب عن خسائرهم بعد ضرب الاسكندرية بمبلغ ٤ ملايين جنيه ٠

ثم وضعت انجلترا سياسة مالية لتسديد أرباح القروض التى على مصر ٠٠ فرفعت الرسوم على استيراد الدخان وحصلت على مليون و ٢٠٠ ألف جنيه ، وفرض البدل العسكرى ، فحصلت الخزانة على ١٥٩ ألف جنيه ، ومن بدل السخرة حصلت على مبلغ ٨٨ ألف جنيه ٠

ولجأت الادارة البريطانية الى حيل غريبة للحصول على أرباح رعوس الاموال الاجنبية تدل على السعوزة وخفة اليد ٠٠ ففى عام ١٨٨٧ ، تقرر دفع مرتبات الموظفين فى أول الشهر الذى يلى عملهم

بعد أن كانت تدفع في آخر الشهر ، وقد أدت هذه الحيلة الى دفع مرتبات أحد عشر شهرا فقط ، واستفادت الخزنة بمبلغ ٢٠٠ ألف جنيه .

• التدهور في الحياة •

كانت مصر قبل الاحتلال البريطاني ، تنتج معظم ما تحتاج اليه من محصولات زراعية ، كما كانت الصناعة المحلية قائمة على اشباع حاجة السكان .

وقامت سلطات الاحتلال بعد غلق المصانع الحربية ، بتصفيه مصنع الورق ببولاق ، ودار سك النقود ، وباعت البواخر النيلية ، كما باعت مغازل القطن ومصانع النسيج ..

وفقدت الصناعة في مصر مكانتها التي كانت لها قبل الاحتلال .. وكانت حال الصناعة في مصر يشابه حال الصناعة في أمريكا وانجلترا ، ولكن الصناعة الامريكية والانجليزية وجدت الحماية لتتطور ، أما في مصر فانهارت تحت وطأة الاضطهاد وفتح الابواب لاستيراد البضائع الاجنبية ..

وأعلن كرومر حاكم مصر في ذلك الوقت « انه ليكون ضارا بمصالح كل من انجلترا ومصر تشجيع أية صناعة قطنية محمية في مصر ! » .

وفرض كرومر ضريبة ٨٪ على انتاج المنسوجات المصرية ، ليقضى عليها لحساب مصانع الغزل والنسيج في لانكشير .

وكانت خطة الاستعمار تحطيم الصناعات الصغيرة ، ليفتح المجال للسلم الانجليزية وتحل محل المصنوعات المصرية .

وشرد نتيجة هذه السياسة أكثر من مائتي ألف من صغار الحرفيين ، بما فرض عليهم من ضرائب باهظة وقوانين جائرة ..

ويعترف كرومر بنتيجة هذه السياسة في تقرير له يقول «من يقارن الحالة الراهنة بالحالة التي كانت منذ ١٥ سنة ، يرى فرقا ضخما ، فالشوارع التي كانت مكتظة بدكاكين أرباب الصناعات والحرف من غزاليين وخياطين وصباغين وخيامين وصانعي أحذية .. قد أصبحت مزدحمة بالقهاوي والدكاكين المليئة بالبضائع الأوروبية .. أما الصانع المصري ، فقد تضائل شأنه وانحطت كفايته على مر الزمن ، وفسد لديه الذوق الفني الذي طالما أخرج في العصر القديم المعجزات في مفاخر الصناعة » .

ولم تكثف بريطانيا بعدم انشاء ، ولو صناعة واحدة ، فحسب ، بل قتلوا بالفعل كل ما من شأنه أن يعود ببعض التقدم الصناعي .. وكان كرومر يرى ان انشاء مصنع في مصر معناه اغلاق مصنع في انجلترا .

وكان رؤساء المصالح الحكومية في مصر من الانجليز ، وكانوا يفضلون شراء السلع البريطانية ، وكان المكتب الرئيسي لمشتريات الحكومة المصرية قائما في لندن وليس في القاهرة وكل موظفيه من الانجليز ..

لم تخسر مصر صناعاتها فحسب بل بدأت تخسر أرضها .. فالضرائب المنوعة التي بلغت ٣٣ نوعا ، قد اقلت بالفلاحين البائسين في أحضان المرابين والمولين ، واستولى الملاك الاجانب على جزء كبير من الارض الزراعية ، وأصبح أكثر الملاك الوطنيين يعملون بالأجر عند الاجانب .

وتكونت شركات الأراضي برعوس أموال فرنسية وانجليزية، ومن أهم هذه الشركات .

• شركة أراضي أبو قير براسمال بريطاني ومقرها لندن .

وكان عملها اصلاح وتملك اراضى أبى قير التى تبلغ مساحتها ٣١ ألف فدان ، وكان رأسمال الشركة ٣٠٠ ألف جنيه ، وصافى ربحها السنوى نحو ٤٧ ألف جنيه .

• شركة اراضى كوم امبو ورأسمالها مليون و ٨٠٠ ألف جنيه وتملك ٣٠ ألف فدان .

• شركة اراضى البحيرة ، ورأسمالها ٧٥٠ ألف جنيه ، وتملك حوالى ٣٩ ألف فدان .

• الشركة المصرية الجديدة ، وتأسست فى انجلترا ورأسمالها ٣٧٥ ألف جنيه ، وتملك ٤٥٢٨ فدانا .

وعشر شركات أخرى ، وكلها برءوس اموال أجنبية ..

وقد أدت السياسة الاستعمارية فى الريف الى حالة من البؤس والشقاء من الصعب وصفها .. وقد كتب سير ادجر فنسنت المستشار المالى يصف حالة الفلاحين ، فقال :

« لقد راعنى ما رأيت فى رحلتى فى الصعيد من املاق الفلاحين .. ان بؤس الفلاحين فى تلك الجهات .. ليفوق كل ما رأيت فى غير مصر من البلاد .. »

وحتى سلطان باشا كتب يقول :

« ان البلاد لم تبلغ من البؤس مثل ما هى فى الوقت الحاضر ، فالفلاحون بالنظر لديونهم وهبوط أسعار محصولاتهم قد غدوا فى ضنك يستحيل معه أن يجبى أكثر من نصف ضرائب السنة القادمة .. »

وكان بديها أن يصل الفلاح الى هذا الدرك من الشقاء ، مادام أصبح البقرة الحلوب التى تدر الأرباح لعملة الاسهم والسندات ..

ولم تخسر مصر مالها وصناعاتها وعرق بنيتها والكثير من
أرضها فحسب ، بل واجه الموظفون الوطنيون أياما شقية ..
روايتهم متأخرة ، والموظفون الاجانب مميزون عليهم ، وتحدثت
جريدة التيمس اللندنية عن كثرة عدد الموظفين الاجانب قائلة :

« .. لقد أصبح مما يلهو به الزوار الساخرون أن يحصوا
عدد الموظفين الاوربيين الذين يتقاضون آلاف الجنيهات فى الوقت
الذى لا يستطيع فيه مئات من موظفى الحكومة الوطنيين الحصول على
مرتبات قليلة متأخرة من العام الماضى والذى قبله .. »

وهكذا حطم الاستعمار فى مصر كل شئ .. استولى على
الأرض من ملاكها القدامى .. وامتص دم الفلاح الى درجة المجاعة ..
وأغلق المصانع ، وحطم الصناعة ، وشرد الموظفين والعمال .. وملا
الوظائف بالاجانب .. وسيطر على الجيش والبوليس .. واستنزف
ثروة الشعب المصرى ليسدد ارباح الشركات والقروض ..

وفى سبيل فرض السياسة الاستعمارية ، ألغيت الصحف
الوطنية ، ولم تبق الا الصحف المؤيدة للاستعمار والتي تحصل على
معونات من السلطات الحاكمة .. ثم صدر قانون المطبوعات ..

وفى ٤ من يوليو عام ١٩٠٩ ، صدر قانون عجيب ينص على
وضع بعض الاشخاص تحت رقابة البوليس .. وأصبح أى شخص
ولو لم تثبت عليه تهمة أو جريمة يحال الى لجنة خاصة ، ولهذه
اللجنة أن تحكم عليه بتحديد اقامته تحت رقابة البوليس لمدة
لا تتجاوز خمس سنوات ، وكان المفروض أن هذا القانون قد صدر
لمحاربة الجرائم ، ولكن سرعان ما طبق على الحالات السياسية ..
ووضعت قوائم بأسماء المشتبه فيهم ، وفى خلال ستة أشهر ،
ضمت هذه القوائم أكثر من ١٢ ألف مصرى ..

الاحتلال والحرب :

ارتبطت سياسة الاحتلال فى مصر بالحرب ٠٠ وكانت الحرب قد أصبحت ضرورة من ضروريات النظام الرأسمالى ٠٠

فى أواخر القرن التاسع عشر ، تآزمت المشاكل الاقتصادية والسياسية بين الدول الرأسمالية الاستعمارية ، وأصبحت مسألة تقسيم الأسواق واعادة توزيعها بين الدول الرأسمالية الكبرى مشكلة حادة ٠٠

ورأت الدول الاستعمارية التى بدأت عهد الغزو فى وقت متأخر ، انها مغبونة ٠٠ فالعالم قد تم تقسيمه ، ولم تعد هناك شعوب حرة يمكن استعبادها ووجدت الولايات المتحدة واليابان وألمانيا أن من حقها اقتسام المستعمرات ومناطق النفوذ من جديد للحصول على المواد الخام، وتوزيع بضائعها وتصدير رؤوس أموالها.

وتشكلت كتلتان استعماريتان تقف كل منهما فى مواجهة الأخرى ٠٠ ضمت الأولى بريطانيا وفرنسا ٠٠ وضمت الأخرى ألمانيا والنمسا ٠٠

واشتعلت الحرب العالمية الاولى بين الكتلتين الاستعماريتين واشتركت فيها فيما بعد اليابان والولايات المتحدة وتركيا ٠٠

كانت ألمانيا تحلم بإنشاء « ألمانيا العظمى » فى وسط أوروبا كما كانت تحلم بإنشاء امبراطورية استعمارية فى افريقيا بالاستيلاء على المستعمرات البريطانية والفرنسية والبلجيكية ، وأرادت ألمانيا أن تزيع منافستها الرئيسية بريطانيا وأن تحطم سيادتها البحرية ٠٠

وكان الاستعمارىون البريطانىون يريدون تحطيم المانيا بوصفها أخطر خصم لهم فى السوق العالمية ، ويريدون اضعاف قوتها الاقتصادية والقضاء على الاسطول الالمانى واغتصاب المستعمرات الالمانية ٠٠ كما كانت بريطانيا تهدف الى الاستيلاء على تركة تركيا فى الشرق العربى ٠٠

أما فرنسا فكان هدفها القضاء على قدرة المانيا الاقتصادية والمالية ، واحتلال المستعمرات الالمانية فى افريقيا ٠٠

وانتهت الحرب العالمية الاولى وبلغ عدد القتلى حوالى ١٠ ملايين وعدد الجرحى والمشوهين أكثر من ٢١ مليوناً ، وأضعفت الحرب بعض الدول الاستعمارية من الناحية الاقتصادية ، أما أمريكا فقد أثرت ، وبلغ ما جنته من ارباح حوالى ٩٦٥ مليون دولار ٠٠

وتأثرت مصر من وراء وجود قوات الاحتلال البريطانى ٠٠ فى نوفمبر عام ١٩١٤ أعلنت الاحكام العرفية ، وشددت الرقابة التى وصفتها صحيفة التايمز بأنها « أقل كفاية من رقابة أى بلد تحت الحكم البريطانى وأشدّها بطشاً وأكثرها عسفاً » ، وفى ديسمبر أعلنت الحماية على مصر ، وفى عام ١٩١٦ ، استدعى احتياطى الجيش المصرى الى الخدمة ، وابتداء من عام ١٩١٧ اشتد الاستعمار فى طلب الرجال والمؤن والجمال ٠٠

ويقول ليفتنانت الجود فى كتابه « مصر والجيش » :

« ظهر فى عام ١٩١٦ انه اذا لم تستخدم السخرة ، فلن تتوافر الامدادات اللازمة للفرق الاحتياطية المصرية ، ولذا فقد كان الحصار يضرب على جموع الريفيين فى اثناء ذهابهم الى الأسواق ثم يرسلون الى أقرب « نقطة عمل » وبينما كانت الاغلبية تقابل مصيرها بالتسليم ، كان البعض يبدى مقاومة ، وكان آخرون يفرون

الى المناطق المجاورة ، ولكن كانت نهاية هؤلاء جميعا واحدة ،
فالمقاومة تخمد ، ويقبض على الفارين ثم يسلمون الى ضابط
القرعة ٠٠ »

وكان الضغط يزيد ٠٠ ويزيد كلما اتسعت العمليات الحربية
٠٠ وطالت خطوط التموين ، وكان المصريون أكفأ العناصر التي
جندتها القوات البريطانية في اقامة الجسور ومد السكك الحديدية .

وبدأ الفلاحون يفرون من القرى ، فأخذت قوات البوليس
والجيش تهاجم القرى لجمع المتطوعين بالقوة وارسلهم الى مراكز
العمل تحت حماية عسكرية ٠٠ كانت السلطات العسكرية البريطانية
تريد رجالا بأى ثمن ، فلم تتردد عن استعمال أبشع الوسائل .

وجندت بريطانيا من المصريين أكثر من ١٧٠ ألفا في فرق
المواصلات بالجمال ، وقدر مجموع المصريين المجندين في مختلف
القوات بحوالى المليون .

واستولى مكتب الامدادات بنفس الطرق على المحصولات ،
وأجبرت الحكومة على أن تدفع ٣٥ مليون جنيه مساهمة منها في
نفقات الحرب ، وسلم مبلغ ٦٠٠ ألف جنيه الى الصليب الاحمر
البريطاني ، وهو مبلغ فرض اجباريا على القرى في مصر .

واشتد الحكم العرفي ، والرقابة ، وقانون الاجتماعات الذي
يحرم اجتماع أكثر من خمسة أشخاص ، وابقاء مئات من المصريين
في السجون لمجرد الشبهة . بالاضافة الى الضغط الاقتصادى ٠٠

كل هذا حدث في الحرب العالمية الاولى ، ولم تكن مصر قاعدة
عسكرية ، او في تحالف عسكري ٠٠

ومن البديهي أن مصر تحت الاحتلال البريطاني ، وفي ظروف
الحرب فتحت أبوابها للقوات العسكرية التابعة او المتحالفة لبريطانيا

.. فكان الجنود البريطانيون السكارى يأخذون البراقع بالعنف من فوق وجوه السيدات المصريات .. كما حدثت اعتداءات وحوادث خطف ..

وكان الجنود الاستراليون يظنون أن مصر بلاد انجليزية ، وأن المصريين دخلاء .. ويعجبون كيف سمح لهؤلاء العبيد (المصريين) أن يأتوا الى هذه الديار .

ويقول الدكتور جست :

« .. سمعت غير واحد من الاستراليين يقول : لو كان الأمر بيدى لما أبقيت على واحد من المصريين فى هذه البلاد ! » .
ويقول :

« ومما زاد الطين بلة أن الجنود عند مجيئهم وجدوا الحانات كلها مفتوحة الأبواب ليل نهار .. فأدى ذلك الى حدوث مخازر اشمازت منها نفوس المصريين وملأت قلوبهم غيظا واحتقارا .. » .
ونشرت « مس درهم » مقالا فى جريد الديلى نيوز الانجليزية تقول فيها :

« أقسم لو كنت مصرية لما ترددت فى بذل النفس لطرد الانجليز من مصر ، وانى والحق يقال كنت أخجل اشد الخجل لانتسابى لبلادى .. » .

.. وهكذا ، شاعت الحرب ، ان تشهد مصر آثار الأحلاف العسكرية قبل أن تظهر الأحلاف .. وان تعيش حياة القواعد العسكرية ، قبل أن تصبح الأحلاف والقواعد العسكرية سياسة رسمية يعلنها الاستعمار ويجر الشعوب الى الارتباط بها .. ويدفعها الى الحروب ..

بداية المقاومة :

لم يكن الحال كله ظلاما .. بل خلال السواد انطلقت ومضات النور من أجل الغد ..

وأطلق الفلاحون أول اشارات المقاومة عام ١٩٠٦ ، عندما حاول بعض الضباط البريطانيين صيد الحمام في قرية « دنشواي » وأصابوا امرأة وأحرقوا جرنًا للفلاحين .. وهجم عليهم فلاح شيخ في الخامسة والسبعين من العمر .. لم ترهبه بنادقهم أو أزيائهم العسكرية ، وأخذ يجذب من الضابط الانجليزي بندقيته .. وهاجم أهل القرية الضباط الانجليز بالطوب والعضى .. وكانت هذه الحادثة أول شرارة للمقاومة ..

وفي عام ١٩١٠ حاولت بريطانيا مد امتياز قناة السويس ، وتصدى شاب وطني لرئيس الوزارة المصرية الذي أراد أن يوقع الاتفاق وأطلق عليه الرصاص .. وسقط قتيلًا ..

وفي عام ١٩١٥ أطلق شاب الرصاص على السلطان حسين لقبوله عرش مصر في ظل الحماية البريطانية ..

وبعد شهرين ، أُلقيت قنبلة على السلطان حسين في الاسكندرية ..

وفي عام ١٩١٦ اجتمع المجندون للحرب من الريف في ثكنات عين شمس ، وساروا في مظاهرة الى ميدان عابدين ، احتجاجا على معاملة البريطانيين .. وتركت هذه المظاهرة صدى بعيدا ..

وعندما أراد السلطان حسين زيارة مدرسة الحقوق ، نظم الطلبة اضرابا صامتا ، وانفقوا على عدم الحضور في ذلك اليوم .. ونفذوا اتفاقهم .. وكان هذا أول عمل سياسي يتم بشكل منظم ، فاهتمت به السلطات البريطانية .. وفصلت ٤٥ طالبا .. وبدأت الحياة ..

الفصل الثامن

- قد يغبو لهيب الحرية أحيانا •
- ولكن جمرها لن ينطفئ •
- توم بين

مصر .. والاشتراكية

الشعب شامخا .. كأنه الجبال .. كأنه الأمواج ..
كأنه العواصف تهدأ لتثور .. ولم يكن الاحتلال
بالنسبة له الا حدثا عابرا ، ينتهى كما انتهت عشرات
ومئات الغزوات عبر آلاف السنين .

وقف

وظهر اصرار الشعب على المقاومة ، عندما قرر عبد الله النديم
خطيب الثورة العربية ، وروحها الناطق، ولسانها الساحر العنيف،
الا يسلم نفسه لسلطات الاحتلال .

اختفى النديم .. وحشدت قوات الاحتلال ، والحكومة العميلة
كلى قواتها للقبض عليه .. وبثت الجواسيس فى كل مكان ..
وفشلت جهودها .. وأعلنت عن مكافأة ألف جنيه لمن يقبض على
النديم حيا أو ميتا .. وقررت عقوبة الاعدام لمن يخفيه .. وتوالت
انذاراتها ووعودها فى الصحف .. ووزعت منشوراتها على المديرين
والعبد ، تريد النديم .

وسخر الشعب من كل الوعود والوعيد .. ووقف الشعب
عملاقا يحمى ثأره .. وظل النديم مختفيا تسع سنوات بين الفلاحين
فى القرى .. وفى المزارع .. يكتب .. ويراسل زعماء الثورة
.. كأنه روح الشعب لا يهدأ ولا ينطفىء .

ويظهر النديم بعد أن زاد ايمانا بالفلاحين ، وحبا للشعب ،
وثقة فى الغد .. واستأنف كفاحه .. وأصدر مجلة « الأستاذ »

ليسخر من الاحتلال ومن الباشوات .. وهاجم الاستعمار فى عنف ..
وتحدث من جديد عن الصناعة .. والحرية .

وصدر الأمر بالنفى .

عاد النديم من منفاه ليلقى فى مصر شابا يتقد حماسا ويلتهب
وطنية .. ونقل النديم الى الشاب الثائر أسرار الثورة العرابية ..
.. أهدافها . كفاحها . الخيانات . والدسائس .

كان هذا الشاب .. مصطفى كامل .

وارتفع صوت مصطفى كامل صارخا .

« لا يأس مع الحياة ولا حياة مع اليأس » .

وانطلق مصطفى كامل فى مصر .. وسافر الى أوروبا .. ووجه ..
نداءه الى مجلس نواب فرنسا يطلب من فرنسا أن تساعد مصر على ..
استرجاع حريتها واستقلالها .. وسافر الى النمسا .. واتصل ..
بكبار الصحفيين والسياسيين .. وسافر الى ألمانيا .. وتركيا ..
.. والمجر .

وعاد الى مصر .. وأنشأ الحزب الوطنى .. وأخذ يخطب ..
شارحا قضية مصر . ويطلب « بالجلاء » وأصدر جريدة اللواء ..
وجدد الدعوة الى الصناعة ، فكتب فى جريدته :

« .. ان الاهتمام بالصناعات يخلق روح الصناعة ، وهو بلا ..
مراء أسمى خدمة تقدم اليها وأكبر سعادة تجهز لرجال الغد » .

ووقعت حادثة دنشواى ، وصدر حكم الاحتلال بالاعدام على ..
أربعة ، والأشغال الشاقة المؤبدة على اثنين ، والسجن سبع سنوات ..
على ستة ، والحبس والجلد على ثمانية .. كل هذه الأحكام لمصرع ..

ضابط انجليزى واحد .. وارتفع صوت مصطفى كامل فى العالم منددا بالمجزرة ، وكشف وحشية الاحتلال .

.. وبدأت مع مصطفى كامل حركة جديدة ، هزت الاستعمار .. وأيقظت الوعي .

وكان مصطفى كامل ، قد حاول أن يحرك نخوة الحديو عباس الذى تولى الحكم بعد توفيق .. كما حاول أن يستثير فى فرنسا مبادئ المساواة والحرية .. وأراد أن يدفع فى الاقطاع هزة وطنية .

وفشل مصطفى كامل .. فالخديو يتآمر على الحركة الوطنية ، وفرنسا تسامح انجلترا ، وأقرت فرنسا احتلال انجلترا لمصر ، مقابل اطلاق يدها فى مراكش .. والاقطاع فى حالة استسلام للاحتلال .

ويتجه مصطفى كامل الى الجماهير .. ويقول :

« ان العزلة التى صرنا اليها بعثت فينا روحا جديدة .. ان الأمم لا تنهض الا بنفسها ، ولا تسترد استقلالها الا بمجهوداتها .. ليخرج من الجماهير المثات والألوف بدل الآحاد للمطالبة بالحق الوطنى والحرية الأهلية والاستقلال المقدس . »

محمد فريد :

كان محمد فريد منهجا جديدا فى السياسة المصرية .. تولى زعامة الحزب الوطنى بعد وفاة مصطفى كامل .. وأدرك منذ الوهلة الأولى ، أن مواجهة الاستعمار تتطلب تفكيرا علميا .

ان النكسة التى حدثت للثورة العرابية ، لم يكن سببها الشعب

بل خرجت الجماهير من الحسينية وبولاى تطالب بالمقاومة الشعبية ..
كا كانت بقية قوات الجيش على استعداد لاستئناف القتال .. ولكن
النكسة حدثت بعد خيانة الحديو والاقطاع ..

وكانت بذور الفكر الاشتراكى التى نقلها أفراد البعثات المصرية
من أوروبا ، قد أخذت فى النمو .. وتابع محمد فريد القيسادات
الاشتراكية فى أوروبا .. وأدرك أن الثورة العالمية دخلت مرحلة
جديدة ، ولم تعد مبادئ الثورة الفرنسية تمثل ثورة العصر ، بل
حلت محلها أسس الفكر العلمى ، والنورة الاشتراكية .. كما أصبح
واضحا أن مصر أمام أحد أمرين ، اما أن تسلك الطريق الى الاشتراكية
لتساير الحضارة الأوروبية الحديثة وتصبح جزءا من الثورة العالمية
ضد الاستعمار والاستغلال ، واما أن تتخلف عن ركب التطور ، وتظل
بلدا تابعا متخلفا مستعبدا ..

واتجه محمد فريد بالحركة الوطنية وجهة جديدة ، وحاول أن
يربط بين حركة المثقفين وحركة العمال .. كما حاول أن يربط بين
المشاكل السياسية والمشاكل الاجتماعية ..

وكان محمد فريد واضحا حين قال فى خطبة له :

« اشرحوا للعامل .. أخرجوه من الظلمات الى النور ، اشرحوا
له حالة اخوانه فى أوروبا .. وما هم فيه من سعادة نسبية بفضل
العلم والاتحاد والتضامن .. »

وقال :

« العمال فى بلادنا مهملون كالفلاح » .

ثم أوضح القوة التى يمكن أن يمدحها بتنظيم العمال للحركة
الوطنية فى كفاحها ضد الاستعمار ، بقوله :

« نقابات العمال قوة هائلة تخضع لها الحكومات وتطاطىء
رأسها أمامها .. »

.. كان محمد فريد ، واعيا بجوهر الاستعمار ، وحقيقة
أهدافه .. فكان لا يرى فى الاستعمار مجرد احتلال لمصر ، بل هو
« ابتزاز واستغلال لأموال المصريين و ثروة الشعب ، وكان يرى أن
العبء الأكبر من هذا الابتزاز يقع على الفلاحين والعمال ، فالأجانب
من أصحاب الشركات الزراعية والمرايين والاقطاعيين يسلبون الفلاح
أرضه ويبتزرون جهده ، والحكومة تثقله بالضرائب لتدفع فوائد الديون
لأصحاب السندات من المستعمرين .. »

أما العامل المصرى ، فقد لقي الجوع والتشرد والموت على يد
الاحتلال .. فعندما أراد الانجليز أن يجعلوا من مصر مزرعة قطن ،
حاربوا صناعة الغزل حتى اندثرت ، وتشرد العمال عاطلين ..

وكما يحدث فى كل المستعمرات استغل الرأسماليون الأجانب
الأيدي العاملة المصرية ، بأرخص الأجور فى الشركات التى أنشئوها
ويصف محمد فريد ، حال العمال فى ظل الاحتلال ، فى مقال نشرته
الدلي نيوز عام ١٩٠٨ بقوله :

« الى الآن لا توجد بمصر قوانين خاصة بحماية العمال ولا
قوانين تحدد سنهم ، ولا عدد الساعات التى يجب أن يقضوها فى
العمل ، فتجد العامل مثقل الكواهل بلا رحمة وخصوصا فى معامل
الدخان ، ومعامل حلب القطن ، حيث يشتغل الأطفال ذكورا واناثا
فى وسط من أردأ الأوساط من الوجهة الصحية والأدبية .. »

.. هكذا كان محمد فريد مؤمنا منذ عام ١٩٠٨ بأن حل
المسألة الوطنية وطرد الاستعمار مرتبط بالتغيرات الاجتماعية التى
يجب أن تحدث فى مصر .. وكان يرى أن التغلب على قوى الاحتلال
السياسية والعسكرية والاقتصادية تتطلب تنظيم القوى الحقيقية

للشعب .. فلو أن قوى الجماهير كانت منظمة خلال الثورة العراقية ،
لا استطاعت قوى الاستعمار والخيانة والاقطاع أن تقضى على الحكم
الوطني ..

واهتم الحزب الوطني في أثناء رياسة محمد فريد ، بإنشاء
مدارس للعمال في بولاق والحليفة وشبرا والعباسية ، كما أسس
الحزب جمعية للخطابة في حي الحليفة يتناوب فيها العمال والطلبة
الخطابة ، وساهم في انشاء أول نقابة للعمال في مصر عام ١٩٠٩
باسم « نقابة عمال الصنائع اليدوية » وبلغ عدد أعضائها في نهاية
العام الأول أكثر من ٨٠٠ عامل .

واهتم محمد فريد بالعمال الزراعيين ، فجاء في حديث له :
« يجب ايجاد النقابات الزراعية حتى تشتغل بتخفيف الضرائب
عن الأتبان وتحسين حال الفلاح .. حيث لا خلاص له من بؤسه
وشقائه ، الا بتشكيل نقابات زراعية للدفاع عن حقوقه أمام الحكومة ،
وأمام الملاك الذين يزدون عليه الايجارات بمناسبة وغير مناسبة .
وأمام المرابين الذين يأخذون منه ما يبقى لهم بين جشع الملاك وظلم
الحكومة .. »

وكان لهذا أثره في زيادة قوة الحركة الوطنية ، فهب الشعب
في مظاهرة ضخمة عام ١٩٠٩ ضد القيود التي فرضها الاحتلال على
الصحافة ، وتجمع آلاف الشباب من طلبة المدارس العليا والأزهر
وطوائف التجار والعمال ، وساروا في مظاهرة احتجاج .. وتجددت
المظاهرة في الأيام التالية واصطدم المتظاهرون برجال البوليس ..
وهكذا استطاع الحزب الوطني أن يجذب العمال الى المعركة
السياسية بعد أن بعث الوعي في صفوفهم ..

كما ربط محمد فريد بين كفاح الشعب المصري ، وحركة
السلام العالمية ، فدعا عام ١٩١١ الى تأسيس جمعية السلام في وادي

النيل تكون لها علاقة رسمية بمكتب السلام الدائم فى أوروبا ،
وكان محمد فريد أول من قال بأن الجلاء عن مصر هو خدمة للسلام
العالمى ، وأن مصلحة السلام العالمى أن تستقل مصر وأن تنال حكومة
وطنية ..

كما ربط محمد فريد قضية استقلال مصر ، بقضية الاشتراكية
الدولية ، فلم يترك ، وهو فى منفاه فى أوروبا مؤتمرا دوليا اشتراكيا
الا وقدم له مذكرة بمطالب مصر ، كمؤتمر بروكسل عام ١٩١١ ،
ومؤتمر برن عام ١٩١٩ ..

لقد أدرك محمد فريد منذ وقت مبكر ، أن قضية مصر الوطنية
هى جزء من قضية الاشتراكية العالمية ..

ورأى الاستعمار فى هذا المنهج السياسى الجديد خطرا حقيقيا
على وجوده، فلحق أول قضية ضد الزعيم الوطنى ، وصدر الحكم بسجنه
سنة أشهر .. وزاره كوكس باشا مدير مصلحة السجون وقال له :
- انى أسعى للعفو عنك اذا وعدت بتغيير خطتك .

ورد محمد فريد :

- ان ما تطلبه مستحيل .

فقال كوكس باشا :

- انى لا أطلب منك تغيير مبادئك بل تخفيف لهجتك .

ورفض محمد فريد .. وقضى مدة الحكم فى السجن ، وخرج
ليكتب .. « قضيت هذه المدة فى السجن دون أن أشعر بأقل ضيق .
وكننت كلما شعرت بأن شيطان الضجر يسعى لأن يجد الى نفسى
سبيلا ، تذكرت ما قاساه خدام الوطن فى كل البلاد ، مثل ايطاليا
والفرنسيين وأحرار الأتراك فى عهد عبد الحميد ، وما يقاسيه الآن

أحرار بولونيا والروسيا في سيبيريا وفي السجون تحت حكم القيصر
من أنواع التعذيب كالضرب بالسياط والموت جوعا .. فأقول في
نفسى ان هذا الحبس لا شيء بجانب حبى لحصر ، أمى العزيزة ، فيذهب
عنى الضجر ، وتزداد عزيمتى اشتدادا .. »

وفى مارس عام ١٩١٢ ، ألقى محمد فريد خطابا ، وأكد فيه
تمسكه بالاتجاهات الاشتراكية ..

تحدث عن مشروع الجامعة المصرية .. وتحدث عن الحركة
التعاونية ، ونقابات العمال والفلاحين .. ومدارس الشعب .. ودعا
الشعب الى الجهاد وجاء فى خطبته ..

» .. انظروا الى تحكم الشركات الأجنبية ، منىل شركات
الترامواى ، والسكك الحديدية ، وماشاكلها فى العمال ، وانظروا الى
الفلاح المستأجر ، والى ما يفرضه عليه مالك الأرض من الياجار
الباهظ ، تجدوا أنه فى أحط دركات الفقر ، فالعامل لا يحصل على
قوت يومه الا بعد أن يشتغل ١٢ ساعة كل يوم على الأقل ، والفلاح
لا يصل الى ما يسد الرمق من أردأ أنواع الحبز الا بشق الأنفس ..»

ورأى الاستعمار ، أن هذا المنهج السياسى الجديد يمثل خطرا
حقيقيا على وجوده .. فدبر محاكمة ثانية لحبسه .. واجتمع أصدقاء
محمد فريد وقرروا سفره الى الخارج .. ومنذ ذلك اليوم عاش محمد
فريد منفيا فى أوروبا ..

.. وفى أوروبا حضر محمد فريد مؤتمر السلام فى جنيف ..
ومؤتمر السلام فى هولندا .. ومؤتمر الأجناس المضطهدة فى لندن
.. وظل يتابع ارسال المذكرات الى المؤتمرات الدولية ، ومؤتمر
الصلح .. والمؤتمرات الاشتراكية ..

ومات محمد فريد .. وحاول الاستعمار والرجعية ، وضع

ستار كثيف بين أفكار محمد فريد والحركة الوطنية .. ولكن حركة التاريخ لا تتوقف ..

الحركة الاشتراكية :

لم يكن محمد فريد أول مصري يتابع الفكر الاشتراكي في ظهوره ونموه وتطوره .. سبقه رفاة رافع الطهطاوى ، عندما كان في فرنسا وعاش معارك الفكر والثورات السياسية .. كما تحدث النديم عن « السوسياليست » أى الاشتراكية فى مقالاته عندما كان يقارن بين الثراء الفاحش للأسرة المالكة والاقطاعيين ، والفقر المدقع الذى تعيشه جماهير الشعب ..

وكان اتصال مصطفى كامل بأوروبا من أجل القضية الوطنية وسيلة لاتصال الفكر السياسى فى مصر بالفكر السياسى المتطور فى أوروبا .. وفى مقدمته الفكر الاشتراكى ..

ودرس محمد فريد الاشتراكية ، وأدرك أن القضية الوطنية لا يمكن أن تحل ، ما لم يأخذ الكفاح الوطنى منهجا اشتراكيا علميا لمواجهة الرأسمالية والاستعمار العالمى فى نموه وبطشه ..

واتصل محمد فريد ، بالتيارات ، والمنظمات الاشتراكية فى أوروبا .. وكانت خطواته بداية لمنهج جديد ، لا يقوم على العاطفة وحدها أو الحماس وحده ، بل اتجه الى مواجهة الاستعمار بسلاح الفكر السياسى العلمى ، والمنهج الاشتراكى ..

فما هى الاشتراكية ؟

ولدت الاشتراكية ، خلال أحداث الثورة الفرنسية ، وكانت جنينا ينمو خلال القرن السابع عشر .. وقد نذهب أبعد من ذلك لنرى الحضارات القديمة ، والأديان

كلها قد مهدت الفكر الانساني وغذته بالمعرفة والحقيقة والسمو
ليصل الى الاشتراكية ..

ففى الحضارة الفرعونية القديمة خلال الأسرة الخامسة نجد
ثورة الفلاحين ضد الملوك والأنبياء الجشعين .. ثم نجد أثر هذه
الثورة على الأفكار .. فيقولون :

« لا ترفع ابن الشخص العظيم على ابن الشخص المتواضع بل
قرب اليك الانسان على حسب كفايته الشخصية » .

وفى الحضارة الصينية القديمة .. ما بين عامى ١٠٦١-١٠٨٦ ،
نقرأ كلمات وانج آن شى ..

« يجب أن تسيطر الدولة على جميع شئون التجارة والصناعة
والزراعة وتصرفها بنفسها ، وأن يكون الهدف الذى ترمى اليه من
وراء ذلك غوث الطبقات العاملة ، وأن تحول بينها وبين أن يذلها
الأغنياء ، ويطحنوها طحن الرحى » .

وتعتبر تعاليم المسيحية قمة الاشتراكية الخيالية من الوجهة
الأخلاقية الدينية ..

وفى القرآن الكريم ، قال تعالى : « وسخر لكم ما فى السموات
وما فى الأرض » ويرى المفسرون أن هذا المبدأ معناه أن الناس
متساوون جميعا فى الاستفادة من خيرات الأرض والسماء ، مادام
الخطاب للناس جميعا ، والله قد بذلها لهم من غير ثمن ، وبذلها لهم
من غير تمييز بين فئة وفئة أو أمة وأمة ..

ان هذه التمهيدات فى الحضارة القديمة .. وهذا السمو الروحى
فى الأديان ، كانت له آثاره البعيدة فى الفكر الاشتراكى ..

وقامت الثورة الفرنسية ، مع نمو الصناعة وظهور الرأسمالية

.. ووجد الشعب الفرنسي أن النظام الاقطاعي يقف في طريق التطور الصناعي ويسبب الازمة والفقر للجماهير الشعب ..

وانطلقت ثورة الرأسمالية ضد الملك وأمراء الاقطاع .. وقامت الجماهير الشعبية بحمل عبء الثورة .. فهاجمت سجن الباستيل وأطلقت سراح المسجونين السياسيين .. كما حملت الجماهير عبء القتال ضد أعداء الثورة في الداخل والخارج .. وبذلت دماءها وحياتها في سبيل حياة أفضل .. ونادت بالمساواة والاخاء والحرية .

وانتصرت الثورة الفرنسية ، ولكن سرعان ما انطلقت الرأسمالية تبحث عن مصالحها ، وتهاونت مع الرجعية وبقياء الاقطاع ونصبت المدافع في شوارع باريس توجه نيرانها الى جماهير الشعب ..

وقامت حركة « بابيف » ، ونادت بالحق الطبيعي لجميع الناس على قدم المساواة في التمتع بالخير التي توفرها الطبيعة ، كما نادوا بالغناء كل من الثراء والفقر لمصلحة السعادة البشرية .. وقالوا بأن هناك التزاما عاما على الجميع بأن يعملوا ، وحقا عاما للجميع في أن يتعلموا ..

وكانت حركة « بابيف » نتيجة خيبة الأمل في الثورة .. فقد عقدت عليها آمال كبار .. وكل ما بدا منها أن القطاعات الفقيرة في الشعب الفرنسي ازدادت فقرا .. فالفلاحون حصلوا على الأرض ، أما العمال فلم يحصلوا الا على الجوع والتعطل ..

وجاء دستور الثورة لينص على شروط للانتخاب ، لا تسمح الا لأفراد الطبقة الوسطى بتمثيل الشعب في البرلمان ..

وبدأت الرأسمالية تبحث عن موارد جديدة وأسواق تستولى عليها وشعوب تستعبدتها .. واستولى نابليون على بلجيكا أغنى مناطق

أوروبا في ذلك الوقت من الناحية الاقتصادية والصناعية .. ثم اتجه نابليون شرقا وغربا في أوروبا ليجعلها سوقا للرأسمالية الفرنسية .. ثم خرج من أوروبا ليستولى على مصر ، ويقطع الطريق الى الهند في وجه إنجلترا .. وبدأ صراع عنيف على اقتسام الأسواق ..

وأدركت شعوب أوروبا ، أن مصالح الناس في وطن واحد لا يمكن أن تكون واحدة ، وأن الطبقة الرأسمالية الاستعمارية تزداد غنى على حساب الرأسمالية الصغيرة والمنفقين والعمال والفلاحين ، الذين ينحدرون الى مهاوى الافلاس والفقر .. فالمصانع الكبيرة تلتهم المصانع الصغيرة .. والعمال يعانون من البطالة .. والفلاحون يقعون في براثن ارتفاع الأسعار .. وتواجه الجماهير أزمات الرأسمالية الدورية .. كما تساق الجماهير الى الحرب كالحراف للء جيوب فئة أو طبقة بالثراء على حساب الآخرين ..

وهكذا ظهرت كلمات الاشتراكية ، والطبقات .. وبدأ صراع رهيب بين الرأسماليين الاستعماريين وبين طبقات الشعب العاملة وشعوب المستعمرات ..

ومضى الفكر الاشتراكي في تطوره ، ونموه ، يضيف كل يوم جديدا الى الدراسات السياسية والاجتماعية والاقتصادية ويكشف أسرار تطور المجتمعات ، وأسس تقدمها وحقيقة الصراع في المجتمعات والتناقضات في العالم .. وأسباب الثورات والحروب .. والأسس الموضوعية لظاهرة الاستعمار أعلى مراحل الرأسمالية ..

وظهرت مدارس ومذاهب متعددة في الاشتراكية .. الاشتراكية الخيالية .. واشتراكية الدولة .. والاشتراكيون الاقتصاديون والفوضويون .. والاشتراكية النابية .. وخاضت الاشتراكية صراعا

فكريا عنيفا .. كما ساهمت فى ثورات أوروبا ضد الملوك والدول
الرأسمالية الاستعمارية ..

وظل الصراع بين المدارس والنظريات الاشتراكية المختلفة قائما
حتى اندلعت الحرب العالمية الأولى .. وظهرت الدعوة الى السلام
لمواجهة الحروب .. وعقدت المؤتمرات الاشتراكية ، وأعلنت أن هذه
الحرب قد شنت لمصلحة الاستعماريين ، وأن الجنود من العمال
والفلاحين الذين يخوضون هذه الحروب ، انما يقدمون ضحايا على
مذبح الرأسماليين الجشعين .. ووجهوا نداءاتهم الى العمال والفلاحين
بالامتناع عن الحرب ..

ولكن سرعان ما انشق قسم من الاشتراكيين يمثلهم حزب
العمال البريطاني ، وبعض أحزاب أوروبا ، واشترك بعض أفراد هذه
الأحزاب فى وزارات الحرب .. وكشف هذا الموقف انتصار الاشتراكية
العلمية ، فان أنصارهم هم وحدهم الذين تمسكوا بالدعوة الى السلام
وكشف تجار الحروب ..

وكان من أهم ما تمخض عنه الفكر الاشتراكي ، أن الرأسمالية
الجشعة تعتمد فى بسط سلطانها وجبروتها على تنظيماتها السياسية
التي تتمثل فى أحزابها ومجالسها النيابية ، وقوتها المالية والاقتصادية
وسيطرتها على أجهزة الصحافة والاعلام ..

وأدرك الفكر الاشتراكي أن العمال بتضامنهم ووجودهم بشكل
منظم داخل المصانع والمؤسسات يستطيعون بتحالفهم مع بقية طبقات
الشعب العاملة ، أن يردوا على عنف الرأسمالية ومؤامراتها ،
ووحشيتها ..

وكانت الرأسمالية تواجه أزمات عنيفة ، كما أن سير التاريخ
كان يؤكد زوالها ، وانتهاء عصرها .. ويحاول الرأسماليون أن
يتشبثوا بمصالحهم الخاصة ، وراوا أن الاشتراكية تعجل بنهايتهم ،

قتلوا حربا مسعورة .. علقوا المشانق للاشتراكيين فى كل أوروبا
.. وأقاموا المجازر ضد الجماهير الشعبية .. وقمعوا الثورات بمنتهى
القسوة والوحشية ..

.. ثم شنوا حربا شعواء بالأكاذيب ، والافتراءات .. وكانوا
يستغلون جهل الجماهير وينشرون بينهم حملات التشكيك ، ويشوهون
فى نظرهم الاشتراكية ..

ولم تكن المعركة هينة ، فالرأسمالية تبحث عن الحلول
لمشاكلها ، وكلما واجهت أزمة ، حاولت أن تتغلب عليها بكل
الوسائل .. بالحرب أو الثورة المضادة أو المؤامرات .. وفى نفس
الوقت كان تطورها الاقتصادى يتجه بها نحو تركيز الثروات فى
أيدي قليلة من أفرادها ، فى حين تزداد الشعوب معاناة وفقرًا ..

وظهرت احتكارات البترول ، والصلب ، والكهرباء ، والمناجم
.. وتضخمت الثروات فى أيدي قلة ، وظهر أصحاب المليون جنيه
.. وأصحاب الملايين .. ثم أصحاب المليارات ..

واليوم ، فى الولايات المتحدة ، يملك ١٪ من السكان ٥٩٪ من
ثروة أمريكا .. وفى إنجلترا نجد أن أقل من ٢٪ يملكون ٦٧ و ٥٪
من ثروة بريطانيا ..

وأعطت الاشتراكية احصائيات هامة عن استغلال الدول
الاستعمارية للشعوب المقهورة .. وكشفت عن تقسيم الاسواق بين
الدول الاستعمارية .. كما كشفت عن قيمة الثروات التى ينهبها
الاستعمار من المستعمرات .. وأوضحت طريقة النهب الذى يتم
عن طريق القروض ، أو اقامة المصانع فى المستعمرات لتشغيل
الأيدي العاملة بأجور زهيدة ، والحصول على أرباح مضاعفة ..

.. وتلقت المستعمرات مبادئ الفكر الاشتراكى ، وبدأت النضال
على أسس جديدة ..

الثورة العربية :

أخذت بذور الوعي العربي ، التي انطلقت مع الثورة العربية في النمو .. وكلما اشتد هجوم الاستعمار ضراوة ، كانت الشعوب العربية تتجه نحو كفاح مشترك ضد العدو المشترك .. وكانت الشعوب العربية في الفترة السابقة للحرب تواجه استعمارين .. الاستعمار التركي المتخلف .. والاستعمار الانجليزي الفرنسي الزاحف ..

وتشكلت « الجمعية العربية الفتاة » كما تشكلت جمعية «العهد» التي رأسها عزيز المصري .. وكان هدف الجمعيتين التخلص من الاستعمار التركي الذي كان يسيطر في ذلك الوقت على أجزاء كبيرة من الوطن العربي .. وكان القائمون على هذه الحركة يعملون على انشاء جيش عربي يقيم دولة عربية تضم الشام والعراق وفلسطين .. ثم يرحلون على مصر لتخليصها من الاستعمار البريطاني ..

وقامت الحرب .. وأرادت انجلترا استغلال هذه النزعات في الحركة العربية .. وأدرك عزيز المصري الموقف وأصدر تحذيرا لأعضاء جمعية « العهد » أن ينساقوا الى القيام بعمل عدائي ضد تركيا .. وأوضح لهم أن دخول تركيا الحرب ، سيعرض البلاد العربية التابعة لها للغزو ، لذلك يجب أن يقفوا بجانب تركيا الى أن يحصلوا على الضمانات الكافية ضد الغزو الاستعماري الأوروبي .

ولكن انجلترا اتصلت بالشريف حسين حاكم مكة وراودته على اعلان الثورة العربية على الدولة العثمانية مقابل التعهد باستقلال البلاد العربية .. ووعدوه بالمال والسلاح ..

كما اتصلت بريطانيا بعزيز المصري للبحث معه في اعلان الثورة العربية على الحكم التركي ، ولكن عزيز المصري تمسك بالحصول على

الضمانات اللازمة لاستقلال العرب ٠٠ وصرحت بريطانيا بعزمها على الاعتراف بدولة عربية مستقلة في شبه جزير العرب ٠٠

واعتبر الشريف حسين أنه حصل على عهد الشرف من بريطانيا،
بقيام مملكة مستقلة كبرى ٠٠ وأعلن الثورة ٠٠ كما أعلن استقلال
الحجاز ٠٠

وفي نفس الوقت كانت إنجلترا تتفاوض مع فرنسا وروسيا
القيصرية على مصير الدولة العثمانية ٠٠ واتفقت الدول الثلاث على
أن يكون نصيب روسيا مدينة القسطنطينية مع عدد من الأميال إلى
الداخل على ضفتي البوسفور ، والولايات الأربع الشرقية من الأناضول
المجاورة للحدود الروسية ٠٠ وعلى أن يكون نصيب فرنسا جميع
بلاد الشام ، ما عدا فلسطين ، وأن يكون العراق من نصيب إنجلترا ٠

وهكذا قسمت الدول الأوروبية الاستعمارية تركة تركيا
بينها ، ووزعت الأسواق ، وتقاسمت الشعوب ٠٠

والى جانب هذا ، كانت المساومات تجري بين إنجلترا
والصهيونية ، وأصدرت بريطانيا وعد بلفور الذي وعدت فيه اليهود
بإنشاء وطن قومي ٠٠

وقبل أن تنتهي الحرب ، أدرك الشريف حسين أن إنجلترا
تحاول خداعه بعد أن بلغه تفاصيل معاهدة « سايكس بيكو » التي
عقدت بين إنجلترا وفرنسا وروسيا ٠٠ ولكن إنجلترا أكدت له أن
هذه المعاهدة من اختراع الدعاية التركية ٠٠

وانتهت الحرب ، وحاول الشريف حسين التمسك بما تعهدت
به بريطانيا ، وأرسل ابنه إلى مؤتمر السلام ، ولكن إنجلترا حالت
دون ذلك ودخل مؤتمر الصلح ٠٠ ثم أخذوا يطالبون الشريف حسين
بالاعتراف بمركزهم في العراق والأردن ، ولما رفض تخلوا عنه في

الحلاف الذي كان قائما بينه وبين الملك عبد العزيز آل سعود ..
وتطور النزاع الى حرب ، فقد فيها الشريف حسين عرشه وغادر
الحجاز الى الأبد ..

وكان فيصل بن الشريف حسين قد أعلن عن اقامة حكومة
عربية في دمشق .. فقامت القوات الفرنسية بالزحف الى العاصمة
السورية .. وشهدت سوريا حربا ضارية بين الشعب السوري
والقوات الفرنسية .. ووقعت سوريا تحت قبضة الاستعمار
الفرنسي بعد نضال مرير .. وحروب فدائية ..

وفي العراق .. نشر الجنرال مود في مارس عام ١٩١٧ أن
مصالح العراق قد ارتبطت بمصالح الامبراطورية البريطانية ..
وأدرك العراقيون المؤامرة وبدأت حركات المقاومة السرية ، حتى
انفجرت الثورة في صيف عام ١٩٢٠ .. وأقيمت مشاناق
الانجليز ..

وفي مصر .. انطلقت ثورة الشعب .. وكانت ثورة ١٩١٩
التي شهدت أروع تضحيات الجماهير ..

ولكن الاستعمار كان في نشوة النصر بعد الحرب العالمية
الأولى .. وأعيد تقسيم الأسواق بين الدول الاستعمارية .. ودخلت
فرنسا الشرق العربي ، وتقاسمت مع انجلترا شعوب المنطقة ..
وخرجت ألمانيا وتركيا من ميدان المنافسة الاستعمارية .. أما
الشعب الروسي فقد قام بثورته وأعلن السلام بعد أن حطم أضعف
حلقات الاستعمار .. وسقطت القيصرية والدولة الاستعمارية وقامت
حكومة السوفييت ..

ثورة أكتوبر :

بدأت الحرب الاستعمارية في صيف عام ١٩١٤ ، وكان لنين

من أكبر الدعاة ضدها ... تكهن بها ، وقال قبل وقوعها ان
الرأسماليين يعدون للحرب ، ونادى الشعوب بالوقوف ضدها ..
فلما اشتعلت قال ان الاستعماريين لا يحاربون من أجل الوطن ، وانما
في سبيل أرباحهم .. في سبيل نهب الشعوب الأخرى ..

ووضع لنين التحليل الصحيح لطبيعة الحرب ، وبين أن الحروب
تكون عادلة وغير عادلة .. فالحروب غير العادلة هي حروب الاستيلاء
الاستعمارية التي تشعلها الرأسمالية ضد حركات التحرير الوطني
للسعوب المدافعة عن حريتها واستقلالها .. ان هذه الحروب تقوم
في سبيل تدعيم سيطرة الرأسمالية ومن أجل نهب واستعباد
الشعوب الأخرى ..

أما الحروب العادلة ، فهي في نظر لنين ، حروب الشعوب ضد
الغزاة الاستعماريين ، وحروب التحرر الوطني ..
وظل لنين يكتب ضد الجرائم الدموية للحكومات الاستعمارية ..
مؤد وحشية الحروب التي تشعلها الدول الرأسمالية لتقسيم
الأسواق ، والتنازع من أجل السيطرة على الشعوب ..

وتسببت الحرب في آلام بشرية قاسية ، وضحايا تعدت
الملايين العشرة .. وأدت الى هبوط مستوى المعيشة بين العمال
والفلاحين .. وهبت الجماهير ضد المستغلين .. واشتدت الحركة
الثورية ضد الحرب في كل دول أوروبا .. وازداد عدد المظاهرات
والاضرابات ..

وقامت مظاهرات ضخمة في روسيا ضد الحرب ، اشترك فيها
أكثر من ٢٠٠ ألف عامل .. وحاولت الحكومة القيصرية سحق
الثورة بقواتها المسلحة ، ولكن حكومة القيصر كانت تعاني أزمته
الأخيرة ، وانضمت قوات الجيش الى الشعب في مظاهرات وسقطت
حكومة القيصر الاستعمارية ..

تولى الحكم فى روسيا بعد سقوط القيصر ، حكومة رأسمالية جديدة . . وأدلى وزير الخارجية الجديد بتصريح الى الحلفاء قال فيه « ان الشعب بأسره يريد خوض الحرب العالمية حتى الانتصار النهائي » والحكومة المؤقتة عازمة على الوفاء بتمهدهاتها لحلفائها وفاء كاملا » .

وفى نفس اليوم خرج أكثر من مائة ألف من جماهير الشعب يرفعون شعارات « لتسقط الحرب » « انشروا المعاهدات السرية » . . وحاولت الحكومة ضرب المتظاهرين ، ولكنها فشلت .

وكان لنين قد عاد من منفاه الى روسيا ، واستطاع بذلك خارق ، وارادة حديدية نادرة أن يشعل الثورة وسقطت الحكومة الرأسمالية . . وقامت الحكومة السوفييتية .

وأعلنت الحكومة السوفييتية فور تسلمها السلطة « مرسوم السلام » ، دعت فيه الدول المتحاربة الى عقد هدنة فى الحال ، كما أعلنت أنها ستنشر جميع المعاهدات السرية التى وقعتها حكومة القيصر الاستعمارية مع الدول الاستعمارية الأخرى من أجل تقسيم الأسواق العالمية .

وجاء فى « مرسوم السلام » :

« ان الحكومة السوفييتية ، تقترح على جميع الدول المتحاربة وعلى حكوماتها أن تشرع على الفور فى القيام بمفاوضات من أجل سلم ديموقراطى عادل . . » .

وجاء فى « المرسوم » :

« وتقرر الحكومة أن استمرار هذه الحرب لتقسيم الشعوب الضعيفة المفتسبة بين الأمم القوية والغنية انما هو أبشع جريمة تقترب فى حق الانسانية » .

وجاء أيضا في « المرسوم » :

« كما تعلن الحكومة أنها تلغى على الفور ودون قيد أو شرط كل مضمون المعاهدات السرية التي تهدف الى تأمين مكاسب وامتيازات الرأسماليين الروس أو الى توسيع الأراضي التي اغتصبها الروس » .

وكان اعلان «مرسوم انسلام» ضربة عنيفة للدول الرأسمالية الاستعمارية .. فقد خرجت روسيا من المعسكر الاستعماري وتقف اليوم في معسكر الشعوب .. كما أن الحكومة السوفييتية اصبحت أول حكومة في العالم لا يسيطر عليها الرأسماليون .

وقام الاستعمار بمحاولة حصار الدول السوفييتية ، ودفعت القوى الرجعية والاقطاع داخل روسيا الى حمل السلاح ضد الحكومة الجديدة .. كما أرسلت جيوشا من ألمانيا وتشيكوسلوفاكيا وإنجلترا وأمريكا للقضاء على حكومة الثورة السوفييتية .

وفشلت الثورة المضادة .. وحروب التدخل .. فقد قام العمال وجماهير الشعب في أوروبا بمظاهرات واضطرابات مما أرغم الحكومات الاستعمارية الى سحب قواتها ، بعد أن منيت بهزائم ساحقة في أكثر من ميدان .

وبدأت الدول الاستعمارية الهجوم بأسلوب جديد ، فأقامت سورا حديدا حول الاتحاد السوفييتي ، وقامت بتشويه الثورة السوفييتية بكل وسائل الدعاية الكاذبة والافتراءات حتى تضع ستارا بين هذه الثورة وبين الشعوب المظلومة .

ولكن الثورة كانت قد قامت .. ودعمت وجودها .. وأثبتت الخطوات التي اتخذتها الحكومة السوفييتية أنها تختلف في اتجاهاتها

بل تعارض اتجاهات الدول الاستعمارية ، فأعلنت المعاهدات
السرية .

واكتشفت الشعوب العربية بعد فضح معاهدة ساكس بيكون ،
أن انجلترا خدعت الملك حسين .. وأنها كانت قد وقعت مع فرنسا
وروسيا اتفاقا بتقسيم تركة تركيا .

وأذاعت الحكومة السوفيتية رسالة « الى جميع المسلمين
الكادحين في روسيا وفي الشرق » .. وجاء في تلك الرسالة :

« ان الجمهورية الروسية وحكومتها ومجلس قوميسارى
الشعب ، تعارض كل استيلاء على الاراضى الاجنبية ، فالقسطنطينية
يجب ان تبقى بين ايدي المسلمين . كما اعلنت الحكومة السوفيتية
الغاء المعاهدة التى تنص على تقسيم ايران .. »

واضافت الرسالة :

« انكم يجب ان تكونوا انتم اصحاب الامر فى بلادكم ، وعليكم
ان تنظموا حياتكم بما يلائمكم ، فهذا حقكم ومصيركم فى ايديكم .. »

وقد أبدت الحكومة السوفيتية احتراما كبيرا للمشاعر الدينية
للمسلمين .. فعندما طالب المؤتمر الاقليمى للمسلمين الذى عقد
فى ديسمبر عام ١٩١٧ ، بتسليم نسخة المصحف الشريف الخاصة
بعثمان بن عفان والتى كانت محفوظة فى دار الكتب الروسية الى
المسلمين ، اتخذ مجلس قوميسارى الشعب قرارا خاصا وقعه لنين
يأمر « بتسليم المصحف فى الحال » .

وكتب مدير الشؤون الخارجية فى الاتحاد السوفيتى الى
القنصل السوفيتى فى ايران فى يناير عام ١٩٢٢ يقول له :

« ان سياستنا تجاه الشرق مازالت كما هى مناهضة على طول

الخط للسياسة التي يتبعها الاستعماريون ، فسياستنا تؤيد التطور نحو المستقبل لشعوب الشرق في مجالات الاقتصاد والسياسة وسوف نقدم اليها كل معونة ممكنة في هذا السبيل . . »

وصرح كمال أتاتورك زعيم الثورة التركية قائلا :

« اننا أصدقاء للسوفييت ، لأنهم كانوا أول من اعترف بحقوقنا القومية واحترمها ، ولهذا فان الروس يمكنهم أن يعتمدوا على صداقتنا اليوم وغدا . . »

وكتب لينين الى الأمير أمان الله خان بعد نجاح ثورة أفغانستان ضد الاستعمار الانجليزى ، رسالة قال فيها :

« . . وافغانستان المزدهرة هي في الوقت الحاضر الدولة الاسلامية الوحيدة المستقلة في العالم ، وقد ألقى القدر على كاهل الشعب الأفغانى مهمة تاريخية عظيمة تتطلب منه أن يجمع حول نفسه جميع الشعوب الاسلامية المستعبدة وأن يسير بها في طريق الحرية والاستقلال . . »

وكان من أهم الاجراءات التي اتخذتها الحكومة السوفييتية ، الغاء الديون التي فرضتها حكومة القيصر الاستعمارية على الدول الأخرى ، كما أعلن الاتحاد السوفييتى الغاء الامتيازات التي كانت تتمتع بها روسيا القيصرية في مصر كباقي الدول الاستعمارية .

كما أرسل لينين ، برقية الى سعد زغلول ، أعلن فيها تأييده التام للثورة المصرية ، واستعداده المطلق لمساندة الشعب المصرى في كفاحه الوطنى ، وتقديم العون والمساعدة المادية ، اذا طلبت مصر ذلك .

كانت الثورة الروسية أهم أحداث القرن العشرين ، فكما
يصفها هارولد لاسكي :

« تمثل الثورة الروسية في علاقتها التاريخية بالقرن
العشرين ، نفس وضع الثورة الفرنسية بالنسبة للقرن التاسع
عشر .. »

وواجهت الثورة الروسية ، كما واجهت الثورة الفرنسية من
قبل ، مؤامرات وعدوان القوى الرجعية ، وحروباً عنيفة ، ومقاومة
داخلية من الاقطاعيين .

وظلت الدول الاستعمارية تعاصر الدولة الجديدة ، ولم تعترف
بها في المجال الدولي الا بعد سنوات .. وعلى الرغم من اعتراف
الدول الاستعمارية بالدولة السوفييتية ، فانها حرمت على الدول
الخاضعة لها في المستعمرات ، خلق أية علاقة اقتصادية أو سياسية
مع الحكومة السوفييتية .

كان هدف الاستعمار ، وضع حاجز فاصل بين شعوب
المستعمرات ، وبين ما يحدث داخل روسيا .. فقد رأى الاستعمار
في ظهور هذه الدولة الجديدة نهاية عهد الاستغلال في العالم .

ولكن أحداث التاريخ ، كانت أقوى من رغبات الاستعمار ..
وانطلقت الدولة السوفييتية ، لتصبح قوة مؤثرة في مجرى أحداث
العالم .. قوة تقف في مواجهة الاستعمار .

الفصل التاسع

« .. اكانوا يسلمون مدفعاً او
عربة من (ديترويت) قبل ان يقبضوا
الثمان ، اتسمى هذا عملاً نزيها ؟
انه الدولار .. انه السنت •
انه الدولار والسنت في الحرب
والسلام على السواء .. اى شئ نزيه
هذا ؟ »

آرثر ميلر

بين ثورتين

الحرب .. وشهدت مصر أياما من أخلد أيامها .. في
٩ من مارس عام ١٩١٩ خرج طلبة المدارس في مظاهرة
ضخمة عنيفة تهتف بحياة مصر .. وسقوط الحماية
البريطانية .

وكانت هذه المظاهرة ، شرارة ثورة خاضها الشعب ..
شبابه وشيوخه .. رجاله ونسأؤه .. العمال والفلاحون .. الطلبة
والموظفون .. كل الشعب خرج في صرخة واحدة مدوية ضد
الاحتلال والاستعمار .

انها الثورة .. بالدماء والأرواح .. بالبذل والتضحيات ..
بالكفاح العنيد .

انه الشعب الذي لا يموت يتحرك من جديد ضد أعدائه
وجلاديه .. ضد اللصوص .. ضد الاستعماريين .

قبل الثورة :

كان الرئيس ويلسن رئيس الولايات المتحدة ، قد أعلن
مبادئه الأربعة عشر عند دخول أمريكا الحرب ، وقال فيها :

« والرأى عندى أن تتفق الأمم على قبول مبدأ الرئيس مترو
وتعميم تطبيقه في جميع أنحاء الأرض ، فلا يصبح لامة أن تكره أمة
أخرى على اتباع سياستها ، وانما يجب أن يترك لكل شعب الحق

وحده فى تقرير سياسته ورسم طريقه الذى يراه مؤديا الى التقدم بدون احراج أو تهديد أو ارهاب، لافرق فى ذلك بين شعب ضعيف وشعب قوى .

ولكن سرعان ما انتهت الحرب .. وتنكر ويلسن لمبادئه ، وأرسل القنصل الأمريكى فى مصر ، رسالة الى المندوب السامى البريطانى جاء فيها :

« .. أتشرف باخباركم أن حكومتى قد كلفتنى أن أبلغكم ان الرئيس يعترف بالحماية البريطانية التى أعلنتها حكومة جلالة الملك على مصر .. ومع موافقة الرئيس على هذا الاعتراف، فانه بالضرورة يحفظ لنفسه حق المناقشة فى المستقبل فى تفاصيل ذلك وفى التعديلات التى قد تنتج عن هذا القرار فيما يمس حقوق الولايات المتحدة .. »

وتأكد الشعب المصرى ، أن آماله التى علفها على أمريكا ومبادئ ويلسن قد خابت .. ان عليه أن يعتمد على قوته الذاتية للحصول على حريته ، كما أوضح ذلك مصطفى كامل بعد اتفاق فرنسا وانجلترا .

وعرف الشعب المصرى فى تلك اللحظات ، أن سياسة انجلترا وأمريكا وفرنسا لا تختلف ، فهى نابعة من أساس استعمارى واحد لا يهدف الا لما فيه مصلحة الرأسماليين فى تلك البلاد .

وتيقن الشعب المصرى ، أن الحرب لم تكن دفاعا عن مبادئ الحرية ، أو حماية للمبادئ الانسانية ، بل قامت أساسا لاعادة تقسيم المستعمرات بين الدول الاستعمارية .

وكانت الحرب قد سحقت الجماهير من الغلاء فازدادوا فقرا ، على حين ازداد الاقطاعيون ثراء .

وفي المدن أثرى بعض التجار الوطنيين .. وظهرت مصانع جديدة لسد النقص الذي حدث نتيجة الحرب والحصار الذي قامت به الغوصات الألمانية .. فأنشئت مصانع للغزل والنسيج، ومصانع الدباغة ، ومعاصر الزيوت .. كما زادت المصانع الصغيرة .. وانتعشت الورش .

وفي نفس الوقت ، استطاعت المصانع التي كانت مهددة بالافلاس قبل الحرب ، أن تسترد قوتها .

وهكذا تطورت الرأسمالية الوطنية ، وازدادت ثراء ، كما قوى نفوذها الاقتصادي، وأصبحت تتطلع خلال الحرب الى الصناعة، فقد علمتها الحرب ، وانقطاع الواردات ، مقدار الأرباح التي يمكن أن تجنيها .. وتطلعت الرأسمالية الوطنية الى السلطة السياسية لتحافظ على مكاسبها الاقتصادية .. وزاد التناقض بينها وبين الاستعمار .

وفي نفس الوقت الذي زاد فيه عدد العمال في اثناء الحرب ، زادوا بؤسا تحت ارهاق العمل المضني بأجور زهيدة .. كما تعرضوا للتجنيد وتسخيرهم في الحرب .

وعانت الجماهير خلال فترة الحرب ، بشاعة الاستغلال الاستعماري .. فقد جند الانجليز أكثر من مليون مصري من الفلاحين والعمال .. وكان الكرباج والجلد من الأعمال اليومية في معسكرات المجندين .

واستولت السلطات البريطانية على المحاصيل الزراعية ، بأسعار تقل كثيرا عن أسعارها في السوق .

وفي عام ١٩١٨، احتكرت الحكومة البريطانية محصول القطن جميعه ، وحددت سعر الشراء بأربعين ريالاً للقنطار ، وكان سعر

القطن في الخارج في هذا الوقت ٦٥ ريالا ٠٠ وبلغت خسارة مصر
من هذا القرار نحو ٣٢ مليوناً من الجنيهات .

وحرم المثقفون الوطنيون الوظائف الكبيرة بسد أن تولاها
موظفون من الانجليز ٠٠ كما تعرضوا للاضطهاد والاعتقال .

وظهرت قيادة جديدة للحركة الوطنية ٠٠ وتقدم سعد زغلول
بمطالب الغاء الأحكام العرفية والاستقلال ٠٠ وتآلف الوفد المصري .
وقام الوفد بنشاط ٠٠٠ وعقد الاجتماعات ٠٠٠ وأرسل
البرقيات الى الخارج .

واعتقلت السلطات البريطانية سعد زغلول وبعض أعضاء
الوفد .

وانفجرت ثورة الشعب .

كانت البداية مظاهرة الطلبة ٠٠ وسقط الشهيد الأول عندما
تعرض الجنود البريطانيون للمتظاهرين .

وتجددت المظاهرات ٠٠ وأطلق الجنود الانجليز على المتظاهرين
رصاص البنادق والمدافع الرشاشة ٠٠ وسقط ١٦ شهيدا .

واستؤنفت المظاهرات في الحلمية والغورية والظاهر وشبرا..
وطلبة الأزهر ٠٠ وضاعت السلطات البريطانية قواتها العسكرية
في سيدنا الحسين والأحياء الوطنية .

وأضرب المحامون ٠٠ وأغلق التجار متاجرهم ٠٠ وتعطلت
المواصلات .

وخرجت أول مظاهرة نسائية في تاريخ مصر ، لتقدم احتجاجا
مكتوبا الى المندوب السامي البريطاني .

وأضرب عمال عنابر السكك الحديدية ٠٠ وكان عددهم أكثر من أربعة آلاف عامل ٠٠ وأتلفوا مفاتيح قضبان السكة الحديد ، ثم قطعوا الخط الحديدي بالقرب من امبابه ، فتعطلت قطارات الوجه القبلى .

وانتقلت الثورة الى مدن الاقاليم ٠٠ والقرى ٠٠ واشترك فى مظاهرات الاسكندرية طلبة المدارس والمعاهد الدينية والتجار والعمال ، وعمال السكة الحديدية ، والفنارات والأحواض وورش الحكومة وغيرهم ٠٠ وفى بورسعيد ودمنهوز ورشيد وطنطا وفى بركة السبع وقدين ودسوق وسمنود وزفتى وكفر الشيخ والمحلة والمنصورة وميت غمر ، وكفر الوزير ونقها الاشراف ودتريط ٠٠ أما مدينة زفتى فقد أعلنت استقلالها .

وقامت ثورة الفلاحين فى الوجه البحرى كله ٠٠ وكانت الثورة فى الوجه القبلى أشد عنفا ٠٠ وانقطعت المواصلات تماما بين الوجه البحرى والوجه القبلى ٠٠ وفى ديرموس وديروط هاجم الفلاحون قطارا قادمًا من الافصر ، وكان به بعض الضباط والجنود البريطانيين وقتلوا ثلاثة ضباط انجليز وخمسة جنود .

وشاهدت أسيوط معركة ، اشتركت فيها طائرتان ، وألقيت القنابل على النوار ٠٠ وقتل الكولونيل هيزل برصاص الشعب .

ويروى الرافعى مشاهداته فيقول على اثر رحلة قام بها فى النيل خلال أيام الثورة ، فكذب :

« كنا نرى الأهالى فى كل ناحية، نساء ورجالا ، شيبا وشبابا يحيوننا على الجانبين ، دون أن يعرفوا أشخاصنا ٠٠ وينادون بهتافات لم نعهدها من قبل فى الطرق الزراعية ، وعلى شواطئ الترع ، فكنا نسمع نداء : لتحي مصر ٠٠ ليحي الاستقلال ٠٠ لتحي الثورة ٠٠ »

وتجددت المظاهرات فى شهر أبريل ، وأضرِب الموظفون ثلاثة أيام ٠٠ وشهدت القاهرة اضرابا عاما فى ٣ من ابريل ، وأطلقت النيران ٠

واجه الطلبة والعمال والفلاحون رصاص القوات الانجليزية فى كل مكان ٠٠ فى المدن ، وفى الريف ، وفى المصانع ٠٠ ولم تهدأ الثورة ٠

وشكلت المحاكم العسكرية ٠٠ ووجه القائد العام البريطانى انذارا بحرق القرى ٠٠ وصدرت الأوامر بعدم خروج سكان القرى من بيوتهم بين غروب الشمس وشروقها ٠٠ وحاولت السلطات البريطانية غلق الأزهر ٠٠ ورفض شيخ الجامع ٠

٠٠ تم قامت القوات العسكرية الاستعمارية بجرائم وحشية بشعة ضد القرى الآمنة ٠

فى الساعة الرابعة بعد منتصف الليل يوم ٢٥ من مارس قام مائتا جندي بريطاني بمدافعهم الرشاشة وهاجموا بلدتي العزيزية والبلدشين ٠٠ ثم أشعلوا النار فى منازل القريتين ، وأصيب الناس بالذعر ، وخرجوا من منازلهم فرارا من الحريق ، وحاصروهم الجنود ٠٠ وسلبوهم ما يحملون من حل أو مال ٠٠ ولم يفلت من أيديهم حتى النساء ٠٠ فكانوا يتقبون فى ملابسهم ويمزقون ثيابهن ، واعتدى بعض الجنود على أعراض الفتيات والسيدات ، أمام أعين ضباطهم ٠

وتعرضت نزلة الشويك لنفس المصير ٠

ولم يهدأ كفاح الشعب ٠٠ بل ازداد عنفا ٠٠ وبلغ عدد الشهداء أكثر من ٣ آلاف شهيد من الفلاحين والعمال والطلبة والموظفين ٠

وتقدم العمال الى قيادة الثورة بمطالب ٠٠ منها :

● جعل قناة السويس ملكا للأمة .

● تعديل الدستور وقانون الانتخاب حتى تصبح الأمة مصدر السلطة الحقيقية .

● تمثيل العمال والفلاحين تمثيلا صحيحا في البرلمان .

٠٠ ولكن قيادة الثورة التي كانت تضم عددا من الاقطاعيين وكبار الملاك خشيت على ثرواتها من الثورة ٠٠ وانتكست بالتضحيات والشهداء والكفاح الثورى ٠٠ واستسلمت للانجليز .

وفشلت الثورة ٠٠ فشلت في القضاء على الاستعمار والاقطاع وكبار رجال المال المتصلين بالراسمالية الاستعمارية .
وكما يقول الميثاق :

« ان الاستعمار فى هذه الفترة أعطى من الاستقلال اسمه وملب مضمونه ٠٠ ومنح من الحرية شعارها واغتصب حقيقتها .
وهكذا انتهت الثورة باعلان استقلال لامضمون له ٠٠ وبحرية جريح تحت حراب الاحتلال ٠٠ »

أزمة الرأسمالية :

كانت ثورة ١٩١٩ ، واحدة من ثورات متعددة اشتعلت فى المستعمرات ٠٠ فى الهند والصين ٠٠ وسوريا والعراق والجزائر ٠٠ وكوريا واندونيسيا ٠٠ وأمريكا اللاتينية ٠٠ وكانت صرخة الشعوب واحدة ٠٠ « الحرية ٠٠ الاستقلال » ٠٠ ولكن لم يكن هناك تنظيم أو تنسيق يجمع ثورات الشعوب فى وحدة ضد العدو المشترك . واستطاع الاستعمار أن يطفىء نيران ثورات الشعوب .

ومى نفس الوقت ، عاد الجنود المحاربون الى بلادهم .. لم يخل بيت من بيوت الفقراء من جنسدى شهيد .. ووجد الجنود المائدون بعد أن تم تسريحهم أنهم يواجهون البطالة والجوع .. وانكشفت الخدعة .. لم تكن الحرب من أجل أوطانهم .. أو من أجل الشعوب ، بل كانت من أجل حفنة الرأسماليين الاستعماريين الذين أثروا من ارتفاع الأسعار ... ومن صناعات الحرب .. فازداد الأثرياء ثراء .. وازداد الفقراء جوعا .

وانطلقت الثورات .. من أجل إعادة توزيع الثروة .. من أجل العدالة الاجتماعية .

وقامت الثورة فى ألمانيا .. واذا بأعداء الأمس يعقدون الاتفاقيات .. ووضع الرأسماليون الألمان أيديهم فى أيدي الانجليز والفرنسيين .. وانتقلت القوات الألمانية من مواجهة القوات الفرنسية والانجليزية الى مواجهة الشعب وأخذت ثورة الشعب الألماني فى قسوة ووحشية .

وفى المجر عام ١٩١٩ .. أعلنت حكومة شعبية .. وقامت القوات الامبريالية والاستعمارية لتي كانت تتقاتل بالأمس ، واتجهت فى تحالف ووحدة للقضاء على حكومة المجر .

وفى فرنسا قامت اضطرابات بين قوات الجيش والأسطول ضد الرأسماليين الاستعماريين .

وفى إيطاليا .. امتلأت الشوارع بالمظاهرات .. واستولى الجماهير على المصانع التى أترى أصحابها من الحرب .. وأجريت الانتخابات ، وفاز الاشتراكيون بـ ١٥٠ مقعدا فى البرلمان .

وكان لهيب الثورة يقفز من مكان الى مكان بين كل شعوب أوروبا .. بعد أن بلغ التضخم المالى أقصى مداه .. وقاست الملايين أبشع أنواع البؤس .

وانتقلت الثورة الى بلغاريا وبولندا ، وقام الرأسماليون
الاستعماريون باخمادها فى قسوة ووحشية .

.. فى يناير عام ١٩٢٢ ، عقد مؤتمر الحلفاء القدياء فى
احدى مدن فرنسا الجنوبية ، لمواجهة ثورات شعوب أوروبا ..
ويصف موسوليني ، هذا المؤتمر ، قائلا :

« كان اجتماعا بديعا زاد فى بهجته حفاوة الفرنسيين وكرم
وفادتهم .. »

فالشعوب تجوع .. والرأسماليون الاستعماريون يجمعهم
كرم الضيافة لتخطيط الثورة المضادة .
وظهر « موسوليني » فى ايطاليا .

كانت ايطاليا فى أسوأ حالاتها بعد الحرب .. عجز فى الميزانية
بلغ مليارات الليرات .. ارتفاع من البطانة بعد تسريح آلاف الجنود
.. ازدياد نسبة الجريمة .. وخسائر الحرب من الأرواح ، كانت
٦٥٢ ألف قتيل ، ٤٥٠ ألف مشوه ، مليون جريح .

وشكل « موسوليني » جماعات ترتدى القمصان السود ،
ويحملون أعلام الفدائيين ، ويرددون الشعارات والأناشيد فى
حماس .. وأطلق عليهم اسم « الفاشيست » .

ووجد الرأسماليون الاستعماريون من تجار الحروب ، استغلال
حزب الفاشيست فى ضرب الحركة الاشتراكية ، بعد أن رأوا
مصانهم ورعوس أموالهم مهددة .. وكذلك أصحاب الأراضى
الاقطاعيون الذين أرادوا حماية ممتلكاتهم .. وقاموا بامداد
موسوليني بالأموال ، وأنشئوا له الصحف .. وأقاموا له دور
الحزب .. وقدموا له السلاح .

وراح الفاشيون يتقدمون كمنقذين للبلاد .. وانتشرت

فصائل من الفاشيين مسلحة بالمدى والهراوات والمسدسات
والبنادق ، وهاجموا اعمال والفلاحين .

عندما دعا الاشتراكيون الى اضراب عام لتحقيق مطالب العمال
ورفع أجور ومرتبات الموظفين ، أعلن موسوليني ، أن الفاشيين
سيمنعون الاضراب ، اذا لم تقمعه الحكومة .

ثم زحف موسوليني بفرق القمصان السود ، واستولى على
الحكم مؤيدا من الملك ، وأصحاب البنوك ، وأصحاب رؤوس الأموال
.. وأسكت كل صوت للشعب .

وأعلن حفيظة أهداف حركته .. فهو استعماري من نوع جديد
.. استعماري وقع .. فالاستعماريون القدامى ، كانوا يعلنون
أهدافهم بكلمات معسولة ، وتخدير اشعوب بالاماني الكاذبة ..
فانجلترا دخلت الهند بدعوى تطوير حياة شعبها وادخال الحضارة
.. وقامت بغزو مصر تحت شعار إعادة الأمن الى البلاد .
.. أما موسوليني .. فقال بصراحة :

« ليس حقنا الاستعماري هو مجرد نتيجة منطقية لمشكلة
ازدياد السكان لدينا ، وانما هو حق يفرضه لنا مركزنا الاقتصادي .
.. فالصومال ، وهي أولى مستعمراتنا لا تزال كما هي دون تغيير ،
وهي لا تبشر بشيء من التقدم ..

وأخيرا شكرا للحاكم دى فيشى على سياسته ، فقد استعاد
الأمر في بلاد الصومال بأكملها ، وبدأ جانب كبير من رؤوس الأموال
الاطالية يتجه نحو تلك المستعمرة لاستغلالها في الأعمال المختلفة ،
لتفسيح المجال أمام الايطاليين ، .

واستهل موسوليني خطابه في مجلس النواب ، بعد أن تسلم
الحكم قائلا :

« كان في وسعي أن أحيل هذه القاعة الشاحبة الى معسكر مسلح لذوى القمصان السوداء ، وأن أجعل منها معرضا للجنث . بل كان في امكاني أن أقفل أبواب البرلمان بالمسامير .. »
.. هكذا عبر الفاشستى الأول عن سياسته الخارجية والداخلية .. فاذا كان الاستعمار هو أعلى مراحل الرأسمالية ، فان الفاشية كانت قمة الانحطاط الخلقي والسياسى الذى وصلت اليه الرأسمالية الاستعمارية .

وكان موسوليني فى ذاته يمثل قذارة الفكر الفاشى ويقول عنه كريستوفر هيبرت فى كتابه :

« لم يكن موسوليني يكتنث بالنظافة كثيرا .. ولطالما أغرق نفسه بالكولونيا مستعيضا بها عن الاستحمام .. »
وكان « زير نساء » ، لم يتردد عن اقامة علاقات مع زوجات أعوانه من الفاشيين والنبلاء والحاديات والممثلات .

وبعد عشر سنوات من تولى موسوليني الحكم فى ايطاليا ، زحف الى الحكم فى المانيا رجل لا يقل وحشية وقسوة عن الطاغية الايطالى .

كان الاشتراكيون فى ألمانيا ، قد أحرزوا فى الانتخابات غالبية الأصوات .. كان الشعب يرى فى الاشتراكية المخرج من الأزمة التى بلغ فيها عدد العاطلين أكثر من ٦ ملايين عاطل ، وأفلست ألوف الصناعات الصغيرة .. ولم يكن فى وسع الصناعة الألمانية البقاء على الأسس الرأسمالية ، ما لم تتوافر لها الأسواق الخارجية .. أى المستعمرات .

وقام رجال البنوك واصحاب رموس الأموال الكبيرة ، وكبار رجال الصناعة بخلق موسوليني آخر فى المانيا .

وجاء الرأسماليون الألمان بهتلر وفرقه ذات «القمصان البني» لحكم ألمانيا .. وضرب الاشتراكية ، والوقوف ضد ارادة الملايين التي أعطت أصواتها الحزب الاشتراكي .
ففي اللحظة التي كان يعاني الشعب الألماني آلام البطالة والجوع والفقر والبؤس ، قام كبار رجال الصناعة بتقديم ملايين الجنيهات الى هتلر وحزبه النازي ..

وكانت صناعات الفحم والفولاذ المصدر الرئيسي للأموال التي تدفقت من الصناعيين لمساعدة هتلر .. ثم تقدمت مؤسسة فاربن للصناعات الكيماوية ، وشركة همبورج - أمريكا للملاحة .. وشركة صناعة الفحم في وسط ألمانيا .. ومؤسسة كونتى لصناعة المطاط .. وأوتو وولف من كبار الصناعيين في كولون ، والبارون كورت فون شرويد من أصحاب البنوك في كولون .. وعدد من كبار البنوك .. ومؤسسة « الأليانس » التي تعتبر من أكبر مؤسسات التأمين في ألمانيا .

ووصل هتلر الى السلطة .. وتولى الحكم ، وواجه الشعب الألماني وحشية « حزب النازي » .

وكما قامت الجماعات الفاشية في إيطاليا بالهجوم على الجماهير الإيطالية ، قامت فرق النازي المسلحة بأعمال القتل الوحشية ضد أحزاب العمال .. وهاجمتها في أنديتها وفي الشوارع .. وفي كل يوم شهداء .. وساد الارهاب ضد الملايين التي أعطت أصواتها للاشتراكيين .. وسقط شهداء من المثقفين والطلبة والعمال ، وكل فئات الشعب التي كانت تقف ضد طغيان الرأسمالية الاستعمارية .
.. ثم أحرق النازي مجلس النواب « الريخستاغ » واتهموا معارضيههم بتدبير الحريق .. وقامت فرق النازي، تجوب الشوارع وتقتحم البيوت وتلقى القبض على الضحايا .

وفي عام ١٩٣٤ ، شهدت ألمانيا حماما نلدم أقامه هتلر
لمعارضيه من أصدقائه وأعدائه على السواء .. وكانت فرق العاصفة
النازية تدخل عليهم بيوتهم وترميهم بالرصاص بغير محاكمة ..
وقتل أكثر من ألف شخص في تلك المجزرة .

واستسلمت ألمانيا .. وسيطر كبار الرأسماليين الاستعماريين
على تسيير السياسة والاقتصاد وقادوها الى النهاية !

وكان هتلر أبشع من موسوليني في انحلاله وانحطاطه الخلقى
.. كان هو الآخر يمثل قمة انحلال وانحطاط الخلق الرأسمالي
الاستعماري .. كان أقرب المقربين اليه من المنحرفين جنسيا ومن
القتلة المحكوم عليهم بالنسجن .. أما هو فقد أقام علاقة شاذة مع
ابنة أخته .

.. وهكذا كانت الرأسمالية الاستعمارية تواجه أزمتها
وانهيارها بقيادات وأخلاقيات وسياسة تحمل كل ألوان القذارة
والانحلال والوحشية .

وكانت سياسة النازي التي وضعت لخدمة الرأسمالية العالمية
تتلخص في الكلمات التي أعلنها هتلر :

« اذا كان في امكان بعض الشعوب أن تقدم لنا دما نقياً كمنا
فاننا نقبله ولو اقتضانا الأمر خطف أطفال هذه الشعوب ، وتربيتهم
مع اطفالنا .. ولا يهمنا من أمر هذه الشعوب ان عاشت برخاء
أو ماتت من التضور جوعاً كالانعام ، الا بقدر ما نحتاج الى أفرادها
عبيداً لأرقاء لحضارتنا »

وأخذت النازية والفاشية تمارس سياستها في التطبيق ،
تبحث عن الأسواق للرأسماليين .. وتنقب عن مستعمرات تضع
أيديها عليها .

• ووجدت إيطاليا منفذا ، وزحفت قواتها الى الحبشة .
• واستعملت الغازات السامة ، وأحدث آلات انفتك والقتل .

• واتجهت ألمانيا الى احتلال أوروبا .

وبدأ الصراع يشتد بين الدول الاستعمارية التي تضع أيديها
على أسواق العالم والدول الاستعمارية التي تبحث عن أسواق لها .
• وظل العالم وشعوبه ، يتراقص بين أيدي هذه القوى الغاشمة حتى
انحدر الى الحرب العالمية الثانية .

مصر قبل الحرب :

كانت أحداث العالم فى كل خطواتها ، تنعكس على كفاح
الشعب المصرى فى نضاله ضد الاستعمار الانجليزى .

• فعندما اشتدت الحركات الاشتراكية فى أوروبا • ربط
الاستعمار بينها وبين تأييد العمال لنورة ١٩١٩ • وألقى وزير
خارجية انجلترا خطابا فى ٢٥ من نوفمبر عام ١٩١٩ قال فيه عن
الثورة المصرية :

« • لقد بدت علامات القلق فى شهر أغسطس بين دوائر
العمال فى المدن ، وكانت الأسباب السياسية لهذا اقتصادية ، ولكن
المحرضين حرفوها الى أهداف سياسية • »

وفزعته الحكومة الاقطاعية • حكومة السراى ، وكبار الملاك
وبدأت تعمل على ضرب النورة •

وحدث الانقسام فى قيادة ١٩١٩ ، قيادة وطنية تمثل التجار
وأصحاب المصانع الوطنية والفلاحين المتوسطين • وقيادة تمثل
الاقطاع والرجعية وتحالف مع الاستعمار •

وبينما كانت القيادة الوطنية ، توجه نداءاتها الى الشعب

بمقاطعة البضائع الاجنبية ، وايداع اموالهم فى بنك مصر لتنشيط الصناعة والتجارة المصرية . . كانت القيادة الرجعية تعمل على التهادن والتحالف مع الاستعمار .

واسقطت وزارة سعد زغلول الوطنية ، وجاءت حكومة الرجعية وأصدرت افوانين المضادة للحريه ، وقامت بمحاصرة المصانع فى الاسكندرية ، واضلعت الرصاص على العمال . . وسادت موجة من الارهاب . . وامتد الارهاب الى الريف . . فوجدت القيادة الوطنية نفسها معزولة عن الجماهير . . وبدأت نهادن الانجليز وتتفاوض على حقوق مصر .

وفى سنوات الازمة العالمية ، بينما كان موسوليني يتولى الحكم فى ايطاليا ، وجاء هتلر بعده الى حكم المانيا . . شاهدت مصر ديكتاتوريين صغيرين .

كان أولهما محمد محمود باشا ابن الاقطاع ، وأطلق على نفسه « اليد الحديدية » . . ومارس سلسلة من الارهاب ضد الشعب .

ثم جاء صدقى باشا الذى أطلق عليه « أبو السباع » فقامت المظاهرات ضد صدقى فى القاهرة والمنصورة وبورسعيد والاسماعيلية والسويس . . والاسكندرية التى قامت بأعنف المظاهرات وسقط من شهدائها ٢٠ قتيلا وخمسمائة جريح . . وأضرب عمال عنابر بولاق والورش الأميرية ، فقبولت مظاهراتهم بمنتهى القسوة والعنف . . ولم يعرف عدد القتلى ، فقد حالت حكومة صدقى بين أهل الشهداء والحصول على جثث أبنائهم ، ودفنهم فى مقابر مجهولة . وسقط صدقى . . وجاء نسيم .

لم تتوقف المظاهرات . . وفى عام ١٩٣٥ ، شهدت القاهرة والاسكندرية وبعض المدن والقرى اضرابات ومظاهرات تطالب بالجلد .

وكان خطر الحرب العالمية ، قد بدأ يتأكد .. فرأت انجلترا
أنها ستعرض لأخطار شديدة ، لو ظلت المطالب المصرية معلقة دون
حل ، وفاجأتها الحرب .

وسعت انجلترا الى توقيع معاهدة ١٩٣٦ .. وتنص على
الآتى :

« انجاد انجلترا لمصر فى حالة الحرب ، وأن تقدم مصر لانجلترا
فى حالة الحرب أو خطر الحرب أو قيام حالة دولية مفاجئة يخشى
خطرها ، جميع التسهيلات والمساعدات ، بما فى ذلك استخدام
الموانى والمطارات وطرق المواصلات واعلان الأحكام العرفية ، واقامة
رقابة وافية على الانباء .. وأن يرخص لقوات الاحتلال أن تبقى
فى القتال لضمان الدفاع عنها ، وأن تبقى قوات الاحتلال فى القاهرة
والاسكندرية ثمانى سنوات ، حتى يتم بناء ثكنات فى منطقة القتال
نهائيا .. وان تستمر المعاهدة عشرين عاما »

كانت معاهدة ١٩٣٦ تنص فى مقدمتها على استقلال مصر
.. بينما نصوصها تسلب هذا الاستقلال كل قيمة له وكل معنى .

وشهد المجتمع المصرى فى الفترة ما بين ١٩١٩ و ١٩٣٦ تمزقا
وتحولات خطيرة .

استطاع الاستعمار أن يثبت جذوره .. وأن يتسلل الى كل
الحياة المصرية .. فقد اندمجت رؤوس الأموال الانجليزية والمصرية
فى كثير من المشروعات .. واستمرت سيطرة الانجليز على الجيش
والبوليس والتعليم .. وكانت خطة الاستعمار هى الاستعانة
بالسراى وبعض رجال المال لتحقيق مكاسبه وتدعيم سيطرته ..
وكان لا يتردد فى ارسال بوارجه اذا لزم الأمر ، كما حدث عندما

أرادت حكومة الوفد اقرار مشروع انتخاب العدد ٠٠ وتعديل قوانين الاجتماعات والمظاهرات ورفع القيود الاستعمارية .

كما تولى الاقطاعيون الحكم ، وعمدوا الى فرض ديكتاتوريتهم على الجماهير ٠٠ وضربوا قوى الشعب فى تحركاتها ضد الاحتلال .

ورأت الشركات الأجنبية تعيين عدد من المالىين المصريين أعضاء فى مجالس اداراتها لحماية مصالح هذه الشركات ٠٠ ولكي يضمنوا جهاز الدولة فى خدمة هذه الشركات ٠٠ وكان أغلب الوزراء الذين اشتركوا فى وزارات معادية للشعب ، أعضاء فى مجالس ادارة شركات أجنبية .

وتعرضت الصناعة المصرية للافلاس ٠٠ ففى اللحظة التى كانت فيها المخزونات تتكدس فى شركة المحلة عقدت حكومة محمد محمود اتفاقا مع مصانع لانكشير الانجليزية لزيادة حصة مصر من واردات النسيج البريطانية .

وقامت الحكومات الرجعية بمد امتياز البنك الاهلى ، وعلقت جريدة « التيمس » قائلة :

« ٠٠ ان الحكومة المصرية ، استطاعت أن توفق بين ما تدعيه الروح الوطنية من حقوق وبين ضرورة استمرار حالة البنك كمؤسسة كانت دائما تحت الرقابة البريطانية ٠٠ »

وفى نفس الوقت كان بنك مصر يتعرض لازمة توشك أن تقضى عليه بسبب الاسائيب الملتوية والانتقامية الموجهة ضد البنك من جانب الوزراء المرتبطين بالمصالح البريطانية .

ووجدت الصناعة المصرية الكبيرة نفسها ، مضطرة أمام الضغط الاستعماري والشركات الأجنبية أن تتعاون مع الرأسمال

الأجنبي ٠٠ وتكونت شركة مصر للتأمين بمعونة مؤسسة بورنچ البريطانية ٠٠ ومصنع الغزل الرفيع للقطن فى كفر الدوار الذى تم انشاؤه مع مجموعة من أقوى الاتحادات الاحتكارية فى بريطانيا ٠٠ كما أن شركة مصر للحريز الصناعى ، تعاونت مع رأس المال الأمريكى ، ولها عضو أمريكى فى مجلس ادارتها •

وكادت تصفى المكاسب البسيطة التى نالها الشعب من ثورته عام ١٩١٩ ٠٠ رؤوس الأموال الأجنبية تحل محل رؤوس الأموال المصرية ٠٠ الصناعة الأجنبية تغزو الصناعات المصرية ٠٠ رأس المال الأجنبى يزداد زحفاً ، ويرتفع رصيده وأرباحه من عرق الشعب المصرى ليحول أن الحارج لاثراء الرأسمالية الاستعازية •

كل شىء ينهار ٠٠ وحالة أصحاب الصناعات الصغيرة ، والموظفين والعمال والفلاحين تزداد سوءاً أمام ارتفاع أسعار المعيشة المتزايد •

ازمة ٠٠ وحرب :

منذ انتهت الحرب العالمية الأولى ، والعالم الرأسمالى يواجه ازيمات متتالية ٠٠

ان الانتاج الرأسمالى الذى لا يقوم على التخطيط بل يتجه نحو الربح يحتاج الى أسواق جديدة لتصريف منتجاته ٠٠٠ ولكن الحرب العالمية الأولى لم تخلق أسواقاً جديدة ، بل العكس أدت الى انكماش أسواق الاستغلال ٠٠

فالثورة الروسية أغلقت الأبواب أمام نهب الاحتكارات العالمية الاستعمارية ، وحرمتها سوقاً ضخمة كانت تعطيها فى الماضى أرباحاً هائلة ٠٠

وقد أدى نمو الصناعة فى الدول الرأسمالية ، وعدم وجود أسواق كافية لتصريف المنتجات .. أدى ذلك الى تكديس البضائع .. وتوقفت المصانع أو اشتغلت بأقل من طاقتها ، مما أدى الى بطالة دائمة ..

واهتز العالم الرأسمالى فيما بين الحربين ، ثلاث مرات بأزمات زيادة الانتاج ..

بدأت أول أزمة عام ١٩٢٠ ، وبلغ عدد العاطلين وأنصاف العاطلين فى الدول الرأسمالية الى أكثر من ٤٠ مليوناً .. وانتهت الأزمة عام ١٩٢٣ ..

وفى عام ١٩٢٩ ، وقع العالم الرأسمالى فى أزمة عنيفة لم يشهد مثلها من قبل .. وامتدت الأزمة أربع سنوات شهدت أبشع أنواع البؤس والشقاء ..

وفى أمريكا وحدها بلغت نسبة البطالة بين مجموع العمال ٢٥٪ .. وهبطت الاسعار ٣١٪ .. وبينما كانت ارباح المؤسسات عام ١٩٢٩ حوالى ٨ مليارات ، بلغ العجز عام ١٩٣٢ حوالى ٣ مليارات .. وكان هذا وصف الأزمة فى أمريكا :

« أربعة عشر مليون انسان بلا عمل .. مستأجرو الأرض يتركونها .. البنوك مغلقة .. المؤسسات الاقتصادية تنهار واحدة بعد الأخرى .. »

ونظم العاطلون عن العمل مواكب الجوع .. وقام الفلاحون بمنع المحجوزات القضائية ، ونظموا مواكب السير الى واشنطن ..

وكانت الأزمة تنتقل من دولة رأسمالية الى أخرى ، بسرعة غريبة .. وقدر عدد العاطلين فى العالم الرأسمالى بحوالى ٣٠ مليون عاطل ..

وللخروج من الازمة فى امريكا ، اضطرت الدولة الى شراء
الفائض من المنتجات ..

ويقول هنرى كلود الاقتصادى الفرنسى :

« ماذا تصنع الدولة بهذه الكميات الهائلة من المنتجات ؟ هل
تبيعها من جديد ؟ ذلك غير معقول لأنها أقيمت على شرائها منعاً
لتضخم السوق بها .. هل تهبطها ؟ مستحيل .. لأنها تحرم
المنتجين بذلك من آخر زبائنهم .. وما دام البيع والهبة غير مقدور
عليهما ، فليس من حل أمامها فى هذا النظام ، الا أن تبيدها .. »

وأحرقت أمريكا مئات الاطنان من القمح والبن ، كما قتلت
أكثر من ٦٤٠ ألف رأس من الاغنام ، وألقى فى الترع مئات الآلاف
من أوطال اللبن .. كل هذا والناس تتضور جوعاً .. انه شيء
رهيب لم يحدث فى تاريخ الانسانية ..

ولم يخفف الازمة الا انتخاب روزفلت رئيساً للولايات
المتحدة ، وأخذ بنظام « المنهج الجديد » ..

وفى عام ١٩٣٤ ، قامت محاولات لانقلابات فاشية فى فرنسا
والنمسا .. ولكنها فشلت ..

أما فى المانيا .. فقد واجهت مشكلة ٢٥ مليون عاطل ،
بالاتجاه الى سياسة التسلح .. كما فرضت الخدمة العسكرية ،
فكان خير وسيلة لتشغيل الأحداث العاطلين ، وضمهم بين جدران
الثكنات ، وكما قالت مجلة الحالة الاقتصادية .. ان الانفاق على
المجندين فى معسكرات التدريب ، هو أقل تكاليف من توزيع
تأمينات البطالة على العاطلين .. وانتعشت المانيا بعد أن انفتحت ٩٠
مليار مارك على التسلح ..

وفى نفس الوقت استطاع الدكتور شاخت وزير الاقتصاد

الألماني بحيلة قذرة ، أن يستولى على أسواق أوروبا .. فاستغل الأزمة الزراعية التي اجتاحت أوروبا ، وأعلن استعداد ألمانيا لشراء القمح والذرة والماشية التي لا تستطيع دول أوروبا بيعها .. ولما تمت الاتفاقيات أعلن أن ألمانيا ليس لديها نقد أجنبي ، وستدفع الثمن بضائع وسلعا مصنوعة ..

.. وهكذا سيطرت ألمانيا على أسواق بلغاريا ، واليونان ، والمجر ، ورومانيا .. وانتزعتها من يد إنجلترا وفرنسا وأمريكا .. وشهد العالم فترة من الصراع الرهيب .. اتجه نحو سياسة التسليح ومحاولات لحطف الأسواق ..

وقامت اليابان بمهاجمة الصين ، واحتلت منشوريا لتجعلها سوقا لها .. وهاجمت إيطاليا الحبشة .. ثم حاولت اليابان غزو الصين كلها .. واحتلت ألمانيا أراضي النمسا ، ثم جزءا من أراضي تشيكوسلوفاكيا ..

وجاء عام ١٩٣٧ لتجد إنجلترا نفسها مهددة بفقد أسواق آسيا أمام الغزو الياباني .. وأسواق أوروبا أمام الغزو الألماني .. ووجدت أمريكا نفسها في نفس المأزق .. وأعلن روزفلت أن « حرية التجارة أمر أساسي لاقتصاد أمريكا » .

.. ان الرأسمالية الاستعمارية تريد مزيدا من الربح ... ولا تجده الا في الأسواق الخارجية ..

واشتد الصراع . فسياسة حل الأزمات بالتسلح تدعو الى استعمال هذه الأسلحة ، لتستمر مصانع الأسلحة في انتاجها .. كما أن الصراع على اقتسام الاسواق لا بد أن يؤدي الى الصدام .. واندلعت نيران أبشع حرب عالمية ، شهدتها البشرية ، وكادت

تؤدى الى فنائها .. ففى خلال سنوات الحرب ، كان السباق على
أشده بين ألمانيا وامريكا للوصول الى القنبلة الذرية .. ولو وصل
الوحش الالماني الى سر القنبلة الذرية قبل فنائها ... لشهدت
الانسانية فناءها ..

.. وما حدث خلال الحرب ، يكشف كل أسرار الرأسمالية
العالمية الاستعمارية ..

اندفع جنون الرأسمالية النازية ، فى وحشية ، لم تشهد
أظلم عصور البربرية مثيلا لها .. كان الانسان فى العصور
البدائية ، يواجه الحيوانات المفترسة ، فتلتهمه ويستريح .. أما
الرأسماليون النازيون فقد اندفعوا فى سبيل الأسواق والربح الى
ما لا يمكن أن يتخيله عقل مجنون ..

استولت المانيا على تشيكوسلوفاكيا ... ثم بولندا ...
واحتلت فرنسا .. ثم وجهت الصواريخ المدمرة الى انجلترا ...
وأخيرا ، اتجهت الى فتح أكبر أسواق أوروبا .. وزحفت قواتها
لتمحو الاتحاد السوفييتى ..

وفى كل خطوة يزداد انهم الى الدماء .. وتتفجر وحشية
الجنون ..

.. بعد احتلال تشيكوسلوفاكيا ، قرر هتلر ادماج نصف
الشعب التشيكى فى الحياة الألمانية بنقلهم عبيدا أرقاء الى المانيا ..
أما النصف الآخر ، ولا سيما المثقفون ، فقد نصت التقارير السرية
على وجوب ابادتهم ..

وفى بولندا .. قال هتلر فى تعليماته :

« خلق البولنديون خصيصا للقيام بالأعمال التافهة ...
وارى من نافلة القول .. التأكد من ازالة النبلاء البولنديين من

الوجود ، ومهما يكن في هذا القول من قسوة ، فمن الواجب ازالته
من الوجود حيثما كانوا .. »

وعندما اقتربت الجيوش الألمانية من آبار البترول في القوقاز
.. أصدرت النازية تعليماتها الى رجالها ..

« على السلاف (الروس) أن يعملوا من أجلنا .. أما اذا لم
تكن في حاجة اليهم ، فإن الموت هو مصيرهم .. وختمت دفن
الموتى أمور لا لزوم لها .. والتعليم خطر ، فكل شخص متعلم علو
مقبل .. أما الدين ، فأننا نتركهم احرارا فيه ، كوسيلة الهاء لهم
.. أما الغناء ، فلن يحصلوا منه الا على الضرورى »

.. وهكذا كانت الرأسمالية الاستعمارية ، تعامل الشعوب
التي تقع تحت قبضتها .. الموت .. والجهل .. والجوع ..
والسخرية من الدين ..

ويقول أحد الدبلوماسيين الألمان الذين تولوا الحكم في
المقاطعات الروسية التي احتلتها القوات الألمانية :

« .. سرعان ما اكتشفت شعوب أوروبا الشرقية البدائية
بما لديها من غرائز فطرية .. أن شعار « التحرر من البلشفية »
الذي ترفع ألمانيا لواءه ، ليس الا ذريعة لاستعباد هذه الشعوب»
.. وكان هتلر ومعاونوه ، يصدرون الأوامر والتعليمات
في كل منطقة يحتلها الألمان .. وأصدر هتلر في بولندا الأمر
التالى :

« .. من حق كل صاحب عمل أن يوقع العقاب البدنى في
عمال مصنعه .. ومن الواجب انتزاع العمال من بيوتهم ، وأن
يقدم اليهم المأوى فى الاسطبلات وما شابهها .. ومن الواجب الا
تكون هناك قيود على مثل هذه الأعمال .. »

أما بالنسبة لاسرى الحرب .. فنقرأ تقرير أحد الزعماء النازيين :

« .. في معظم الحالات كان قادة المسكرات يمنعون الغذاء من الوصول الى أيدي الأسرى ، اذ كانوا يفضلون قتلهم جوعا .. وفي حالات كثيرة ، كان الحراس يطلقون النار على الأسرى اذا عجزوا عن السير من أثر الجوع أو الاجهاد .. »

ونفذ النازي عملية قتل الرهائن ، التي استعملها الانجليز في الهند وجنوب افريقيا ، في كل المناطق التي احتلوها .. فكان يقتل مقابل كل جندي الماني خمسين أو مائة من الرهائن .. وأعدم الألمان في فرنسا خلال فترة الحرب أكثر من ٢٩ ألفا من الرهائن ، وأعدم في بولندا نحو ٨ آلاف من الرهائن ، وفي هولندا نحو ألفين ..

وكانت عمليات الأعدام بالجملة تتم على نطاق واسع .. وفي محاكمة نورمبرج لمجرمي الحرب .. روى أحد المهندسين الألمان عملية تنفيذ الأعدام في إحدى قرى أوكرانيا الروسية ، وكان الهدف تصفية سكان القرية وعددهم خمسة آلاف ..

قال :

« مضيت مع مراقب العمل عندي الى حفائر الأعدام مباشرة . وسمعت طلقات نارية تتوالى بسرعة وراء أحد المرتفعات الأرضية .. ورأيت رجالا ونساء واطفالا نزلوا من السيارات ، ووقف أمامهم ضابط نازي في يده كرباج ، يأمرهم بخلع ملابسهم .. ووضع كل نوع من الملابس في مكان معين .. وشاهدت أكثر من ألف زوج من الأحذية ، وأكواما هائلة من الملابس الداخلية ..

» .. وبعد ان أصبحوا عراة من الملابس ، وقفوا دون صراخ أو بكاء في جماعات عائلية ، يقبل كل منهم الآخر في انتظار اشارة الموت .. ولم أسمع خلال الخمس عشرة دقيقة التي وقفتها اى تدمير ، أو توسل ، أو طلب للرحمة ..

.. ورأيت امرأة عجوزا ، تضم طفلا لا يتجاوز عمره العام .. وكانت تهدده بحنان .. والطفل يناغيها في فرح ، ووقف الوالدان على مقربة . وقد اغرورقت عيناهما بالدموع ..

وهتف رجل الحرس النازى الذى كان يقف وراء تلى من الرمال الى زميله بكلمات لم أسمعها .. وسرعان ما عد زميله ٢٥ شخصا وامرهم أن يتجهوا الى ما وراء التل الصغير ..

ومشيت الى هناك .. ووجدت نفسى اواجه قبرا هائلا . ورأيت عددا كبيرا متراصا من الجثث بعضها فوق بعض بحيث لا يظهر من الجثة الا رأسها .. ورأيت بعض الجثث مازال يتحرك . وبعضهم يدبر رأسه ، ليكشف أنه ما زال على قيد الحياة .. وكانت الحفرة قد امتلات الى ثلثيها ، وقدرت عدد من فيها بنحو ألف شخص .. وتطلعت الى الرجل الذى كان يطلق النار . انه أحد الحرس النازى ، وقد جلس الى حافة الحفرة الضيقة وكانت قدماء تدليان فيها . وهو يحمل في يده مدفعا رشاشا ، ويدخن سيجارة ..

«ورأيت نحو من ثلاثين من العراة منبطحين قرب الحفرة . كان بعضهم لا يزال على قيد الحياة . وسرعان ما صدر الأمر الى الأحياء الباقين بالقاء الجثث فى الحفرة . ثم صدر الأمر اليهم بأن يستلقوا فيها . واطلقت النار على رقابهم .. وانى لأقسم بالله ، اننى ما رويت غير الحقيقة .. »

.. وصدر أمر فى عام ١٩٤٢ بتغيير الاساليب المتبعة فى

إعدام النساء والأطفال ، وأصبح الإعدام يتم في « عربات الغاز »
التي قامت بصنعها شركات صناعية في ألمانيا ..

وهكذا لم يكتف الرأسماليون الاستعماريون من الربح
بصنع أسلحة الدمار ، بل جروا وراء أرباح صنع أجهزة
التعذيب ..

وجاء دور « معسكرات الإبادة » .. وكان يتم في معسكر
« أوشويتز » في بولندا ، قتل ستة آلاف بالفازات في اليوم
الواحد .. وقال قائد هذا المعسكر أمام محكمة نورمبرج :

« .. كنا نعترف أن المهمة قد انتهت عندما يتوقف
الصراخ ، وكنا ننتظر عادة ، حوالي نصف ساعة قبل أن نفتح
الأبواب لإخراج الجثث . وعندما نرفع الجثث كان الفدائيون
من رجالنا يتولون انتزاع ما بأيدي الموتى من خواتم وساعات
ذهبية وما في أفواههم من أسنان ذهبية .. »

وكشفت الوثائق التي نشرت بعد الحرب . كيف كان رجال
المال في ألمانيا يتنافسون للحصول على عمليات بناء الوسائل
اللازمة للموت والتعذيب ..

وفازت شركة توييف وأولاده ، وهي شركة لصناعة أجهزة
التدفئة بالمنافسة لإنشاء فرن حرق الجثث في معسكر أوشويتز .

واشتركت شركة ديدييه للإنشاءات في مناقصة لبناء فرن
في معسكر نازي بلغراد ، وقالت في رسالتها : إنها تقدم وسائل
حديثة ، وتترح استخدام شوكة معدنية تتحرك على دواليب
لإدخال الجثث إلى الأفران ..

وأكدت سجلات المحاكم أن عددا كبيرا من رجال الأعمال
الألمان ، بالإضافة إلى مؤسستي كروب وفاربين ، قد اشتركوا
في هذه الأعمال للحصول على مزيد من الأرباح لشركاتهم ..

ومن المؤلم أن عددا من الأطباء ، قاموا بإجراء التجارب الطبية التي كانت تجرى على الحيوانات .. قاموا بإجرائها على أسرى الحرب ، والمعتقلين .. فأجريت تجارب « تطعيم » العظام ، وتجارب في التعقيم ، وتجارب « التجمد » في مياه مثلجة ، وجربت معهم العيارات المسمومة ، وغاز الخردل .. وتجارب قدرة الإنسان على الحياة على المياه الملحة ..

ويعصف سجين نمسوى شاهد تجارب « غرفة الضغط » قائلا :

« كنت أراقب شخصا من نافذة غرفة الضغط ، كيف يستطيع السجين مقاومة الفراغ في الداخل الى أن تنفجر رئتاه .. وكنت أرى السجين يصاب بالجنون ، فيأخذ في شد شعره بيديه محاولا تخفيف الضغط . وكثيرا ما رأيته يمزق رأسه ووجهه بأصابعه وأظافره .. وكانت هذه الحالة في العادة تنتهي بالموت »

كانت الحرب جنونا ، أطلقها الرأسماليون العالميون لاقتسام الأسواق ، والمستعمرات ، ودفعت الشعوب ثمنها دما وموتا وتعذيبا ..

انقسم الرأسماليون الى فريقين .. المحور ، ويضم ألمانيا وإيطاليا واليابان .. والحلفاء ، ويضم انجلترا وأمريكا وفرنسا .. وكل من المعسكرين وراءه الدول التابعة ..

ودخل الاتحاد السوفييتي الحرب عام ١٩٤١ عندما هاجمت القوات النازية فجأة الأراضي الروسية ..

وانتهت الحرب ، وكشفت عن مأساة خيالة دامية رهيبة .. فمنذ قيام هتلر ، كانت الاحتكارات الرأسمالية الأمريكية

مثل فورد وجنرال موتورز هي التي تمهده بالمساعدة لتنفيذ برنامج التسليح .. وعلى أثر استيلاء هتلر على ميونخ وبعد سحق فرنسا ، أرسل مدير الجنرال موتورز برفقة تهنة الى هتلر ..

وفي عام ١٩٤٦ ، قام المدعى العام المساعد في أمريكا بالسفر الى برلين للتحقيق في حقيقة العلاقات التي كانت قائمة بين حكومة هتلر وبين بعض المواطنين الامريكيين .. وعندما عاد الى أمريكا صرح قائلا :

« لقد اظهرت تحقيقاتنا اننا لم نكن نقدر مدى النشاط النازي في الولايات المتحدة حق قدره . فعندما قصدت الى ألمانيا ، شعرت ان أعظم خطر يتهدد أمريكا انما ينبع من هذه الصلات القائمة بين رجال الصناعة الألمان ، ورجال الصناعة الامريكيين ، وادركت ان مجموعة من اشهر رجال المال في أمريكا كانت تشارك في المؤامرة النازية .. »

.. ففي اللحظة التي كان الجندي الألماني يقتل الجندي الامريكي ، كان رجال المال في أمريكا يمقدون الصفقات مع النازي ، وقيمون علاقات اقتصادية بهدف الحصول على اكبر ربح ! .

وكانت العمليات السرية ، بين رجال الاعمال الامريكيين والالمان ، تتم في بنك العقود العالمية في سويسرا ..

وأعلن ترومان في عام ١٩٤٢ ، وكان رئيسا للجنة مجلس الشيوخ المكلفة بالتحقيق حول الدفاع الوطني ، يقول :

« .. وحتى بعد دخولنا الحرب ، كانت الستاندرد أويل أوف نيوجرسي تبذل جميع جهودها من اجل تثبيت احدى منتجاتنا الحربية الهامة تحت سيطرة الحكومة الألمانية .. نعم ، انها الخيانة . ولا يمكن فهمها على نحو آخر .. »

.. كل هذه الخيانات والمؤامرات لم تقف في طريق الشعوب .. وانطلق الإنسان في كل مكان يصد الوحش النازي والوحوش المايلين .. وكانت انتصارات ستالينجراد والعلمين ، بداية النهاية لأبشع حرب شهدتها البشرية .. سقط فيها حوالي ٤٦ مليون انسان بين قتيل وجريح .. بلغت خسائر الاتحاد السوفيتي وحده منها ٢٥ مليونا ..

وخرجت أوروبا من الحرب ، وقد خسرت ٢٦٠ مليار دولار .. في حين ربحت أمريكا ٤٢ مليار دولار ..

وإذا كانت الحرب العالمية الأولى ، قد حولت أمريكا من بلد مدين الى بلد دائن ، وجعلت منها أول دولة رأسمالية في العالم ... فان الحرب العالمية الثانية ، أتمت عمل الحرب الأولى فجعلت من أمريكا الدولة الدائنة الوحيدة في العالم ..

مصر .. والحرب :

شهدت مصر صراعا عنيفا داخلها .. الملك والرجعية تقيم صلات سرية ومشبوهة مع عناصر وجواسيس الفاشيست .. والرأى العام يصفق كلما أنهالت ضربات النازي على إنجلترا ..

.. كان الموقف يدعو الى البلبلة والرتاء .. واستغلت الدعاية الفاشية كراهية المصريين للإنجليز ، وأعان موسوليني أنه « حامى حمى الاسلام » .. ومضت الدعاية النازية تهمس أن هتلر قد أعلن اسلامه وأصبح اسمه « محمد هتلر » .

وعندما تقدمت الجيوش النازية والفاشية الى العلمين خرجت مظاهرة صغيرة في القاهرة تهتف « الى الامام يا روميل » .. ولو تقدم « روميل » لاقبمت في مصر « افران الفازات » .. ولكن روميل تفهقر ..

ولمست انجلترا الحق الذي يملأ قلوب المصريين ، فاضطرت الى التراجع عن موقفها ، ورفعت يدها عن حماية الرجعية بل حاصرت سرأى الملك بدباباتها ليووقف عمليات الاتصال بالنازى والفاشيست ٠٠ وسلمت انجلترا بعودة دستور ٢٣ ، وجاءت حكومة جديدة لتهدئة المشاعر المضطربة ..

وسمحت انجلترا لمصر : بعد دخول الاتحاد السوفيتى الحرب ، ان تقوم علاقات دبلوماسية لأول مرة بين الاتحاد السوفيتى ومصر ..

وحدثت تغييرات هامة فى الاقتصاد المصرى خلال الحرب .. انقطعت الواردات الاجنبية . فنشأت صناعات جديدة .. وتوطدت صناعات كادت تفلس قبل الحرب ..

وزادت الرأسمالية الوطنية قوة من الناحية الاقتصادية ، كما زاد عدد العمال فى مختلف المصانع والقطاعات ..

وانتهت الحرب ، واندرك العمال والرأسمالية الوطنية ، أنهم مهددون بغزو البضائع الانجليزية والاجنبية من جديد .. واصبحت مصالح الرأسمالية الوطنية ، وحياة العمال مهددة من الرأسمالية العالية ..

وقامت قوى الشعب فى مظاهرات عنيفة تطالب بالجلء .. وشكلت اللجنة الوطنية للعمال والطلبة .. وفى ٢١ فبراير ١٩٤٦ شاهدت القاهرة مظاهرة تضم أكثر من ١٠٠ ألف .. وفى ميدان الاسماعيليه (التحرير) اخترقت اربع سيارات بريطانية مصفحة الصفوف . وغضبت الجماهير ، واشعلت فيها النار .. وسقط ٢٣ شهيدا .

وفى نفس اليوم كان رجال سلاح الطيران الهندى يطوقون

شوارع بمبای هاتفين « تحيا الثورة » واشترك معهم بحارة
الاسطول الهندي ، وتضامن الشعب مع البحارة ، وتصادم مع
القوات البريطانية ، واستشهد ٢٥ هنديا ..

واشتعلت الثورات في كل مكان ضد الاستعمار .. في مصر
.. والهند .. وسوريا .. والعراق .. واندونيسيا .. في آسيا
وافريقيا ..

وامتد الصراع في مصر ، حتى ألغيت معاهدة ١٩٣٦ ، من
جانب مصر .. وأعلن الكفاح المسلح في ديسمبر عام ١٩٥١ ..
ولكن الملك والرجعية تحالفت مع قوى الاستعمار ، وتأمرؤا على
أخماد حركة المقاومة .. وأعلنت الأحكام العرفية .. وسسلا
الارهاب .

ولكن الثورة كانت أعمق مما تخيل الاستعمار والرجعية ..
كانت ثورة شعب عريق .. ثورة شعب خالد .. ولم تمض الا
سنة أشهر على الارهاب الرجعي ، حتى انطلقت ثورة ٢٢ يوليو .

الفصل العاشر

« خلق الله الإنسان ليعمل من أجل
لقمه ، وقضى بأن من يأكلون دون
أن يعملوا إنما هم لموصى مكتوب »
غاندي

ثورة ٢٣ يوليو

ثورة ٢٣ يوليو ..

قامت

ولم تكن تلك الثورة تعبيراً عن ارادة فرد .. أو جماعة .. أو فئة .. بل كانت ثورة ٢٣ يوليو ، انعكاساً لارادة الملايين في العالم الذين أضناهم الاستعمار ، وأهلكهم في حربين استعماريّتين .. وكانت الثورة تعبيراً عن ارادة الشعب العربى ، في نضاله الطويل ضد الاستعمار والتخلف ..

وكانت امتداداً لثورة عرابى ، وثورة ١٩١٩ ، وكفاح الأجيال من أجل حياة أفضل للملايين من أبناء الشعب .. وكان عبد الناصر رمزا لنضال الشعب ، وآملا للمستقبل .. فجمع ايمان عرابى .. وحماس مصطفى كامل .. وفكر محمد فريد .. وارادة التغيير عند الجماهير ..

وانطلقت ثورة ٢٣ يوليو فى جو عاصف مشحون .. فواجهت الملك والاقطاع .. والاحتلال الانجليزى .. ومُؤامرات الاستعمار الجديد ..

وبدأت الثورة بتصفية أعدائها التقليديين .. الملك والاقطاع .. انها عناصر الخيانة التى تأمرت على الثورة العرابية ، وهى نفسها التى خانت تضحبات ثورة ١٩١٩ .. وهى التى حطمت كفاح عام ١٩٥١ ..

وسقط الملك ..

.. ثم صدر قانون تحديد الملكية .. فكان اول ضربة توجه الى الاقطاعيين .. وتخلصت مصر من اوكار الخيانة التي ارتبطت بمصالحها بمصالح الاستعمار ..

وواجه الاحتلال البريطاني ، لأول مرة منذ سبعين عاما . مصيره دون عون من الداخل .. لا مساومة .. ولا تهادن .. ولا خيانات .. ولا استسلام ..

وتم جلاء القوات البريطانية ..

ولكن القوات الانجليزية ، لم تكن الا مظهراً للاستعمار .. وبقي الجوهر الذي قامت من اجله الثورة العربية . واشتعلت ضده ثورة ١٩١٩ .. انها قبضة الرأسمالية الاستعمارية التي تستنزف دم الشعب ..

وواجهت ثورة ١٩٥٢ ، ما خلفه الاحتلال من استغلال .. وتخلف .. وفقر ..

ولقد حاولت حكومات المساومة . والتهادن حل المشكلة عبثا .. ويرسم وزير المالية الذي قدم مشروع ميزانية ١٩٣٨/٣٧ ، صورة الحالة في مصر ، قائلا في خطابه :

« يجب ألا يكون هناك طبقة من الشعب في حالة من الفقر المدقع ، الفقر الجائع ، الفقر الاسود ، الذي لا تتوافر معه الضرورات الاولى للحياة في بلد يعيش فيه الانسان معيشة جديرة ببنى الانسان .. »

ثم يقول :

« ان في مصر طبقة من الفلاحين الذين يمثلون مجموع الشعب ،

أولئك في مجموعهم يعانون فقرا مروعا ومنوعا .. هذا الفقر المادى الذى لا يجد ما يكفيه أو يقيه ، والفقر الصحى الذى لا يجد من الوسائل الصحية ما يحميه شر الأمراض المستوطنة التى تضعف المصاومة الجثمانية : على العمل ، والفقر الادبى الذى لا يجد من التعليم والتهديب معنى يجعل من الحياة شيئا معنويا يسمو بالعقل عن مستوى الحقل .. »

ولم يتحول الكلام الى عمل ، فالاحتلال يحمى اللصوص الذين يسبون كل هذا الشقاء ..

ويتكرر الكلام ، عند عرض ميزانية ١٩٤٦/٤٥ ، وتقول وزارة ذلك العهد :

« ان المأساة الحقيقية تتمثل فى دخل الفلاح المصرى الذى بلغ الحد الأدنى بين دخول فلاحي العالم بأجمعه ، فى حين ان الثروة الزراعية المصرية تبلغ نسبيا حدا عاليا .. »
ويعدد الوزير العوامل التى أدت الى انخفاض مستوى المعيشة والانتاج .. كالآتى :

- زيادة السكان بنسبة تفوق الزيادة فى الأراضى المزروعة .
- الاعتماد على محصول واحد للتصدير .
- انحطاط المستوى الصناعى ، والصحى ، والتعليمى .

تم جاءت فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية .. وزادت مأساة الشعب المصرى .. فيقول التقرير الاقتصادى للأمم المتحدة الذى صدر عام ١٩٥٥ عن مصر ، ما يلى :

« هبطت نسبة المساحة المزروعة الى مجموع السكان من ٢٠ من الهكتار فى عام ١٩٠٧ للفرد الواحد ، الى ١١ من الهكتار فقط عام ١٩٥٢ »

ويقول :

« هبطت نسبة مساحة الحاصلات للفرد الواحد من ٢٩ عام ١٩٠٧ للفرد الواحد الى ١٨ من الهكتار عام ١٩٥٢ » .

وفي الصناعة ٥٠ يقول التقرير :

« كانت سنوات الحرب فترة نمو للصناعة المصرية .. غير أن هذا النمو لم يكن متوازنا . وقد أصيب بنكسات عرقلت سيره ، ففي السنوات التي تلت الحرب مباشرة ، قضت المنافسة الأجنبية على بعض الصناعات الحديثة التي نشأت أثناء الحرب .. »

ويقول التقرير :

« العوامل التي تعرقل سبيل التقدم الصناعى فى مصر . وفى غيرها من بلدان الشرق الأوسط .. نذكرها بإيجاز :

١ - فقر غالبية السكان ، بسبب ضآلة الفائض الزراعى ، يحد كثيرا من السوق المحلية .

٢ - تفضيل الطبقات الموسرة للسلع الأجنبية يزيد فى ضعف القوة الشرائية بالنسبة الى المنتجات المصنوعة محليا .

٣ - رعوس الأموال كانت نادرة .. ان الزيادة فى الدخل العائد من الزراعة لا تزال كما كانت فى الماضى تنفق اما فى شراء الأراضى ، أو اقامة المباني ، أو اقتناء الكماليات » .

هذه هى حال مصر كما واجهتها ثورة ١٩٥٢ ، ولم يكن هناك سوى حل واحد ، كافحت مصر من أجله ، أكثر من مائة عام .. وبذلت التضحيات والدم للوصول اليه .. وكما قال تقرير اتحاد الصناعات الصادر عام ١٩٥١ ..

« وواضح ان ازدياد عدد سكان البلاد على الشكل الذى

نشهده الآن يقتضى منا العمل على تدبير الوسائل التى تمكنهم من مواجهة لوازم الحياة .. ولا سبيل لتدبير هذه الوسائل سوى سبيل اعداد المصانع ، والأراضى الزراعية الجديدة ، التى تكفل العيش لهم ولأبنائهم من بعدهم .. »

مشكلة ثانية ، واجهت ثورة ١٩٥٢ .. القطن ..

ومشكلة القطن كانت تمثل الدمار بالنسبة للشعب المصرى ، فسياسة الاحتلال البريطانى التى حولتنا الى مزرعة قطن لتغذية مصانع النسيج فى انجلترا ، تركتنا فى حيرة ..

أحسست بريطانيا ، ان العالم لم يعد يقبل على منتجاتها القطنية ، فقللوا من الاهتمام بصناعة المنسوجات القطنية .. وانخفض استيرادها من القطن المصرى ، بمقدار ١٥ مليون قنطار فى موسم ١٩٥١ - ١٩٥٢ ..

وكان لا بد من البحث عن أسواق جديدة .. ولكن كانت هناك عقبة أخرى فى هذا الطريق يشرحها الدكتور عبد الرازق حسن قائلا :

« فما زالت سياستنا تجاه القطن ارتجالية ، ولعل السبب فى ذلك ما كان يتمتع به المرتبطون بزراعته وتجارته من قوة فى تسيير زفة الحكم ، بل وسيطرتهم على الصحف السيارة بنفسها ، فكم من المقالات دبجت كلما تدخلت الدولة فى السوق بتنظيم البيع أو بالشراء ، لان معنى التدخل حرمان تجار القطن من الأرباح فى صورة عمولة أو سمسة ناتجة عن بيعه أو شرائه ، أو المضاربة فيه ، وإذا أدركنا أن قيمة المصدر فى سنة ١٩٥١ مثلا وصلت ١٦٤ مليون جنيه فلو كانت أرباح أولئك التجار لا تتعدى ٢٪ مثلا لكان معنى هذا حصولهم على ربح يقدر بـ ٣٣ من مليون الجنيه ، وهو مبلغ ليس

بالهين ، ولا سيما اذا كانت هذه التجارة محصورة في يد محدودة
من التجار ٠٠ ٠

كل هذا واجهته ثورة ١٩٥٢ ٠٠ مشاكل الصناعة ٠٠ مشاكل
الزراعة ٠٠ مشاكل التجارة ٠٠

فكانت حياتنا بعد ٧٠ عاما من الاحتلال مكبلة بقيود دامية
تستنزف عصب حياتنا ٠٠ فالاموال التي تحتاجها الصناعة، تسلبها
الشركات الاجنبية في صورة ارباح وتحولها الى الخارج ٠٠ والتجارة
تتحول الى ارباح لبيوت القطن الاجنبية ٠٠ والزراعة تتدهور ٠٠
والحياة مغلقة امام الشعب ٠٠

واذا اردنا أن نترجم هذه المعاني الى الحياة المعيشية اليومية،
وجدنا أبواب الوظائف مغلقة أمام خريجي الجامعة ٠٠ حتى الأطباء
والمهندسين ، كانوا يلجئون الى نقاباتهم لحل مشكلة التعطل ٠٠ أما
المحامون وخريجو الكليات النظرية فقد تراكم العاطلون منهم دفعة
بعد دفعة ٠٠ وأخذت الرأسمالية الوطنية في الافلاس ، فكانت
حالات الافلاس ٣٠ حالة عام ١٩٤٧ ارتفعت الى ١٠٩ حالة عام
١٩٥١ ٠٠ وانخفضت الاجور ٠٠ وزاد عدد العاطلين ٠٠

وكان لا بد من مواجهة صريحة لكل هذه المشاكل المعقدة ٠٠
كنا في حاجة الى سوق واسعة لتصريف قطننا ٠٠ كنا في حاجة
الى مصانع من بلاد لا يضرها أن تقام صناعة في بلادنا ٠٠ كان لا بد
من تجارة واسعة مع العالم ٠٠

ولكن الاستعمار أراد أن يقيم حولنا سورا من الاسلاك
الشائكة ٠٠ وكان حلف بغداد ٠٠ ورفضت مصر سياسة الاحلاف
٠٠ ومارس الاستعمار أول أساليب العدوان ، عندما حرك اسرائيل
في فبراير عام ١٩٥٥ لتقوم بهجومها على غزة ٠٠

مؤتمر باندونج :

فى « فلسفة الثورة » التى كتبها الرئيس جمال عبد الناصر . .
يقول :

« لم يعد مفر أمام كل بلد أن يدير البصر حوله خارج حدود بلاده ليعلم من أين تجيئه التيارات التى تؤثر فيه ، وكيف يمكن أن يعيش مع غيره . .

ولم يعد مفر أمام كل دولة من أن تجيل البصر حولها تبحث عن وضعها وظروفها فى المكان ، وترى ماذا تستطيع أن تفعل فيه ، وما هو مجالها الحيوى ، وميدان نشاطها ، ودورها الإيجابى فى هذا العالم المضطرب ؟ »

وجاء مؤتمر باندونج ، تعبيرا عما كان يخالجه ثورة ٢٣ يوليو .
والحقيقة أن مؤتمر باندونج كان نتيجة حتمية للمشاكل التى واجهت الدول المتحررة بعد طردها لقوى الاحتلال الاجنبى من أرضها . .
أو الدول التى كانت تسعى لطرد الاحتلال من أراضيها . . ،

وتناول مؤتمر باندونج المشاكل الاقتصادية . . والسياسية . . والثقافية . . والاجتماعية . . والتخلف الذى تركه الاستعمار وراءه . .

واعترف المؤتمر الآسيوى - الافريقى بالصفة العاجلة لتنمية التطور الاقتصادى فى المنطقة الآسيوية - الافريقية . وأبدى رغبة عامة فى التعاون بين البلاد المشتركة ، على أساس المصلحة المتبادلة ، واحترام السيادة القومية . .

وأدركت الشعوب أنه بدون التخلص من التخلف الاقتصادى وبدون رفع المستوى العام للمعيشة ، فسوف يتعذر عليها أن تحتفظ

بالاستقلال السياسى وتظفر به .. وأن اكتساب الاستقلال السياسى ،
انما هو نقطة البدء لكفاح متواصل ضد الامبريالية تواجه خلاله
أقطار الشرق الخيار ، فاما أن تفنى كأقطار مستقلة ، وتتحول مرة
أخرى الى مستعمرات ، واما أن تكافح فى سبيل التطور الاقتصادى
والتقدم الاجتماعى ..

ووجدت مصر فى باندونج ، أسواق العالم تفتح أمامها .. فقد
اعترف المؤتمر بالضرورة الحيوية لتثبيت التجارة فى المنطقة ، وأقر
مبدأ توسيع نطاق التبادل التجارى والدفع المتعدد الجوانب ..
وبذلك تم حل مشكلة القطن .. ومشاكل تصريف الانتاج
الصناعى ..

كان الاستعمار يدرك ، ما يمكن أن يتمخض عنه مثل مؤتمر
باندونج .. وكانت مصر فى حاجة الى السلاح لصد عدوان اسرائيل ،
وأبدت بريطانيا استعدادها لتسليح مصر ، بشرط أن يسكت
عبد الناصر فى باندونج ، ويترك بريطانيا تنفذ سياسة الاحلاف ..
ولم يسكت عبد الناصر فى باندونج .. بل خطا خطوة أطول
نحو تدعيم استقلالنا .. فبعد أن رفضت انجلترا وأمريكا بيع
السلاح لنا ، حطم عبد الناصر احتكار السلاح .. وتمت أول صفقة
مع تشيكوسلوفاكيا .. ثم روسيا ..

وأرادت انجلترا وأمريكا أن تردا على صفقة السلاح .. فأعلنتا
سحبهما العرض الخاص بالسد العالى ..

وأعلن عبد الناصر تأميم القناة ، التى سلبها الاستعمار ..
والتى تحول الملايين من أرباحها الى الخارج ..

واهتزت الرأسمالية العالمية من هول الصفحة .. انها لأول مرة
تجروا فيها دولة متحررة حديثا أن تتحدى الاستعمار العالى ، وأن

تسترد موردا من الموارد التي يسلبها الرأسماليون العالميون ..
وقام الاستعمار الانجليزى والفرنسى بتحريك اسرائيل ، ليقدا
العدوان الثلاثى الاول ..
كان هدف العدوان الثلاثى الاول .. غزو مصر .. واسقاط
عبد الناصر ..
وفشل العدوان عن تحقيق اهدافه .. بل أثبتت المعركة قوة
الحكم الوطنى .. ونأييد الجماهير الشعبية فى مصر والعالم العربى
لعبد الناصر ..
وظهر من خلال المعركة ثورة دول باندونج ، وأترها فى
المحيط الدولى ..

كما تأكدت قوة العالم الاشتراكى العسكرية ..
أما أمريكا فقد اتخذت مظهر الحياد فى العدوان الثلاثى
الاول .. كانت تواجه تناقضا عنيقا .. فهى من ناحية ، لا تريد أن
يستعيد الاستعمار القديم مراكزه .. ومن ناحية أخرى ، كانت ضد
سياسة التأميم .. وعلى الرغم من هذا الموقف المتردد ، اتخذت
أمريكا الخطوات التالية ، تأييدا للرأسمالية العالمية :

● جمدت أرصدة مصر فى البنوك الامريكية وقيمتها ٥٠ مليون
دولار .

● رفعت الاحتكارات الامريكية أجر البواخر التي تشحن
حمولاتها الى الموانئ المصرية ، لتفرض حصارا اقتصاديا على مصر .

● سحبتم أمريكا مرشديها من قناة السويس .
وعلى الرغم من هذا كله ، فشل العدوان الثلاثى الاول ..

وفى أعقابها ، أمتت مصر الشركات والمؤسسات والبنوك الانجليزية والفرنسية ٠٠ ثم البلجيكية ٠٠ وقضت مصر على الاستعمار الاقتصادي ٠٠

وانتهى الاستعمار القديم ٠٠ انتهت شركة قناة السويس ٠٠ وشركة سكة حديد الدلتا ٠٠ وبنك باركليز ٠٠ وغيره من البنوك الانجليزية والفرنسية ٠٠ وشركات التأمين ٠٠ وكل المؤسسات والشركات الاجنبية التى مهدت للاحتلال البريطانى منذ أكثر من سبعين عاما ٠٠ والشركات التى قامت خلال فترة الاحتلال ٠٠ وبذلك استردت مصر ثرواتها المنهوبة ٠٠

بور سعيد ٠٠ والتاريخ :

كانت معركة العدوان الثلاثى الاول ٠٠ أو معركة بورسعيد نقطة تحول فى تاريخ الشعوب ٠٠

قامت أضخم دولتين فى أوروبا الغربية ، وصنيعتهما اسرائيل بالعدوان ٠٠ وفى الماضى ، كان الاستعماريون يتمكنون بقوات أقل كثيرا ، من اخضاع الشعوب ، وتحقيق أهدافهم ٠٠ ولكن فى هذا العدوان كانت قوات الاستعمار المسلحة بأحدث الاسلحة ، تقف بلا حول ولا قوة أمام الشعب الذى نهض لحماية حريته واستقلاله ٠٠

ان المقاومة المتعددة الجوانب التى أحاطت بهذا النصر ٠٠ وهى مقاومة الشعب المصرى ٠٠ الانذار السوفيتى ٠٠ احتجاجات وغضب الدول الآسيوية - الافريقية ٠٠ كل هذا جعل ثورة ٢٣ يوليو تقفز بآثارها من تغيير للواقع المصرى ، الى تأثير ضخم فى حركات التحرر العالمية ٠٠

لقد غدت ثورة ٢٣ يوليو ، منذ معركة بورسعيد رائدا لثورة الشعوب المظلومة ضد الرأسمالية العالمية ٠٠ وأصبحت قوة يهابها

الاستعمار ، ويحاول تحطيمها .. ولكن ثورة ٢٣ يوليو ، كانت تنمو .. وتنبض بالحياة ..

حاولت فرنسا أن تزيد قواتها في الجزائر الى ٨٠٠ ألف جندي لضرب الثورة .. ولكنها فشلت ..
وتوالت الانتصارات .. فى عام ١٩٥٧ استقلت مستعمرة ساحل العاج (غانا) ، وفى عام ١٩٥٨ استقلت غينيا ..

وفى عام ١٩٦٠ حصلت الكاميرون ، وتوجو ، ومالى ، ومدغشقر ، والصومال .. وداهومى ، والنيجر ، والكونغو على استقلالها .. استقلت ١٧ دولة افريقية .. وسمى عام ١٩٦٠ « عام افريقيا » ..

كما حصلت قبرص على استقلالها .. وفى عام ١٩٦١ ، استقلت سيراليون ، ورواندا أوروغوى ..

وفى عام ١٩٦٢ استسلمت فرنسا أمام ثورة الجزائر .. وأعلنت جمهورية الجزائر الديمقراطية الشعبية ..

وفى عام ١٩٦٣ أعلن استقلال كينيا وزنبار .. ثم زامبيا فى عام ١٩٦٤ ..

.. كان هدف المدوان الثلاثى تحطيم ثورة ٢٣ يوليو ..
فاذا بالثورة تزداد قوة ، وتزداد مناعة باستقلال دول آسيا وافريقيا التى خرجت من براثن العدو الاستعمارى ..

فاذا عرفنا أن بلاد آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية ، بها أكثر من ٧٢٪ من احتياطي البترول فى العالم ، وأكثر من ٦٠٪ من الحديد الخام و ٨٢٪ من النحاس ، و ٧٨٪ من البوكسيت ، وما يقرب من ٩٠٪ من خام المنجنيز والكروم والنيكل .. كما تحتل هذه البلدان مكانا هاما بالنسبة للكثير من المنتجات الزراعية مثل القطن، والمطاط

الطبيعي ، والارز ، والبن ، والكافو .. كما أن الثروة الطبيعية لبلاد الشرق لم يكتشف منها سوى القليل ..

كل هذا يكشف لنا مدى الانتصارات التي تحققت بعد العدوان الاول ، وخاصة بعد أن انتقل مركز الكفاح من طرد المحتلين الى مجال الاقتصاد ..

وقد حصلت البلدان النامية على النجاحات الاقتصادية الاولى . في عام ١٩٦٤ ازداد الانتاج الصناعي لبلدان آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية مرة ونصف مرة بالقياس الى عام ١٩٤٨ ، وزادت حصة الاقطار النامية في الانتاج الصناعي للعالم الرأسمالي في الفترة بين عام ١٩٤٨ - ١٩٦١ من ٩٪ الى ١٣٪ .

ولكن المسألة ، ليست بهذه البساطة .. فاذا عرفنا أن الدخل السنوي للفرد الواحد من السكان في البلدان التي كانت مستعمرة لا يزيد عن ٦٠ دولارا ، على حين نجده في البلدان المتطورة يصل الى ٨٠٠ دولار .. نستطيع أن ندرك المهام الصعبة أمام تطوير وتنمية اقتصاد البلدان النامية ..

وواجهت ثورة ٢٣ يوليو ، مشاكل التصنيع .. الاشاعات .. وتثبيط الهمم .. والحرب النفسية من الداخل ، ومن الخارج .. ومحاولات متعددة لضرب القطاع العام ..

وحاولت الرأسمالية العالمية ، والقوى الرجعية في الداخل ، أن تعيد الى الأذهان أسطورة الاستعمار التقليدية ، وهي أن « مصر بلد زراعي » .. كما حاولت تجسيم الاخطاء ، لتؤكد وجهة نظرها الكاذبة .. ويكفي أن نسوق كلمات عالم اقتصادي كبير هو « أوسكار لانجه » ، ليكشف لنا هذه الاخطاء .. يقول :

« الخبرة التاريخية أثبتت بصفة عامة ، انه في المرحلة الاولى

للتطوير الاقتصادي ، وبصفة خاصة في المراحل الأولى للتصنيع – لا تكون مشكلة الجهاز الثمنى السليم هي أعظم المشاكل أهمية ، ففي كلا النوعين من أنواع التطوير الاقتصادي – النوع الاشتراكي ، والنوع الثوري الوطني – نجد أنه في الفترة الأولى لا تكون المشكلة الرئيسية هي مشكلة تفاصيل المحاسبة أو الحوافز . وإنما تكون المشكلة الرئيسية هي ضمان نمو سريع للطاقة الانتاجية . . .

وانطلقت مصر في طريق التصنيع ، لم يرهبها النقد المفروض . ولا الحرب الشعواء من الدوائر الاستعمارية . . .

ان المشكلة التي كانت تواجه ثورة ٢٣ يوليو ، كما واجهت كل ثورات التحرير هي محاولة اشباع حاجات الانسان الضرورية للملايين من المحرومين . . . وخلق مجالات للعمل أمام العاطلين . . . ورفع مستوى المعيشة ليصل الى مثيله في الدول المتقدمة . . . وكانت هناك مصاعب . . .

أولا : الأموال اللازمة لاقامة الصناعة . . . فان الدول الصناعية الكبرى ، كانت قبل التصنيع أغنى من الدول النامية ، كما انها أقامت صناعاتها على حساب الأموال المنهوبة من الشعوب المستعمرة . . . وكتب نهرو . . . الجزء الكبير من قيمة تصنيع أوروبا الغربية قد دفعته الهند والصين والاقطار المستعمرة الاخرى التي كان اقتصادها مستعبدا من الدول الاوروبية ،

ثانيا : وضعت الرأسمالية الاستعمارية ، أسعارا منخفضة وزهيدة للمواد الخام والمواد الزراعية ، في حين رفعت أسعار منتجاتها الصناعية الى مستويات عالية ، بحيث تمتص ثروات الشعوب المستعمرة والشعوب النامية .

ثالثا : دخل التصنيع اليوم مرحلة يحتاج فيها الى مهارات

فنية وخبرات حرمت منها شعوب الدول التي كانت مستعمرة ..

وحاول الاستعمار استغلال هذه الصعوبات ليبقى على مستعمراته السابقة في حالة من التخلف تضمن تبعيتها له واستمرار استنزاف دم شعوبها ..

وضربت ثورة ٢٣ يوليو ، ضربتها الثانية ، عندما قبلت قرص « السد العالي » من الاتحاد السوفيتي ..

ان الاتحاد السوفيتي الذي وجه انذاره الى دول العدوان الثلاثي دون مساومة او اشتراطات .. يتقدم من جديد ، بمعوناته الاقتصادية غير المشروطة ليساعد على تطوير اقتصاد مصر بالقروض والمساعدات الفنية ..

وبدأ العمل في السد العالي ..

وازداد جنون الاستعمار العالمي حدة .. واصبحت ثورة مصر تمثل له عدوا رهيبا ، يعطي الشعوب النامية نموذجا حيا للثورة السياسية والاقتصادية في سبيل التحرر من التبعية ، والتخلص من آثار التخلف .. والخروج من دائرة الاستغلال ..

واعترف ولتر ليمان الصحفي الامريكي المعروف ، بهذه التغييرات في ميزان القوى العالمية ، قائلا :

« لا يتوقف تطور الاقطار الضعيفة علينا ، لان لها مصدرا بديلا للحصول على المعدات الاساسية والمساعدة الفنية .. ذلك أن ظهور الاتحاد السوفيتي ، بصفة منافس ، هو أحد الاحداث التاريخية الكبرى في عصرنا .. ان هذا الظهور يغير بشكل جذري وضع الولايات المتحدة الامريكية وحلفائها ، ويضاعف ، بدرجة هائلة ، قوة الشعوب الضعيفة التطور » : »

وشقت مصر طريقها الى التصنيع .. السد العالي .. وتوليد الكهرباء .. والحديد والصلب .. والدواء ..

ولكن هل يمكن أن تعتمد مصر على القروض غير المشروطة وحدها ؟

ان مهمة التصنيع تتطلب مزيدا من المال والجهد .. ومزيدا من التنسيق واستغلال كل امكانيات الشعب ..

قوانين يوليو :

فى ١٩ من يوليو عام ١٩٦١ ، صدرت قوانين يوليو فى الطريق الى الاشتراكية .. وجاء فى التمهيد لاعلان هذه القوانين ..

« لقد آن للثورة ، وهى تقف اليوم على أبواب سنتها العاشرة أن تضع صورة واضحة المعالم والقسمات للمجتمع الجديد فى الجمهورية العربية المتحدة ..

والثورة لم تكن ، ولا يمكن أن تكون ، تغييرا فى شكل الحكم، انها على هذا النحو تصبح انقلابا للحصول على السلطة دون أن تجاوز ذلك الحد لتصبح معنى اجتماعيا بعيد الاثر عميق الجذور ..

انها الثورة فى أصلها ، وأساسها تغيير حقيقى فى المجتمع ينتقل به من أوضاعه التى قامت بسببها الثورة ، ويصل به الى ما يحقق آمال مجموع الشعب ..

وصدرت القوانين التالية ..

✽ قانون بتأميم ١٤٩ شركة ، تشمل جميع البنوك وشركات التأمين .

✽ قانون باسراك القطاع العام فى ٩١ شركة .

* قانون بتحديد ملكية الفرد في ١٥٩ شركة .

* قانون لتنظيم منشآت تصدير القطن .

* قانون بنقل ملكية مكابس القطن للدولة .

وكشفت قوانين التأميم عن حقائق رهيبة . ان ثروة الشعب
المصرى ، ليست في أيدي أبنائه الحقيقيين . بل في أيدي غريبة
ليس بينها وبين الشعب علاقات اجتماعية أو أخلاقية أو انسانية .
ان الاستعمار خلق طبقة من المتصرين ، وأشبهاء المصريين
يملكون كل شيء ، على حين أن جماهير الشعب تعاني الفقر والبؤس
والشقاء .

فهذه بعض أسماء المساهمين في البنك المركزى :

مارسيل ماتوسيان . . أميل ونيلي وجول كتسفليس . .
سلمى هومير (قاصر) تملك ٢٥ ألف جنيه . . أمير هومير (قاصر)
يملك ٢٣ ألف جنيه ، شاربيل هومير (قاصر) يملك ٣٠٠ ألف
جنيه . . ديجينان فرنسوا تاجر (قاصر) يملك نصف مليون
جنيه . . رهوف فرنسوا تاجر (قاصر) يملك نصف مليون جنيه . .
ملفين فرنسوا تاجر (قاصر) يملك نصف مليون جنيه . . ثم
عائلة سرسق وعائلة جيانوتي وحمصى وعقورى وأرقش وأوفادبا
سالم ، وعائلة كويولو . .

هذه بعض نماذج الاسماء التى كانت تملك ثروة مصر ومعها
عائلات البدرأوى والجزار وفرغلى والشيشينى وشريف صبرى خال
الملكة نازلى . .

واذا انتقلنا الى حملة أسهم شركة أبو قير الزراعية نجد
الاسماء التالية :

بوكتى ، وزوغيب ، وفيفانتى ، وزورنج ، وميلاخرينو ،
وجورجيا دسى ، وكروكاكيس ، وخلاط ، وسولوموندس ،
وباكامولى ، وزكار ، واسماعيلون ٠٠ وليس بينهم سوى بعض
أسماء مصرية ، مثل فرغلى وحتحوت وشعراوى ٠٠

وفى شركة وادى كوم امبو ، وكانت أكبر الشركات الزراعية
فى مصر ، نجد « عائلة سرسق » تملك وحدها أكثر من خمسة
آلاف سهم ٠٠ ثم عائلة قرداحى ودى صعب ، وصوايا ، وأنطونييتى ،
وخلاط ، وخورى ، وجونوس ٠٠ وأسماء غريبة أخرى ٠

وشركة أقطان كفر الزيات ، وتملك أسهمها عائلات كوتسيكا ،
وزربينى ، وقطاوى ٠٠ ونماذج من هذا النوع ٠٠

وشركة النصر للمواشير ٠٠ والمساهمين الكبار فيها ، عائلات
يعبيس ، وموصيرى وبنك الكريدى ليونيه بباريس ٠٠

وصورة أخرى ، لشركة كبيرة ضخمة هى « الشركة المصرية
الجديدة » وتمتد أعمالها الى : اصلاح الأراضى ، ولها امتيازات بعض
المناجم المعدنية ، ولها أعمال مالية واسعة النطاق فى شراء وتأجير
الأراضى والمباني ، وكانت تقوم بعمليات كبيرة فى مجال الرى
والصرف ٠٠ وهذه أسماء حملة الأسهم ٠٠

عائلات خورى ، ورينهارت ، وماركو ، وتيسودوراكس ،
ولينادور ، واكدفوييدس ، واسماعيلون ، ودوش ، وجرابيديان ،
وجيسانونى ، وكانلجيان ، وقرداص ، وموصلى ، وسلفاجو ؛
وسرسق ؛ ومينوس وكوتسيكا وفرنجاكى ٠٠ أسماء غريبة تملأ
أكثر من عشر صفحات فولسكاب ، ليس بينها الا ثلاثة أو أربعة
أسماء مصرية صميعة ٠٠

فمن الذى كان يملك مصر ؟ ٠

ان الملايين من العمال والفلاحين المصريين ٠٠ ومئات الآلاف من المثقفين يجاهدون في كل مكان ، ليتحول كل هذا الى اموال وثروات تدخل جيوب أسماء غريبة متمصرة ٠٠ ثم كانت هذه الثروات تحول عن طريق البنوك او التهريب الى الخارج ٠٠

وصدرت قوانين يوليو ، لتحافظ على ثروة الشعب المصري بين ايدي ابنائه ، ولتتحول ارباح الاسهم والشركات الى التصنيع ٠٠ وتحرر الاقتصاد المصري تماما من التبعية الاستعمارية ، وبدأ يشق طريقه لتنعيم الاستقلال السياسي ٠٠

وانعكست آثار تأميم الشركات على الحياة المصرية ٠٠ فاذا أخذنا صناعة الدواء كنموذج للتطور الذى حدث بعد صدور قوانين يوليو ، نستطيع أن نثبت ان الآثار الحقيقية للسير نحو الاشتراكية ٠٠

قبل قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، كانت شركات الدواء الأجنبية تسيطر على ٩٠٪ من الاستيراد ٠٠ فكانت حياة الشعب خاضعة لما يحقق لهذه الشركات أقصى الربح ، وتعاونت مع هذه الشركات الاستعمارية فى عمليات النهب فئة من وكلاء شركات الأدوية ، لا علاقة لهم بالطب أو الصيدلة ٠٠

وخلال العدوان الثلاثى ، ظهر أثر سيادة شركات الدواء الأجنبية على الاستيراد ، فعندما فرض الاستعمار حصاره الاقتصادى اشتركت شركات الدواء الاستعمارية فى هذا الحصار ، على الرغم من منافاة هذا العمل لكل معانى الانسانية ٠٠

لقد كان واضحا ، أن صناعة الدواء فى العالم ، أصبحت من أهم الصناعات التى تستخدم فيها رؤوس أموال ضخمة ٠٠ وتدر على الشركات الأجنبية أرباحا هائلة ٠٠

وكان طبيعيا أن تجند هذه الشركات كل قواها الضخمة من دعاية وتلاعب وتآمر لتمنع تصنيع الدواء فى مصر ٠٠

ولهذا كان من العسير اقامة صناعة الدواء في مصر على المجهودات الفردية ، بل كان لابد من سياسة اشتراكية يتم فيها توحيد الشركات الموجودة ، وهي شركات صغيرة ، اذا قورنت بالشركات الاحتكارية العالمية ، كما كان لابد من مساندة الدولة لصناعة الدواء بالمال ، والمواد ، والقدرات الفنية لحمايتها وتطويرها أمام المنافسة غير الشريفة التي تمارسها الشركات الأجنبية ..

وأعلنت قوانين يوليو ١٩٦١ .. وزاد عدد العاملين في قطاع الدواء من ألف عامل عام ١٩٥٢ الى أكثر من ١٤ ألف عامل عام ١٩٦٦ ..

وزاد انتاج الشركات الجديدة من الدواء ، وبعد أن كانت قيمة انتاجنا المحلي نصف مليون جنيه عام ١٩٥٢ ، أصبح انتاجنا ٢.٥ مليون جنيه عام ١٩٦٦ ..

ونستطيع أن نلخص أثر القوانين الاشتراكية على صناعة الدواء كالآتي ..

زيادة الانتاج .. تخفيض الأسعار .. توفير النقد الأجنبي ..
اتاحة فرص جديدة للعمل .. تدريب مزيد من الفنيين لتحقيق التوسع ..

فاذا طبقنا ما حدث في صناعة الدواء على بقية فروع النشاط الصناعي .. كالأسمنت ، والنسيج ، والسكر ، والزيوت ، والحديد والصلب ، والصناعات الحربية .. نستطيع أن ندرك مدى التغير الذي حدث في حياتنا اليومية من تطبيق قوانين التأمين ..

احتاجت الصناعات الجديدة ، والتوسع في الصناعة انقذية .. الى آلاف من الأيدي العاملة ، وكانت هذه الآلاف في حاجة الى رعاية طبية ، فزاد عدد الأطباء .. وزاد عدد المهندسين .. وانفتحت أبواب

العمل أمام خريجي الجامعات والمدارس المتوسطة .. ونشأت معاهد
التدريب الفني لاعداد العمال الفنيين .. وزادت الأجور .. وقضى
على البطالة .. واتسعت قاعدة التعليم لخلق عمال واعين ..

الميثاق

وبعد عام من صدور قوانين يوليو ، أعلن ميثاق العمل
الوطني ..

ولاول مرة فى تاريخ مصر الحديث .. وتاريخ الدول المتحررة
حديثا من برائن الاستغلال الاستعماري ، تضع الثورة منجها عليا ،
أمام الشعب ، لتوضيح الخطوط السياسية والاجتماعية والسياسية
والفكرية اللازمة لمرحلة التطور ..

ان أهمية الميثاق أنه دليل للعمل ..

وأعلن الميثاق ..

« ان تحالف الرجعية ، ورأس المال المستغل يجب ان يسقط
.. ولا بد ان يتفصح المجال بعد ذلك ديمقراطيا للتفاعل الديمقراطي
بين قوى الشعب العاملة ، وهى الفلاحون والعمال والجنود والمثقفون
والرأسمالية الوطنية »

ثم قال ..

« ومن هنا فان الدستور الجديد يجب ان يضمن للفلاحين
والعمال نصف مقاعد التنظيمات الشعبية والسياسية على جميع
مستوياتها ، بما فيها المجلس النيابي ، باعتبارهم أغلبية الشعب ،
كما انها الأغلبية التى طال حرمانها من حقها الاساسى فى صنع
مستقبلها وتوجيهه » .

فالميثاق ، الذى تحدث عن الصراع الطبقي لعله سلميا ، انما يفتح الطريق أمامنا لمنهج جديد فى البحث والدراسة واعادة كتابة تاريخنا ومشاكلنا الاقتصادية ، على هذا المنهج العلمى ، كما أنه يفتح الطريق من جديد لفهم ثورتنا على حقيقتها ، حتى نستطيع أن نلبى مطالبها فى هذه المرحلة الهامة والحاسمة من تاريخنا ..

واذا كان الميثاق ، فد أعطى العمال والفلاحين ٥٠٪ من مقاعد المجالس الشعبية ، فانما يقرر حقيقة عالمية تؤدى دورا حاسما فى الصراع ضد الاستعمار ..

ان سقوط الاقطاع ورأس المال المستغل ، معناه ببساطة ، زوال السيطرة المالية وانتهاء تحكم رأس المال فى العمل والانتاج .. وهنا لابد أن تحل قوة جديدة محل قوة رأس المال .. هذه القوة الجديدة هى قوة الشعب ..

واذا أردنا أن نحلل قوى الشعب التى حددها الميثاق نجد أن تحالف هذه القوى ، يمثل العامل الحاسم فى الصراع ضد الإستعمار ..

فالرأسمالية الوطنية ، لن تستطيع الصمود بمفردها أمام غزو البضائع الأجنبية ، وغزو رأس المال الأجنبى .. ولقد واجهت بالفعل الافلاس ، كما أوشكت أن تغلق مصانعها على أثر انتهاء الحرب العالمية الثانية .. ونولا قيام ثورة يوليو لثم تصفيتها ..

وحركات التحرر الوطنى تحتاج الى كل نشاط وحماس الرأسمالية الوطنية بكل ما تملك من خبرات ، وقدرات ..

أما العمال ، فقد أصبحوا فى هذه المرحلة التاريخية يمثلون قوة حاسمة فى الكفاح ضد الاستعمار ..

فقوى العمال تؤدى دورا أساسيا فى الانتاج ، كما أنها تقوم

بدور سياسى وكفاحى هام من خلال اتحادات العمال لمواجهة عدوان وتآمر الاستعمار .. فالعمال أساسا هم أول القوى التى يهددها الاستعمار والرجعية فى البلدان المتحررة حديثا .. فمن ناحية ، يتعرضون للبطالة أمام غزو رأس المال الأجنبى ، ومن ناحية أخرى يفقدون مكاسبهم الاجتماعية والاقتصادية اذا وقعوا تحت استنزاف الرأسمالية الاستعمارية ..

والفلاحون .. مهددون باسترداد الرجعية لأراضيهم ..

والمتفقون .. والجنود .. اما أن يستسلموا للقوى الاستعمارية ويصبحوا وقودا للحرب .. واما أن يقاوموا دفاعا عن الحكم الوطنى الذى يحمى حياتهم ويرسم طريق النصر لأطفالهم ..

هذا التحديد من الميثاق لقوى الشعب العامل • كشف أهمية وجوده ، ومعنى التحالف .. أمام قوى العدوان فى المؤامرة الثلاثية الأولى .. ثم الثانية ..

ان أهمية الميثاق ، تتضح فى أنه وضع خطوطا واضحة ، فاصلة بين الماضى المظلم ، كما أراد أن يرسمه لنا الاستعمار ويقودنا اليه .. وبين الغد والمستقبل كما يريده الشعب ...

ويمثل الميثاق مرحلة جديدة من ثورة ٢٣ يوليو ..

كانت المرحلة الأولى هى القضاء على الإقطاع والاستعمار ، وكانت المرحلة الثانية هى الاتجاه للتصنيع .. ثم جاء الميثاق ليؤكد ارتباط ثورة ٢٣ يوليو بالثورة العالمية التى تشتعل فى كل مكان من العالم لتحرير الانسان من قبضة الرأسماليين الاستعماريين ..

ان الميثاق يمثل مرحلة انطلاق الثورة الى المجال الاجتماعى لتحطيم القيود ، وتحرير الانسان .. ونص الميثاق :

« ان الحرية الاجتماعية طريقها الاشتراكية .. ان الحرية الاجتماعية لا يمكن أن تحقق الا بفرضة متكافئة أمام كل مواطن في نصيب عادل من الثروة الوطنية .. »

ان الاشتراكية هي وحدها التي تتيح للانسان فرصا متساوية في التعليم ، بفرض مجانيته ، فلا يستجدي الانسان انعلم ، أو يدفع ثمنه من قوته ..

ان الاشتراكية هي وحدها التي تفتح المجال أمام الضمانات الصحية ، فلا تجعل الطب تجارة ، ولا تجعل الشفاء مقصورا على أصحاب الثروات ..

والاشتراكية هي وحدها التي تنشر الحب بين الناس وتنزع الحقد الذي يولده التنازع على الثروات ..

والاشتراكية هي وحدها التي تعمل من أجل السلام .. فهي ضد الاستعمار .. وضد نهب الشعوب .. وضد تجار الحروب ..

فالاشتراكية هي هدف الانسان ، منذ وعى الانسان وجوده ، فهي وحدها الكفيلة بأن تبسط الخير والحب والاخاء والصدق والشرف بين الناس جميعا .. وأن تنزع الحقد والكراهية والتآمر .. هي وحدها النظام الذي يحقق المساواة بين الناس جميعا ..

مشاكل الثورة

واجهت الثورة منذ عام ١٩٥٢ ، قوى مضادة عنيفة .. قوى خارجية .. وقوى داخلية .. قوى استعمارية .. وقوى رجعية .. وفشلت المؤامرات .. وفشل العدوان ..

ولكن الثورة تواجه مشاكل ..

والمشاكل التي تواجهها الثورة المصرية ، هي نفس المشاكل التي تواجه الدول الآسيوية والافريقية .. ويحددها « بانيكار » سفير الهند في مصر منذ سنوات في كتاب له ..

« .. مشاكل البناء السياسي .. مشاكل الادارة .. المشاكل الاقتصادية .. مشاكل التعليم .. مشاكل التطور العلمى والفنى .. المشاكل الاجتماعية .. »

ومن الناحية السياسية ، ورثت مصر فكرا سياسيا متخلفا . محصورا في نطاق تطورات القرن الماضى .. وما زال النموذج المثالى للحياة الديمقراطية عند الكثيرين ، هو الحياة الديمقراطية كما ارادت انجلترا أن ترسمها لنا من خلال دستور ١٩٢٢ .. هذا الدستور الذى يحدد عضوية مجلس الشيوخ بملكية عدد من الأفدنة أو ثروة مالية معينة .. كما تتطلب عضوية مجلس النواب دفع مبلغ ١٥٠ جنيه في بلد لا يزيد متوسط دخل الغالبية العظمى من أهله عن ٥٠ جنيها في السنة .

ولم يكن من الممكن أن تسير الثورة المصرية في طريقها ، وتجاهل حركة الجماهير الشعبية ومصالحها .

وقامت جبهة التحرير لتحقيق جلاء القوات الانجليزية .. ثم الاتحاد القومى لتأكيد الانتصارات الوطنية .. ثم أخيرا ، الاتحاد الاشتراكي الذى يمثل قوى الشعب المتحالفة في مواجهة مؤامرات الاستعمار ، وعملية البناء الاقتصادى ، والتطور الاجتماعى ..

وواجه الدستور الذى انبثق من الميثاق ، نفس الهجومات التى واجهه دستور الثورة العراقية ..

ففى خلال الثورة العراقية ، كانت الرجعية التركية والانقطاع

والاستعمار ، ترى أن الطبقة الوسطى ، هي جماعة من الفلاحين ليست لديهم خبرة في تولى الشؤون السياسية وممارسة الحكم ..

ونفس الكلمات وجهت الى اشراك الفلاحين والعمال في الحياة السياسية المصرية ، وحصولهم على ٥٠٪ من مقاعد مجلس الأمة ..

ولكن أبسط مبادئ الفكر السياسي ، تقول ان خبرة ممارسة الحكم لا يمكن الوصول اليها الا بالممارسة والتجربة ..

فاذا كانت جماهير الشعب الواسعة قد حرمت الاشتراك في الحياة السياسية خلال الحكم الاستعماري . فان مسئولية الثورة هي فتح المجال أمام الملايين لممارسة حقوقهم السياسي حتى يكون حكم الشعب للشعب ومن الشعب ..

وهذا يتطلب تأكيد حق الغالبية من الشعب الممثل في الفلاحين والعمال في دخول المجالس النيابية ، والمجالس البلدية ، والمجالس المحلية .. ومجالس ادارة المؤسسات والشركات .. ومن خلال هذه المجالس ، يمارس الشعب حقه في الخطأ والصواب .. ويتطور وعيه السياسي والاجتماعي ..

ولقد حدثت في المجالس الديمقراطية في جميع أنحاء العالم .. سواء في المعسكر الاشتراكي .. أو في المعسكر الغربي، أخطاء وجرائم ، ولكن هذه الأخطاء لم تكن أبدا سببا في نكسة الحقوق الديمقراطية ، بل كانت دائما تتطور من خلال التجربة الى الأمام ..

الا أننا لا نستطيع أن نتجاهل ، كثيرا من الأخطاء التي ظهرت خلال التجربة الماضية ، والتي مارست فيها قوى الشعب حقها السياسي ..

فاذا كان من حق الرأسمالية الوطنية أن تعمل وأن تحصل

على الربح .. الا أنه ليس من حقها الربح الفاحش ، والثراء الضخم على حساب قوى التحالف الأخرى .. فقد تعمدت فئات من الرأسمالية الوطنية رفع الاسعار .. كما حاولت فئات منها الوصول الى الثراء بطرق غير مشروعة .. وخلقت السوق السوداء ، واستعملت الرشوة .. واستغلت سلطان المال فى نشر الفساد ..

وقد أدى الانطلاق فى الأخطاء ، الى زيادة التطلعات الطبقيّة عند فئات من قوى الشعب ..

وأصبح بعض العمال يتطلعون الى مزيد من المكاسب الشخصية ، بدل العمل على تأكيد المكاسب الاشتراكية لجمهير الشعب ..

واتجه المثقفون الى الثراء وتحقيق تطلعاتهم الطبقيّة ، بدل العمل على تأكيد تحالف قوى الشعب .. والدفاع عن مصالح القوى المظلومة ..

.. وأمام هذا كله ، بدأ التآمر الاستعماريّ ينفت سمومه .. ويصنع التآمر .. ويمول المؤامرات ..

.. أما المشاكل الاقتصادية .. فهي متعددة ..

وقبل أن نسرّد مشاكلنا الاقتصادية .. لابد من تمييز حقيقة واقعة ، وهي أننا دخلنا بالفعل مرحلة التصنيع .. وأن مئات الألوف ، من العمال يجدون العمل .. وعشرات الألوف من المثقفين يمارسون نشاطهم .. وأن حياتنا أصبحت تعتمد الى حد كبير على ما تصنعه أيدينا ..

أما المشاكل ، فلعّل أولها .. مرحلة بدء الصناعة ..

لا جدال أنه حدثت أخطاء ، سواء فى التخطيط .. أو التطبيق .. والسؤال ، هل كان يمكن تجنب هذه الأخطاء ؟

ونجد أنفسنا هنا نردد ما سبق قلناه بالنسبة للمناخية السياسية .. وهى أن التجربة .. والخطأ والصواب من علامات الحياة والتطور .. والانسان الذى لا يخطئ ، هو الانسان الميت .. وكذلك الشعوب ..

لقد شاهدت بداية التصنيع فى أمريكا وانجلترا ، أخطاء أضخم من الأخطاء التى وقعنا فيها .. على الرغم من أنها كانت مشروعات فردية أساسها الربح .. ومع ذلك أفلست عشرات المشروعات وتحطمت عشرات المصانع ، قبل أن تستقر الصناعة فى الدول الصناعية الكبرى ..

واليوم تواجه الصناعة فى البلدان الرأسمالية أزماتها النحادة .. كما أن الدول الاشتراكية تمارس تجاربها من ناحية اقرار مبدأ الحوافز ، وتراكم العمال فى العواصم ، والتضارب بين السلطات داخل المصنع أو خارجه فى التوجيه والتخطيط .. ولم يقل أحد أن علاج هذه الأخطاء ، يكون بخلق المصانع ..

فاذا أردنا أن نتناول أسس المشاكل الاقتصادية الحالية ، نجدها تتركز فى بعض النقاط .

أولها .. أننا ورثنا عن الاستعمار الأسلوب البيروقراطى فى الادارة والتنظيم .. وهو الأسلوب الذى كان يخدم رأس المال الاستعمارى .. ومع ذلك ، لم نستطع أن نغير هذا المفهوم ، بل ان ذلك يتطلب ممارسة عنيفة .. وتوعية سياسية حتى يمكن أن تتخلص الادارات المختلفة من قيود البيروقراطية .. وحتى تؤمن بأن التطور الاشتراكى يتطلب تكاتف جهود العمال والادارة فى العمل .

ثانياً .. أن اتساع القاعدة الصناعية ، تتطلب جذب هئاتر

الزيف الى المصانع ، وهى عناصر غير مدربة تحتاج الى كثير من التجربة والعمل حتى تتكون لديها العقلية العمالية .

ثالثا .. ان كثيرا من المديرين . مازالوا يتمسكون بأن الخبرة الصناعية لا توجد الا فى العالم الرأسمالى وحده ، ولهذا يسعون الى قصر تعاونهم على الغرب ، على الرغم من أن الغرب قد أعلن صراحة أو بالمؤامرات عن عمدانه لبرامج التصنيع فى البلدان النامية ..

رابعا .. مازالت القاعدة الشعبية العريضة محدودة الدخل، مما يؤثر على قواها الشرائية ، ويحد من ثم من انتاجنا الصناعى، ويؤدى الى زيادة التكاليف ..

خامسا .. ضغط الاستعمار على الدول النامية ، سواء بتخفيض شراء المواد الخام أو زيادة أسعار مصنوعاته .. واغراق الأسواق بسلعه الاستهلاكية ..

وعلى الرغم من هذا كله ، لا يمكن أن نفصل التطور الذى حدث فى مجال الصناعة .. أصبح لدينا مديرون لهم خبرة واسعة فى ادارة المصانع .. نشأت طبقة من العمال الفنيين .. اتسعت قاعدة العمالة .. اكتسبنا خبرة من الأخطاء ..

واليوم ، ندخل مرحلة الكهرباء .. والحديد والصلب .. ويبدأ عهد جديد ..

والمشكلة الثالثة التى تواجهنا هى مشكلة الثقافة .. ان تحرير الجامعات ومعاهد التعليم والصحافة وأجهزة الاعلام من آثار الاستعمار تتطلب جهدا عنيقا .

لقد قام الاستعمار خلال احتلاله الطويل بالتركيز على هذه الأجهزة ، واستطاع أن يسمم حياتنا الثقافية والعلمية .

وكان من أهم ما ركز عليه الاستعمار فى التعليم ، احتقار العمل اليدوى .. وتأكيد تفوق طبقة على طبقة .. وخلق فلسفة تعليمية تهدف الى السلبية والاستسلام .

أما من ناحية أجهزة الاعلام ، فقد سخرها الاستعمار للهجوم على الاتجاهات الاشتراكية .. والعمل على عزل الدول النامية عن الدول الاشتراكية .. وبث الثقافة الرخيصة التى تقوم على الاثارة وتبعث الانحلال .. كما عمد الى تحطيم الفكر العلمى ليسهل عليه تضليل الجماهير .

واذا كان من السهل طرد الاستعمار .. او بناء صناعة حديثة .. فان من أشق مهام المرحلة تغيير المفاهيم التى خلفها الاستعمار وراه .. وتغيير العقليات والأفكار والثقافة الهدامة التى سلطها الاستعمار خلال سبعين عاما ..

ولاجدال أن التطورات السياسية والاقتصادية تعمل اليوم على خلق أجيال جديدة أكثر تحررا من الأجيال التى نشأت فى ظل وجود القوات البريطانية التى كانت تحتل المراكز الحساسة فى أجهزة الدولة .. وتعمل على فرض جبروتها وسلطانها .. وتهدف الى تحطيم روح الشعب ..

ان جيلا جديدا ينمو .. ولكن ذلك يتطلب مزيدا من الجهد والعمل والعرق أمام عدو متمرس وحشى .. ومن حقنا ، أن نتساءل .. هل هذه المشاكل ، علامات صحة ، أو علامات مرض ؟

لاجدال أن الزمن أصبح مع الشعوب المتحررة ، ولم يعد الزمن مع الاستعمار ، كما كان الوضع منذ عشرين عاما .. وكلما مضت أيام وسنن على حركات التحرر الوطنى .. وتدعيم الحكم الوطنى .. أمكن التغلب على الأخطاء ؛ والسير فى طريق التطور .. وبناء الفرد لأطفالنا .. والأجيال القادمة ..

الفصل الحادى عشر

• ان سبع الاحداث العالمية فى
السنوات الاخيرة قد اتى بالكثير من
الشواهد الجديدة على ان الاستعمار
الامريكى هو العنصر الرئيسى للرجعية
العالمية • •

العدوان الأمريكى

منذ

أزمة الكاريبي ٠٠ وفشل أمريكا فى القضاء على ثورة
كوبا ٠٠ يشهد العالم أحداثا مروعة ٠٠ توشك أن
تعصف بالكيان الإنسانى ٠٠ وتهدد كل مكاسب
الشعوب ٠٠ وتندر بالقضاء على الحضارة الإنسانية ٠٠

٠٠ وكانت أول مشاهد المأساة ، قيام العناصر المتطرفة
للاحتكارات الأمريكية بقتل الرئيس جون كيندى ٠٠

ثم تتالت أدوار المهزلة ٠٠ وتدخلت أمريكا سافرة ضد ثورة
شعب الدومينكان ٠٠ وأخذت الحرب فى فيتنام تتصاعد الى درجة
مخيفة تهدد بحرب شاملة ٠٠

وحلال هذه الفترة ، منذ مصرع كيندى الى اليوم ، شهد العالم
انقلابات عسكرية فى آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية ، تطيح
بالحكومات الوطنية ، وتأتى بحكومات رجعية هى أداة للامبريالية
العالية ، والاستعمار الأمريكى ٠٠ ولم يتردد قادة هذه الانقلابات
فى بعض الأحيان من الاعلان عن أنفسهم كعملاء لأمريكا ٠٠ أو أداة
لتنفيذ مؤامرات دبرت فى لندن وواشنطن ، كما حدث بالنسبة
لإنقلاب غانا ٠

وكانت أمريكا تمهد لثوراتها المضادة ضد الشعوب المتحررة ٠٠
بخطوات مرسومة ٠٠

أولا : ضغوط اقتصادية .. أو تخريب بالمعونات .. تضع الحكومات الوطنية في مركز حرج أمام شعوبها ، وبذلك تمهد للانقلابات الرجعية .

ثانيا : تدبير الانقلابات السياسية والعسكرية بوساطة عناصر المخابرات الأمريكية ، أو العملاء الخونة في الداخل ..

ثالثا : حرب نفسية رهيبة ، تقوم على الدعاية والإشاعات والدسائس ، لخداع الشعوب ، والتأثير على مقوماتها النفسية ..

وبلغت الثورة المضادة ذروتها بالانقلاب العسكري في اليونان ، وبدأ التآمر الصريح ضد الثورة العربية ..

ووضحت الخطة التنفيذية ، عندما بدأ تجمع الاسطول الانجليزى حول اليمن ، وزحف الاسطول السادس الأمريكى الى شرق البحر الابيض .. وتحرك اسرائيل الى حدود سوريا وتهديدها العلنى باسقاط الحكم التقدمى فى سوريا ..

ان التناقض الذى كان قائما بين انجلترا وأمريكا خلال العدوان الثلاثين ، اختفى ليحل مكانه نوع من المساومة ، تحتفظ انجلترا من خلاله ببقايا مستعمراتها .. وتحل أمريكا مكان بريطانيا فى مواقعها المتهاوية ..

لقد كانت أمريكا تعلم بهذه الاوهام منذ العدوان الثلاثى الاول ، وأعلنت وكالة الاسوشيتدبرس الأمريكية بصراحة :

« ما ان تسقط هيبة بريطانيا وفرنسا حتى يفسح المجال لأمريكا أن تصبح عاملا قويا ، ان لم يكن مسيطرا ، فى هذه المنطقة »
وفشل الاستعمار الأمريكى فى تحقيق أهدافه منذ معركة

بورسعيد .. ولم يجد أمامه سوى الالتجاء الى أسلوب الاستعمار
التقليدى .. وهو العدوان المباشر .. واتجه الى سوريا ..

وكما قال الرئيس جمال عبد الناصر :

« ان البادى بسوريا سوف يثنى بمصر » .

.. وكان لا بد من مواجهة الاستعمار الأمريكى .

الاستعمار الأمريكى

كتب نهر منذ أكثر من ثلاثين عاما رسالة وجهها الى ابنته
انديرا غاندى ، يقول لها :

« لا تفكرى ، وكان امبراطورية الولايات المتحدة مقصورة على
جزر الفيلبين .. من حيث المظهر هى المستعمرة الوحيدة التى
تملكها ، ولكن الولايات المتحدة ، مراعاة منها لتجربة وصعوبات
الدول الامبريالية الاخرى ، أتقنت الاساليب القديمة ، فهي لا تجشم
نفسها عناء ضم أى بلد على الطريقة التى ضمت بها انجلترا الهند،
فالشيء الذى يهمها هو المنفعة فقط ، ولهذا فهي تسعى جهدا لوضع
ثروات البلد تحت اشرافها .. وهكذا ، وبدون متاعب أو اصطدامات
كبيرة مع النزعة القومية النشيطة تشرف على البلد ، وتنال حصتها
من ثرواته ، وهذا الأسلوب الماكر يسمى بالامبريالية الاقتصادية ..
وهذه الامبريالية لا ترينها على الخريطة .. هذه هى الامبراطورية غير
المنظورة التى تملكها الولايات المتحدة الأمريكية » .

فمنذ انتهاء الحرب العالمية الاولى ، التى قامت لاعادة تقسيم
أسواق العالم بين الرأسماليين العالميين ، بدأت أمريكا ، تأخذ مكانها
كدولة استعمارية كبرى على حساب الدول الاستعمارية القديمة .
ويقول الاقتصادي الفرنسى « هنرى كلود » :

« ان توسع الرأسمالية الامريكية ، يصطدم ، على الاخص
بالرأسمال الانجليزي .. وتتسم هذه الفترة كلها بنضال لا هوادة
فيه بين الولايات المتحدة وانجلترا من أجل الاسواق والمواد الاولية ،
والسيطرة المالية .. »
ثم يقول ..

« واستطاعت الصناعة الامريكية فتحية الصناعة الانجليزية ..
فى عام ١٩١٤ كانت واردات اليابان من أمريكا وانجلترا متساوية ..
وفى عام ١٩٢٧ ، أصبح نصيب انجلترا ٧٪ ونصيب الولايات
المتحدة ٣٠٪ .. وكانت واردات الصين عام ١٩١٣ من انجلترا ١٦٪
ومن أمريكا ٦٪ .. أما فى عام ١٩٢٦ فهبطت النسبة بالنسبة
لانجلترا الى ١٠٪ على حين ارتفعت نسبة أمريكا الى ١٦٪ .. »

وبدأت أمريكا محاولاتها لسيادة الرأسمالية الامريكية على
العالم ، عن طريق الغزو بتصدير مصنوعات ورعوس أموالها ..
وجاءت الحرب العالمية الثانية ، وخرجت الدول الرأسمالية
منهوكة ، مدينة ، على حين استغفادت أمريكا ، وكانت الدولة
الرأسمالية الوحيدة التى أثرت من الحرب ، وخرجت دائنة للدول
الرأسمالية الاخرى .. وطالبت بالثمن ، وأرادت أن تستولى على
مستعمرات حلفائها ..

وفى اكتوبر عام ١٩٤٢ ، أشارت أمريكا الى رغبتها فى أخذ
بعض المستعمرات البريطانية ، مقابل الديون التى تدين بها
انجلترا .. فصرح تشرشل فى انفعال ..
« شئ واحد يجب أن يكون واضحا منذ البداية ، اذا كان
هناك شك عند البعض بشأن هذه المسألة .. اننا نعتزم الإبقاء على
ما هو ملك لنا . فانا لم أصبح رئيس وزراء جلالته لكى أترأس
جلسة تصفية الامبراطورية البريطانية .. »

ولكن الامور لم تمض كما شاء تشرشل ، فالرأسمالية
الامريكية ، استمرت فى طريقها ٠٠ فزادت ارباح أمريكا من غزوها
المالى للمستعمرات من ٨١٠ ملايين دولار عام ١٩٤٦ الى ٣٣٠٣ ملايين
دولار عام ١٩٦١ ٠٠

واحتل نهب الرأسمال الأمريكى ، مكان نهب الاستعمار
القديم ٠٠

وكانت منطقة الشرق الاوسط ، من مراكز الصراع العنيف بين
الاستعمار القديم والاستعمار الجديد ٠٠

فعندما أمت حكومة مصدق فى ايران شركة البترول
الانجليزية الايرانية ٠٠ قررت الحكومة البريطانية والولايات المتحدة
القيام بعمل مشترك لاسقاط مصدق ٠٠ ونجحت العملية ٠٠ ولكن
البريطانيين فقدوا احتكارهم للبترول الايرانى ، وعقدت مجموعة من
شركات البترول الغربية عقدا مع ايران ٠٠ حصلت أمريكا على ٤٠٪
والشركة الانجليزية السابقة ٤٠٪ ، وشركة شل الهولندية ١٤٪
وفرنسا ٦٪ ٠٠

وعندما ألفت مصر المعاهدة عام ١٩٥١ ، تقدمت انجلترا
وأمریکا وتركيا بمقترحات لضم مصر الى معاهدات « الدفاع
المشترك » ، وقبول قوات دولية لحماية قناة السويس ٠٠ ولما كانت
أمريكا هى أقوى هذه الدول ، فكان معنى ذلك ، استبدال الاستعمار
الانجليزى بالاستعمار الأمريكى ٠٠

ورفضت مصر الدفاع المشترك ٠٠

ان الماضى يتكرر بصورة جديدة ٠٠ فالاستعمار القديم كان
يبدأ غزوه بالتجارة ، ثم تتقدم راية الدولة الاستعمارية ٠٠ لتفرض
السيطرة السياسية والعسكرية ٠٠ واليوم ، تتقدم رموس الاموال
ثم تتبعها القواعد العسكرية والاحلاف ٠٠

وبدأ الغزو الأمريكي للشرق الاوسط عندما نجحت الاحتكارات
الامريكية فى السيطرة على الجزء الاكبر من انتاج البترول فى
المنطقة ٠٠ وأمريكا تستثمر ٣٠٪ من رؤوس أموالها المصدرة الى
الخارج فى البترول تعود بربح يبلغ ٥٠٪ من أرباح الاموال
المستثمرة فى الخارج ، ولذلك تتمسك حكومة الرأسماليين
الامريكيين بسيطرتهم على الشرق العربى ٠٠

وكانت الاحتكارات الامريكية مطمئنة الى حراسة القوات
البريطانية لأموالها فى الشرق العربى ٠٠ ولكن حركات التحرر
الوطنى ، وفشل العدوان الثلاثى الاول ، كشف ضعف الاستعمار
القديم ٠٠ وتقدمت أمريكا سافرة ٠٠ وكان مشروع ايزنهاور الاول
ثم مشروع ايزنهاور الثانى ٠٠ ثم ما سمي بالحلف الاسلامى ، كلها
كانت محاولات لفرض السيطرة العسكرية والسياسية على شعوب
الشرق الاوسط ٠٠

وحاولت أمريكا حشد قواتها ، وقوات حلف الاطلنطى تهديد
لسوريا عام ١٩٥٧ ٠٠ فقام الاتحاد السوفيتى بأكبر عرض
عسكرى ، كما أطلق القمر الصناعى الاول ٠٠ وهدأت الحالة ٠٠

وفى يوليو ١٩٥٨ ، على أثر ثورة العراق ، وسقوط حلف
بغداد ، قامت أمريكا بعدوان مكشوف ، وأنزلت قوات عسكرية فى
لبنان والاردن ٠٠ وأعلن الاتحاد السوفيتى احتجاجه العنيف ٠٠

وهنا لا بد أن نتساءل ٠٠ هل السياسة الاستعمارية
الامريكية ، ظاهرة طارئة ؟ وهل هى مجرد رغبة فى ملء جيوب
بعض أصحاب الملايين بثروات الشعوب ؟

ان الحقائق كلها ، تكشف أن الرأسمالية الأمريكية ، مثلها مثل
الرأسمالية الانجليزية ، والرأسمالية الألمانية ، تجد نفسها مدفوعة

الى الفوز والسيطرة ، أمام الأزمات التي تواجهها فى الداخل ..
وتحاول أن تحل هذه الأزمات على حساب الشعوب الاخرى ..

فى عام ١٩٤٩ ، بدأ النشاط الاقتصادى الذى سببته الحرب فى التقلص .. ودلت الاحصائيات الرسمية ، ان عدد العاطلين فى أمريكا ، كان يتردد بين مليون ونصف المليون من العاطلين و٣ ملايين خلال عام ١٩٤٩ .. وهبط متوسط أرباح الشركات الامريكية من ٦٣ مليار دولار الى ٢٧ مليار دولار .. وهبطت اسعار الانتاج الزراعى ١٢٪ كما بيعت الماشية بأسعار بخسة .. وهكذا واجهت أمريكا أزمة قريبة الشبه بأزمة عام ١٩٣٠ ..

والأزمات الرأسمالية تتصاعد ، لتأخذ أحد طريقتين .. اما الاتجاه الى التسليح ، والبحث عن أسواق جديدة ، والحرب ..
واما اجراء تغييرات اجتماعية جذرية فى الداخل ..

وارتفع شعار الرأسماليين الأمريكيين « الحرب ولا الأزمة » ..
وأصبحت الحرب ضرورة .. وأعلنت برامج المساعدات العسكرية .. وحاولت أمريكا حل أزمتها بالسير فى نفس الطريق الذى اختاره هتلر من قبل .. واتجه الرأسماليون الأمريكيون الى برامج التسليح ، وصناعات أسلحة التدمير .. وإعلان التعبئة العسكرية ..

وكان لابد من الاجابة على السؤال .. ماذا بعد توجيه الاقتصاد الأمريكى الى « اقتصاد حربي » ؟ ..

اشتعلت الحرب الكورية .. وظلت تتصاعد .. وحاولت العسكرية الأمريكية مد الحرب الى الصين .. ونادوا بعمل ستار ذرى بين الصين وكوريا ..

ولكن أمريكا فى ذلك الوقت ، لم تكن وحدها التى تملك

القنبلة الذرية ٠٠ ان المعسكر الاشتراكي يملك نفس القوة العسكرية ٠٠

وانتهت الحرب في « كوريا » ، بعد أن وصلت الى أخرج نقطة في تاريخ البشرية ٠٠

ولكن الحرب الكورية لم تكن الا وسيلة لحل الازمة ، فأعلن مدير التجنيد الامريكى ، أن عقد هدنة في كوريا ، لن يوقف برامج التسلح ٠٠ وأعلن في عام ١٩٥١ :

« ان توقف القتال في كوريا لن يؤدي الى أى تبدل أساسى في ضرورة انشاء قوة للدفاع عن الحرية في أى مكان في العالم ٠٠ فتنفذ برنامج السنوات الثلاث للدفاع ، ينبغي أن يستمر ، وسيستمر مهما حدث في كوريا ٠٠ »

واستمر « برنامج التسلح » ، ولكن الرأسماليين الامريكيين عجزوا عن اشغال حرب عالمية ٠٠ واتجهوا الى الضغوط الاقتصادية ٠٠ وأعلنوا برامج «المساعدات الخارجية» و «المعونة» و «الاغاثة» ٠٠
فماذا كانت نتيجة هذه البرامج ؟

منذ عام ١٩٥٠ حتى عام ١٩٥٩ ، وظفت الشركات الأمريكية ٥ر٤ مليار دولار في البلدان النامية ، وحصلت على أرباح مقدارها ٨٢ر١٢ من مليار الدولار ٠٠

ولو بقيت هذه الأرباح في الدول النامية لاستطاعت أن تطور وتنمي اقتصادها ٠٠

وفي البرازيل ، بلغت رموس الأموال الأجنبية التي تستثمر فيها مليارا ٩٥ مليون دولار ٠٠ في حين بلغت الأرباح التي حصلت عليها مليارين و٢٠ مليون دولار ٠٠ وذلك في الفترة ما بين عام ١٩٥٥ و١٩٥٨ ٠

وفى الميزانية التركية عام ١٩٦١ ، نجد المساعدة الامريكية ٥٥٠ مليون ليرة ، على حين خصص لتسديد الديون الاجنبية ٦٥٠ مليون ليرة ٠٠ وهكذا يكون المبلغ المخصص لتسديد الديون الامريكية يزيد عن مقدار « المساعدة » ٠٠

وبلغت الأرباح الاجمالية للاحتكارات الامريكية فى أمريكا بين عامى ١٩٤٦ ، ١٩٥٩ على حسب التقارير الرسمية الامريكية حوالى ١٢٣٤ مليون دولار ٠٠

بل أكثر من ذلك ، نجد أن الغالبية العظمى للقروض الامريكية تصرف على استيراد السلع الاستهلاكية ٠٠

٠٠ والقرض الذى قدمته الرأسمالية الامريكية للهند ، اشترط شراء السلع الامريكية وحدها ٠٠ ونقلها على سفن امريكية.

وكان بديها أن تستيقظ الدول النامية ضد نهب ثرواتها وأموالها ٠٠ وأن ترفض الأحلاف ومشروعات الدفاع المشترك ، والقواعد العسكرية ٠٠ وأن تضع حدودا للمعونات المشروطة ٠٠

وبدأت المقاومة ٠٠ واشتد جنون الرأسمالية الامريكية أمام أزماتها ٠٠ وأخذت فى اشعال حروب صغيرة ، مادامت عاجزة عن اشعال حرب عالمية ٠٠

وتعيش فيتنام الجنوبية اليوم أياما أتعس مما عاشتها أوروبا تحت نير الرأسمالية الألمانية النازية ٠٠

بدأت حرب فيتنام ، عندما كشف شعب فيتنام خدعة المعونات الامريكية وتحركت قوى الشعب ، وشكلت جبهة وطنية ، لوضع حد للتدخل والسيطرة الاستعمارية الامريكية ٠٠

وكان الرئيس « نجودينه ديم » الذى جاءت به المخبرات

الامريكية ، قد بدأ يشور ضد السيطرة الامريكية ، والفساد الذى نشرته فى فيتنام الجنوبية وهاجمت قوات « ديم » مراكز أندية القمار ، ومواخير تدخين الأفيون ، وأسواق بائعات الهوى .. وتدخلت أمريكا ضد هذه الاجراءات بحجة نشر الهدوء والسلام ..

ولم تتردد أمريكا .. انها فرصتها .. فمن ناحية ، تستطيع أن تهدد الدول المتحررة حديثا ، بأن قواتها العسكرية تستطيع اخماد حركات التحرر ومن ناحية أخرى وجدت فى تصعيد حرب فيتنام حلا لمشكلة الاسلحة التى زاد تراكمها فى المصانع الامريكية .

وكانت حرب فيتنام .. وانطلق عقل الرأسمالية الاستعمارية من عقالة .. فكان أشد هوسا وجنونا ووحشية من النازى .. ففى المحاكمة التى عقدها الفيلسوف الانجليزى برتراند راسل ، اتضح أن الأسلوب الذى تستعمله القوات الامريكية فى حرب فيتنام ، قد فاق جرائم النازى فى أوروبا .

محيت قرى « شاوسون » و « كام » فى جنوب فيتنام فى يومى ٢ و ٣ أغسطس عام ١٩٦٥ فى أثناء عملية لتنظيف المنطقة حول قاعدة « داننج » الأمريكية .. وأعطى مشاة البحرية الأمر بحرق وتخريب كل شىء ، وقتل كل فرد ، فهرعوا الى المذبحة صائحين .. « اقتلوهم جميعا .. » كما كانت صيحات الجنود ترتفع .. « أنا اليوم قاتل » .. ولم يدر الجندى الامريكى المسكين، أنه ليس قاتلا فحسب ، بل هو كلب من كلاب الصيد للرأسمالية الامريكية ..

واكتشفت قوات جيش تحرير فيتنام الجنوبية ، فى أثناء حفرها الحنادق على جانب أحد التلال ، مقبرة غريبة .. اكتشفت بها ٢٢ هيكلًا عظيمًا محتفظة بأوضاعها ساعة الوفاة ، راقدة أو واقفة أو ملتوية ، أو مكومة .. والذى أثار الغزع بصورة خاصة ، وجود

هيكل عظمى لشخص بالغ ممسك بهيكل آخر لطفل ٠٠ أم وطفلها قد دفنا أحياء ٠٠ وعلى جانب آخر من التل وجدت حفرة أكبر تحتوى على ٨٢ هيكلًا عظميا لشبان ، واطفال واقفين أو راقدين فى غير نظام ٠٠ »

وأعلن قائد البوذيين فى جبهة التحرير الوطنى ، الكاهن ننج تيين هاو ، تقديراته عن خسائر الشعب الفيتنامى فى الحرب ٠

« ١٦٠ ألفا ماتوا حتى منتصف عام ١٩٦٣ و ٧٠٠ ألف عذبوا واصيبوا بعاهات مستديمة و ٤٠٠ ألف سجنوا و ٣١ ألف حادثة اغتصاب و ٣ آلاف شقت بطونهم وتم استئصال اكبادهم وهم احياء و ٤ آلاف احرقوا وهم احياء و ألف معبد دمرت ، و ٤٦ قرية هوجمت بالكيمالويات السامة و ١٦ ألف معسكر اعتقال ٠٠ »

وقد ذكرت جريدة واشنطن ستار عن تقرير لوكالة انباء الاسوشيتدبرس فى ٢٢ مارس عام ١٩٦٤ ٠٠

« ان منظر الأطفال وهم نصف احياء ، والنساء بالمرحى اجسادهم هو شئ مثير للضغط عند الفيتناميين والأمريكيين على السواء ٠٠ »

وهكذا تدرجت سياسة الرأسمالية الأمريكية الى نفس القمة التى وصلت اليها الرأسمالية الألمانية فى عهد النازى ٠٠

ورفضت ثورة ٢٣ يوليو السير فى ركاب السياسة الأمريكية ٠٠ أو أن تفتح أبواب مصر للرأسمالية الأمريكية ٠٠ ورفضت مشروعات الدفاع ٠٠ ومشروعات ايزنهاور ٠٠ والمعونات المشروطة ٠٠

٠٠ حاولت أمريكا بالضغط ٠٠ والتهديد ٠٠ والإرهاب ٠٠ والتآمر ، أن تفرض سيطرتها ٠٠

ففى عام ١٩٥٥ ، تحركت اسرائيل ٠٠ وردت ثورة ٢٣ يوليو
بتحطيم احتكار السلاح ٠٠ وحصلت من الدول الاشتراكية ، على
السلاح ٠٠

وثارت أمريكا ٠٠ وأرسلت الحكومة الامريكية مستر جورج
الن برسالة خاصة الى القاهرة ، فيها اهاناة للغة المصرية ٠٠ وعندما
عرف الرئيس جمال عبد الناصر مضمون الرسالة قبل أن تصله ،
أعلن أنه سيطرده أى مندوب يحمل مثل هذه الرسالة ٠٠

وبعد تأميم القناة ، سحبتم أمريكا تمويلها للسد العالى ٠٠
وكان الرد قبول عرض الاتحاد السوفيتى ٠٠

وحدث العدوان الثلاثى الأول ، الذى أيدته أمريكا قلبا
وعارضته بالقول ٠٠

ولأول مرة فى تاريخ الشعوب ، تحطم قوى العدوان
الاستعمارية ٠٠ وتفشل سياسة القوة ٠٠ وتنهار القوى العدوانية
٠٠ وسقطت الدعامة الاساسية التى قامت عليها السياسية
الاستعمارية فى غزوها للشعوب ٠٠ فلم يعد الاستعمار يملك وحده
أسلحة الدمار ، بل ظهرت قوى جديدة ، تناصر الشعوب ٠٠
وتعمل للسلام ٠٠ وتحارب طغيان الرأسمالية العالمية .

٠٠ كانت معركة العدوان الثلاثى الأول ، نقطة تحول فى
التاريخ ، حققتها ثورة ٢٣ يوليو ٠٠ وسيظل التاريخ لسنين طويلة
قادمة يذكر معركة بورسعيد كبداية عصر جديد فى تاريخ كفاح
الشعوب ضد أعداء الانسان ٠٠

وفى أعقاب معركة العدوان الثلاثى الأول ، سقط حلف
بغداد ٦٠ وتبخر مشروع ايزنهاور ٠٠ وكانت كلها خطوات انتصار
ضد الاستعمار الأمريكى ٠٠

وانطلقت الشعوب تحقق انتصاراتها .. فى افريقيا ..
وجنوب شرق آسيا .. فى كوبا .. والجزائر .. وغينيا ..
وتنزانيا .. وسوريا .. والعراق .. والكونغو .. وباكستان ..
.. انها الشعوب تنطلق نحو تحررها .. نحو الغد ..
ان الرأسمالية العالمية التى تلقت هذه الضربات المتتالية لم
تستسلم .. وغيّرت أسلوبها .. وبدأت الثورة المضادة التى
تقودها أمريكا ..
ولكن أمريكا لم تعد وحدها التى تملك التفوق العسكرى
والاقتصادى ..

العالم الاشتراكي :

برز دور القوى الاشتراكية فى تدعيم النضال الوطنى خلال
العدوان الثلاثى الأول .. ثم تأكد خلال العدوان الثلاثى الثانى ..
والسؤال .. الى أى مدى تستطيع القوى الاشتراكية فى
العالم مساندة الشعوب فى نضالها ضد الاستعمار العالمى ؟

ظلت القوى الاشتراكية فى العالم ، جماعات مبعثرة فى
ألمانيا وفرنسا وإنجلترا وأمريكا .. تواجه مع الجماهير الشعبيه
ضراوة الرأسمالية العالمية .. وشهدت أوروبا خلال القرن التاسع
عشر ثورات عنيفة ، يقودها الاشتراكيون ، ولكن هذه الثورات
كانت تخمد بوحشية أمام فوهات المدافع .. وكان الاشتراكيون
يواجهون مشائق الرأسماليين ، أو الاعدام بالرصاص فى
السوارع ..

.. وخلال الحرب العالمية الأولى .. فى عام ١٩١٧ نجحت
أول ثورة اشتراكية فى العالم ، وأصبح للاشتراكيين دولة ، لها
جيشها وقواها المناضلة ..

واهتز الرأسماليون العالميون من هول الضربة .. ان أكثر من ٢٠٠ مليون انسان يخرجون من قبضة العبودية الرأسمالية ، وينزعون عن أنفسهم قيود الاستغلال .. ولم تعد روسيا التي تشغل سدس الكرة الأرضية ، سوقا لغزو البضائع الرأسمالية كما لم تعد مواردها نهبا للاستعمار ..

وما ان انتهت الحرب عام ١٩١٩ حتى قررت فرنسا وانجلترا وأمريكا ، التدخل بالسلاح للقضاء على الثورة الروسية ، على الرغم من أن ولسن رئيس الولايات المتحدة ، حذر في إحدى جلسات مؤتمر الصلح السرية في باريس قائلا :

« في الولايات المتحدة رجال من أفضل المواطنين ، ان لم يكونوا من أفضل المفكرين ، يشعرون بمودة نحو الاشتراكية ، لأنها تظهر لهم كنظام يفتح الامكانيات أمام الانسان ، ويرغبون هم انفسهم ان يصلوا اليه .. »

ولكن الرأسمالية العالمية ، دبرت المؤامرات للقضاء على الرئيس ولسن وقتله .. وما زال موت ولسن البطيء يدعو الى الشك ..

وفي صيف ١٩١٩ ، وبدون اعلان الحرب ، اجتاحت جيوش أربع عشرة دولة أراضي الاتحاد السوفيتي ، وهي بريطانيا ، وفرنسا ، وأمريكا ، ألمانيا ، وإيطاليا ، واليابان ، وفنلندا ، ورومانيا ، والصين ، واليونان ، وبولندا ، وصربيا ، وتشيكوسلوفاكيا ..

واستمرت الحرب ثلاث سنوات قاسية ، قامت فيها قوات وضباط الجيوش الرأسمالية ، بأبشع ألوان التعذيب والقتل والنهب وحرق القرى ..

وفى ظل أقصى أنواع الكفاح والتضحية .. فى ظل المجاعة ،
والتخريب .. والفقر .. قامت الجيوش السوفيتية بصدد هجوم
قوى الرأسمالية العالمية ، وردتها على أعقابها ..

وتأكد وجود أول دولة اشتراكية فى العالم ..

بل أكثر من ذلك استطاعت الثورة السوفيتية أن تهز
النظام الرأسمالى داخل بلاده .. فقامت الجماهير فى إيطاليا
والمانيا والمجر بالثورة ضد الرأسمالية ..

ففى عام ١٩٢٠ ، قامت فى إنجلترا حركة قوية تحت ستار
« ارفعوا أيديكم عن روسيا السوفيتية » .

وفى خريف ١٩٢٣ بدأت ثورة مسلحة فى المانيا ..

وفى نفس العام ١٩٢٣ ، قامت ثورات فى بولندا، والمجر ولكنها
أخمدت بقسوة ..

واستمرت المؤامرات والدسائس ضد الاتحاد السوفيتى
حتى اشتعلت الحرب العالمية الثانية ، وقامت النازية أبشع نظم
الرأسمالية العالمية والمسلحة بأقوى وأحدث آلات الحرب الحديثة
بالهجوم على الاتحاد السوفيتى ..

وانتهت الحرب العالمية الثانية .. وبذل أن تودى الى القضاء
على أول دولة اشتراكية فى العالم ، حدث أضخم تغيير فى ميزان
القوى العالمية .. وتكونت ثمانى جمهوريات اشتراكية فى أوروبا ..

وفى أول أكتوبر عام ١٩٤٩ أعلنت جمهورية الصين الشعبية
.. وانتصرت الاشتراكية فى أكبر دول العالم سكانا ..

خلال أقل من أربعين عاما ، نمت القوى الاشتراكية لتضم
٢٥٪ من سكان العالم ..

وبذلك ضاقت رقعة الارض التى يتنازع عليها الراسماليون العالميون من أجل توزيع منتجاتهم والحصول على المواد الخام ، واستغلال الأيدى العاملة بأرخص الأثمان ..

وتحرر الف مليون انسان من ربة العبودية الرأسمالية ، وبدأ انهيار النظام الرأسمالى ..

ولكن أمريكا لم تنس خلال الحرب العالمية الثانية وهى تحارب قوى الفاشية والنازية أن تحالفها مع الاتحاد السوفيتى مؤقت ، وأن صراعا جديدا ينتظرها بعد انتهاء الحرب .. وأن هذا الصراع سيكون أحد أطرافه الاتحاد السوفيتى ، والطرف الثانى أمريكا ..

وأرادت أمريكا ، أن تثبت تفوقها لأرهاب الاتحاد السوفيتى، ففجرت قنبلتها الذرية فوق هيروشيما فى اللحظة التى كانت اليابان على وشك الاستسلام ..

وبعد الحرب مباشرة بدأ سباق التسلح والاعداد لحرب عالمية ضد الدول الاشتراكية .. وظهرت « سياسة التوازن على حافة الحرب » .. و « الحرب الباردة » ..

وأرادت أمريكا أن تستعيد سوق الصين الذى فقدته الرأسمالية العالمية .. فشنت حربها ضد جمهورية كوريا الاشتراكية ، ووصلت فى زحفها الى حدود الصين .. ولكن سرعان ما صدتهم القوات الصينية وردتهم الى اطراف كوريا الجنوبية .. واستمرت الحرب ثلاث سنوات لم تنجح فيها الرأسمالية الأمريكية .. فى اخضاع الشعب الكورى .. بل كانت هزيمة منكرة للجيش الأمريكى ..

وفى أكتوبر عام ١٩٥٧ أطلق الاتحاد السوفيتى أول قمر

صناعى .. تم اكد الاتحاد السوفيتى تفوقه بارسال اول صاروخ الى القمر .. وفى عام ١٩٦١ ، قام جاجارين بأول رحلة للانسان فى الفضاء الخارجى ..

وتأكد تفوق الاتحاد السوفيتى على أمريكا ..

وفى خلال الثورة الكوبية ، اعلن المسئولون الأمريكيون ، أنهم لن يسمحوا بقيام دولة اشتراكية فى نصف العالم الغربى .. وحاولت أمريكا القضاء على الثورة الكوبية ، ولكنها فشلت بعد تأييد الدول الاشتراكية للشعب الكوبى ..

وفى فيتنام ، ما زال الشعب الفيتنامى الذى لا يتجاوز تعدادة احد عشر مليوناً فى الجنوب .. يحارب ببسالة قوى الرأسمالية العالمية بكل ما تملك من مال وسلاح ..

لقد انتهى تفوق الدول الاستعمارية الحربى . وفى نفس الوقت تنمو قوى النظام الاشتراكى فى العالم ..

المؤامرة

ادرك كنيدي خطورة الموقف العالمى .. وخطورة المازق الذى تدفع الاحتكارات الاستعمارية الأمريكية العالم اليه .. وحاول تحديد أرباح أصحاب الملايين من احتكارات الصلب .. كما أراد ان يأخذ ببعض اتجاهات « العهد الجديد » الذى حاول روزفلت تطبيقه قبل الحرب .. ولكن الاحتكارات الأمريكية لم تمهله ، ودبرت جريمة قتله ..

وجاء جونسون .. ليبدأ عهد الحروب الصغيرة .. وظل يتصاعد بالحرب فى فيتنام .. وهاجم ثورة الدومنيكان بجيوش أمريكية .. وظل يعد المؤامرة لحرب الشرق الأوسط .. ضد حكوماتها الوطنية ..

وتحركات حاملات الطائرات الأمريكية الى شرق البحر الأبيض
.. وأعلن ان سفينة القيادة ، والطراة « لنيل روك » المزودة
بالصواريخ الموجهة ستتحرك الى عرض البحر ..

وأعلن المسئولون الأمريكيون أن قوة من مشاة الأسطول
الأمريكي السادس مستعدة للقتال ..

كان كل شيء معدا لمؤامرة عدوان ثلاثية ثانية ضد الجمهورية
العربية ..

وأعلن الاتحاد السوفيتي ، أنه سيقابل أى تدخل فى مشكلة
الشرق الأوسط بعمل مماثل ..

ولكن العدوان الثلاثى الثانى ، كان مدبراً ، بخسة وتآمر
قدر ..

وكما يقول « سعد زهران » فى مقاله الصادر بعد العدوان
مباشرة :

« كشفت معارك ٥ - ٩ يونيه عن الأبعاد الحقيقية لعملية
التكامل العسكرى الذى أحكمت خيوطها بين أداة الحرب الأمريكية
واسرائيل ، ولعل القادة والحبراء العسكريين هم وحدهم الذين
يستطيعون شرح أبعاد هذه العملية ، وإذا كان ثمة مفاجأة فى
حرب ١٩٦٧ فهى هذه ، وليست أن المعتدين وجهوا إلينا الضربة
الأولى ، فالضربة الأولى كانت متوقعة ، وكان سليما تماما - فى
إطار الملامسات السياسية التى حكمت الموقف كله - ألا تأتى
الضربة الأولى من جانبنا ، غير أن الاستراتيجية العامة لمواجهة
العدوان اثبتت على تصور نوع من تكرار ما حدث عام ١٩٥٦ ، أى
صدام مسلح بين قوات اسرائيل - كوحدة منفصلة - وبين قوات
الجمهورية العربية المتحدة ، فإذا تدخلت القوات المسلحة للولايات

المتحدة ، يمكن ان تتدخل القوات المسلحة للاتحاد السوفيتي بنفس الدرجة لمواجهة العدوان ، والمفاجأة التي حدثت هي ان العدوان وقع على غير تلك الصورة . كانت عملية التكامل العسكري الأمريكي - الاسرائيلي قد تمت قبل ٥ يونيو » ..

ثم يوضح ماحدث خلال المعركة العسكرية من تحركات عشرات القطع البحرية في الاسطول السادس الأمريكي ، والاسطول البريطاني في مياه البحرين الاحمر والابيض ، ومشاركتها في العمليات الحربية من بعيد .. وتسخير شبكات الاستطلاع بالأقمار الصناعية ، وطائرات التجسس ، وسفن الاستخبار ، وأجهزة الرادار .. وخلق شبكة من الاتصالات السلكية واللاسلكية والألكترونية لتوصيل المعلومات لحظة بلحظة الى القوات المحاربة في الجبهة والى الطائرات المقيمة على أهدافها وهي في طريق الذهاب والعودة ، والتشويش على شبكات اتصال الجانب العربي ، وتعطيلها والتدخل فيها لاصدار تعليمات وأوامر مربكة أو مضللة .. وسيل الامدادات ساعة بساعة من عشرات القواعد الأمريكية في ليبيا واليونان ومن فوق حاملات الطائرات ، وسفن النقل ، وعمل جسر جوى ، يصل بين منطقة العمليات ، وبين مصدر الامدادات في هذه القواعد ..

كانت هذه هي المفاجأة في المعركة .. وعلم قدر ما فيها من مباغتة ، وتآمر اجرامى ، فانها كشفت للعالم العربى والعالم اجمع ، ان اسرائيل ، ليست دولة ، ولكنها ترسانة عسكرية للرأسمالية العالمية .. وهي قاعدة إمامية للجيش الأمريكية . بل هي قوى الهجوم للاستعمار فى الشرق العربى ..

ان الرأسمالية العالمية تمسول اسرائيل بالمال والسلاح والرجال .. فاشتريت التطوعين .. وسلحتهم بأموال احتكارات

البترول والشركات العالمية التي تستنزف الأرباح من الشعوب العربية •

ان اسرائيل التي تتكون من مليونين ونصف المليون من السكان ، لا يمكن أن تشكل جيشا من مليون مجند ، والباقي مدنيون في خدمة الجهاز العسكري ••

ان اسرائيل بإمكاناتها الاقتصادية المحدودة جغرافيا ، لا يمكن أن تملك هذه الترسانة من أداة الحرب الجهنمية ••
ان القوات الاسرائيلية ، ليست من خلق اسرائيل ، ولكنهم مرتزقة مغامرون ، تستأجرهم الامبريالية العالمية من كل أنحاء العالم ••

ان نفس الجنود والأسلحة التي تحارب ضد شعب فيتنام هم أنفسهم الذين ضربوا ثورة الكونغو ، وهم أيضا الذين تجمعوا على حدود اليمن ، وهم أيضا الذين حاربوا ويحاربون ضد الشعوب العربية •• وهم على استعداد للذهاب الى أى مكان تشور فيه الشعوب ضد جلاديها ومستغليها من الرأسماليين العالميين وشركات الاستعمار العالمى ••

وتأكد خلال العدوان الثلاثى الأخير ، ما أعلنه السناتور الأمريكى رايك ، رئيس لجنة الشئون الخارجية عام ١٩٥٣ فى مجلس الشيوخ الأمريكى من أن الولايات المتحدة الأمريكية تعتبر اسرائيل القاعدة الأساسية للشئون العسكرية فى الشرق الأوسط •

كما تأكد أيضا مانتشرته صحيفة ها ارتس الاسرائيلية عام ١٩٦٢ ، أن زعماء اسرائيل ، ومعظم السكان فى اسرائيل يعتقدون أن الولايات المتحدة مسئولة عن اسرائيل حتى أصبحوا يؤمنون بأن اسرائيل ولاية أمريكية ، أو هى الولاية الحادية والخمسون من الولايات المتحدة الأمريكية •

على هذا الاساس الجديد الذى ظهر بوضوح وتاكيد خلال
المؤامرة الاخيرة ، كان لابد من وضع أسس جديدة للتعاون بين الدول
المتحررة الحديثة والدول الاشتراكية حتى يمكن مواجهة الثورة المضادة
فى شكلها المفاجئ الجديد .

واجتمعت الدول الاشتراكية ، وأعلنت سحب اعترافها
بإسرائيل .. وبدأ تعاون عسكرى واقتصادى لازالة آثار العدوان ..
وأعلنت الدول الاشتراكية أن وجود إسرائيل نفسه ، أصبح أمرا
مشكوكا فيه ..

ماذا تريد أمريكا ؟

والسؤال .. ماذا تريد أمريكا من وراء اسقاط الحكم الوطنى
فى مصر وسوريا .. وضرب حركات التحرر فى الشرق العربى ؟
ان الاجابة على هذا السؤال تتطلب كشف آثار الاستعمار
الامريكى بالنسبة لكل فئة من فئات الشعب حتى يمكن توضيح
اهداف أمريكا :

الموظفون ..

نشرت مجلة « ريدرز دايجست » مقالا للكاتب الامريكى
« ستروزر » ، يقول فيه : انه اذا كانت وزارة الخارجية الامريكية
قد استخدمت عام ١٩٤٨ لثلاثون المساعدة ٨٥٠ موظفا ، فان هذا
العدد تضاعف فى الوقت الحاضر الى ٤٢ ألف موظف .. ولكن
النواتر العليا فى أمريكا ترى أن عدد الموظفين الأمريكين فى البلدان
النامية لايزال قليلا .

وفى ايران يتكون جهاز « المساعدة الامريكية » من عدة آلاف
من الاختصاصيين ، ويتناول المستشارون والخبراء الأمريكيون مرتبات

أسطورية تنهك خزانة الدولة .. فبينما يتقاضى الموظف الأمريكي في إيران مرتبا شهريا لا يقل عن ستة أو سبعة آلاف ريال ، نجد غالبية الموظفين الإيرانيين لا تتجاوز مرتباتهم ٣٠٠ أو ٤٠٠ ريال .

ان نفس ماحدث بعد الاحتلال البريطاني لمصر عام ١٨٨٢ يحدث اليوم فى كل بلد يطوّه التدخل الأمريكى .

الفلاحون ..

ونستطيع أن نتبين حال الفلاح فى ظل السيطرة الامريكية ، من الواقع فى كوبا قبل ثورة كاسترو .. يقول بول سويزى الكاتب السياسى الأمريكى فى كتابه « ثورة كوبا » .

« بعثت أمريكا عام ١٩٢٠ خبراء سيطروا على الحكومة الكويتية التى لا تستطيع أن تسدد ديونها للبنوك ، واستحكمت القبضة الامريكية على كوبا .. وهكذا بعد أن كانت نسبة الانتاج من الملاك الأمريكيين ١٠٪ فى عام ١٨٩٦ ، أصبحت ٣٥٪ فى عام ١٩١٤ ، ثم ٦٣٪ فى عام ١٩٢٦ . »

ولم تكن قبضة الأمريكيين على السكر وحده بل كان على جميع الفروع الأخرى فى اقتصاد كوبا ، ففي عام ١٩٥٦ ، كان للأمريكيين ٩٠٪ من شركات التليفون والشئون الكهربائية و ٥٠٪ من السكك الحديدية ، ٤٠٪ فى المواد الأولية لانتاج السكر .. »

ويقول الكاتب الأمريكى عن كوبا فى ظل السيطرة الامريكية

قبل الثورة ..

« ان الحال فى كوبا لم يكن موتا فحسب ، بل كان انتحارا .. » وما حدث بالنسبة للفلاح فى كوبا قبل ثورتها ، نجده اليوم فى كل بلاد أمريكا اللاتينية التى تحكمها حكومات موالية أو خاضعة لسيطرة الرأسمالية الأمريكية . فالأرض فى أيدى الملاك الأمريكيين

.. والمحصولات خاضعة لأسعار السوق الرأسمالية التي تخفض
ثمن المواد الخام ، وترفع ثمن البضائع الاستهلاكية .
وهكذا أيضا الحال في ايران بعد سقوط مصدق .. وعودة
الشاه .. عادت الأرض الى الاقطاعيين ، يعربدون ، ويستنزفون
عرق ملايين الفلاحين في الملهذات والشبهوات .

الرأسمالية الوطنية

وفي غانا على أثر الانقلاب المشنوم ، عادت الشركات الأجنبية
الى ملكية الرأسمالية الاستعمارية .. وتدفتت البضائع الأجنبية ..
وبدأت الصناعات الوطنية في التقلص .. وأفلسست المصانع الصغيرة
أمام زحف الرأسمالية العالمية .. وشرذ آلاف الموظفين والعمال الذين
كانوا يعملون في القطاع العام والقطاع الخاص .

وفي فيتنام الجنوبية انخفض الانتاج الصناعي الوطنى تحت
السيطرة الامريكية الى ٥٠٪ .
وفي أمريكا اللاتينية تسيطر الشركات الاحتكارية الامريكية
على فروع كاملة للانتاج الصناعي والزراعى على السواء ..

الجيش ..

جندت أمريكا ، جيوش كوريا الجنوبية ، والفلبين ، واستراليا ،
وتركيا ، واليونان وقزت بهم فى حربها ضد كوريا الشمالية عام
١٩٥٠ .

وفي الحرب الفيتنامية .. تتكرر نفس المأساة ، وتساق جيوش
الدول التى خضعت للسيطرة الامريكية الى المجزرة .

العمال ..

حياتهم أسود من حياة الملونين داخل أمريكا .. ان حياة
العامل فى الدول التى سيطرت عليها أمريكا ، لا تساوى أكثر من

حلقة رصاص ٠٠ فالعمال بالنسبة للرأسمالية العالمية هم وقود
الثروة ٠٠ وكلما ازداد احتراق العمال داخل المصانع ، زادت
دخول الرأسماليين العالميين ٠٠

ان أسلوب الدعاية الامريكية لا يختلف كثيرا عن الأسلوب
الذى مهدت به انجلترا لاحتلالها مصر ٠٠ فهي تتحدث عن
« المساعدات » و « المعونات الاقتصادية » و « رفع مستوى
الشعب » و « الاستقرار فى المنطقة » ٠٠

وكما يقول فيتونى فى كتابه عن « البلدان المتخلفة وسياسة
الغرب الاقتصادية » ٠٠

« ان حكومة الولايات المتحدة تلزم الى أمريكا اللاتينية مساعدة
مُشيلة ٠ وفى الوقت نفسه هى تبتز منها مليارين من الدولارات
سنويا ٠٠ »

ان أهداف العدوان الأصلية ، هى ضرب الثورة العربية ،
والإطاحة بقيادتها فى القاهرة ، ثم إسقاط بقية الحكومات العربية
التقدمية ، لفتح العالم العربى أمام نفوذ الرأسمالية الامريكية الذى
تتركز قاعدته الامامية اليوم فى اسرائيل ٠٠

ان أمريكا تريد لاسرائيل ، أن تقوم بدور الرجل الأبيض فى
منطقة يسكنها مائة مليون من الملونين العرب ٠٠ كما يراهم رأس
المال الأمريكى ٠٠

نتائج العدوان

كانت أهداف العدوان الجديد ، هى نفس أهداف الاحتلال
البريطانى منذ أكثر من ٨٠ عاما ٠٠ ونسيت أمريكا أن العالم قد
تغير ٠٠ وأن الشعوب أصبحت أكثر وعيا ٠٠ وأن قوى التحرر

فى صعود ٠٠ وأن الامبريالية العسكرية لم تعد القوة المسيطرة على العالم ٠٠

وفى مساء ٩ من يوليو عام ١٩٦٧ ، شهد العالم لحظات وقف فيها مبهور الأنفاس ٠٠ ولم تمض دقائق ، حتى اهتز العالم بأصخم تحركات شعبية ٠٠ فى لبنان ٠٠ والجزائر ٠٠ وسوريا ٠٠ والعراق والسودان ٠٠ وليبيا ٠٠ والأردن ٠٠ واليمن ٠٠ والجنوب العربى ٠٠ وتونس ٠٠ ومراكش ٠٠ العالم العربى كله يهدر فى صرخة واحدة ٠٠ « ناصر ٠٠ ناصر ٠٠ »

واعترفت دوائر الغرب الاستعمارية بأن « عبد الناصر » عاد أقوى مما كان فى أى وقت مضى ، وأنه أصبح قادرا من موقع القيادة على توجيه ضربات حاسمة ستؤدى فى النهاية الى تدمير الاستعمار ، وطرد الرأسمالية العالمية المستغلة من الشرق العربى كله ٠٠

وفشل الاستعمار الأمريكى فى تحقيق هدفه الرئيسى من العدوان ، كما فشل من قبله الاستعمار الانجليزى فى عدوانه ٠٠ ١٩٥٦

وكشفت المعركة عن الوجه الحقيقى لأمريكا ، كقوة عدوانية تمول المؤامرات والعدوان وتساهم فيه ضد الشعوب العربية ، وارتفع القناع عن الاستعمار الأمريكى كعدو رئيسى للعرب فى معركتهم من أجل التحرر ، وطرد الصهيونية ٠٠

ودخل التضامن العربى مرحلة جديدة ، تقسوم فيه الجماهير الواسعة بدور أساسى ٠٠ وتتكاثر فيه الحكومات الوطنية على أسس أكثر عمقا وترابطا ، لمواجهة العدو الذى كان يتسلل خفية ٠٠ وانتقلت المبادرة من يد الاستعمار الى يد الشعوب ٠٠

وأصبحت انجلترا وأمريكا في موقف الدفاع عن مصالحهما بعد أن كانت تقوم بالهجوم على جبهات الشعوب العربية ..

كما ظهرت قدرات العالم العربي الاقتصادية ، فإن أرباح الشركات الأمريكية والانجليزية التي بلغت أكثر من ١٨٠٠٠٠٠٠٠ مليون دولار خلال السنوات ١٩٥٠ - ١٩٦٤ ولم يدخل البلاد العربية منها سوى ١٣٠٠٠ مليون دولار ، هذه الثروة أصبحت اليوم تحت الدراسة لاعادة الحقوق الى الشعوب العربية من أموالها المنهوبة ..

ومن خلال المعركة ، ظهرت إبعاد مؤامرة الرأسمالية العالمية في زحفها لتطويق وضرب الحكومات والحركات الوطنية في آسيا وأفريقيا .. ثم ضرب الدول الاشتراكية واحدة بعد الأخرى في أوروبا الشرقية .. ولكن هذه الأحلام كلها تبخرت ..

ومن جديد يرتفع المد الثوري العالمي ضد الرأسمالية العالمية ..

انها مرحلة انهيار النظام الاستعماري .. انها نهاية نظام العبودية الرأسمالية ..

انه القدر للشعوب .. انها الحياة للأجيال القادمة ..

انها المعركة الأخيرة ضد الاستغلال والاستعباد .. وبعدها يشرق السلام على العالم من أجل بسملة حلوة على شفاه أطفالنا ..

القاهرة ١٥ يوليو ١٩٦٧

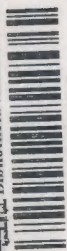
فهرس

الموضوع	الصفحة
الاهداء	٣
الفصل الأول	
الفرد والتاريخ	٦
الفصل الثاني	
بين استعمارين	١٦
الفصل الثالث	
قبل الثورة	٤٢
الفصل الرابع	
الثورة العربية	٦٦
الفصل الخامس	
الثورة المضادة	٨٦
الفصل السادس	
العدوان الاستعماري	١٠٨
الفصل السابع	
الاحتلال البريطاني	١٣٢
الفصل الثامن	
مصر .. والاشتراكية	١٥٢
الفصل التاسع	
بين ثورتين	١٧٦
الفصل العاشر	
ثورة ٢٣ يوليو	٢٠٨
الفصل الحادي عشر	
العدوان الأمريكي	٢٣٨

وزارة الثقافة
المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العرب للطباعة والنشر
١٩٦٧

الثن ٢٠ قرشا

Bibliotheca Alexandrina



0687605